روايات الهلال

هالة البدرى



امرأة.. ما

Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال
الإصدار الأول :
يناير ١٩٤٩

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتير التحرير
محمود قاسم

ثمن النسخة .

إهداء 2005

أ/إبراهيم منصور غنيم

القاهرة

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - امريكا واوروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لإمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول . الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت . ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : القاهرة ج . م . ع
TELEX 92703 hilal u
FAX 36254

بريد الإلكترونى •
darhilal@idsc.g

امـــرأةٌ .. مَا

روايـــة

هـــالَه البَـــدري

* لوحة الغلاف من أعمال الفنان: **عدلى رزق الله**

صفر

متاهة

أطفأت أنوار السيارة، وتسللت من باب الحديقة إلى البيت. عتمة خفيفة وهدوء له رائحة أريج نفاذة، تفوح بها أزهار الأبصال البيضاء التى قطفتها فى الصباح الباكر، ووضعتها فى المزهريات الكريستال الموزعة في الغرف. نثرت الأزهار بتلات صفراء ناعمة تشبه بودرة خفيفة على أنحاء الطابق الأرضى من الفيللا، فأشاعت فيه وجوداً حاراً حريفاً بعض الشيء، يشبه عطر اللافندر. استدارت معظم أعناق عباد الشمس ناحية النعاس، إلا ما كانت قريبة من الضوء الشاحب الذى أفلت من الثريات الصفراء التى تلقى بظلال مبرقشة من خلف النحاس المقصوص بأشكال أغصان وأوراق نباتات. كل ما فى المكان يوحى بذوق خاص ناعم، تشرخه فوضى ركام اسطوانات الورق الذى يضم الرسوم والخرائط المكدسة تحت تمثال الإسكندر، الذى لا ينطفئ الضوء من فوقه. في الناحية الأخرى من الدهليز الطويل، تسللت الخطوات حريصة على السرية، وانزرعت تحت شماعة الملابس، فانعكس ظلها على المكتب البللورى الذى تحمله حورية من الخزف. جاهدت ألاّ تشعر الكائنات

التى تعشقها- نباتات وكلاب وقطط- بحرارة وجودها الجسدى.

أمسكت بجلباب من القماش "اللينو"، وسحبت نعلاً خفيفاً، ثم فكت أزرار البلوزة بحرص، وهى تتلفت تتابع حركة صرصار غيط راح يدق بأصوات علت عن دقات قلبها الذى كانت تخاله يعوى. ألقت بملابسها كلها فوق المقعد، فاهتز تمثال لفينوس فى رف المكتبة المجاور. لحقت به قبل أن يهوى إلى الأرض. ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم تنفست بعمق. حين ألفت نفسها فى النهاية حبيسة قميص النوم، تجرأت وضغطت زر التليفزيون، وجدت السهرة توشك أن تنتهى، وطالعتها أخبار ٢٤ ساعة. حركت مؤشر الراديو وضبطته على موجة البرنامج الموسيقى. لم تعرف- وهى تفتح النافذة الواسعة، التى تطل على الحديقة من جهتها البحرية- أنها تفعل هذا كل يوم فى هذه الساعة، وأنها ملأت رئتيها بنفس العمق آلاف المرات، وهى ترتعش خوفاً من إصدار صوت، كأنها تخترق حجباً غير منظورة.

حين دفعت الباب- الذى أصدر حشرجته اليومية المعتادة- التفتت إليه، واضعة كفاً على فمها والأخرى على الباب، حتى لا يرتد الزنبرك الذى يجذب الضلفة السلك بعنف؛ لكنه دوى: توك رك رك. كأنها تسمعه للمرة الأولى. خطت نحو الحديقة، فجاء "روكي" يتمسح فى قدميها: "أهلاً.. أنت أول من يشعر بوجودى، دائماً تبادرنى ببشاشة، علمتك ألا تصدر صوتاً وأنت تستقبلنى؛ حتى لا ينفضح وجودنا معاً، ثم تجلس بجوارى وأنا أقرأ؛ كأننا خلقنا هكذا جالسين منذ الأزل". ملست بأصابعها فوق رأس الحصان اليونانى الشهير الذى ظل رافعاً قدميه الأماميتين، فاتحاً جناحيه بنصف انفراجة وهو يهم بالطيران، حلمها الأزلى الذى يخايلها دون أن تقوى على أن

تنتزع قدميها المغروستين فى الأرض.. "آمين يا بيجاسوس!!"، أنين يتردد بين نباتاتها وأزهارها دائماً. مسحت عيناها أرجاء الحديقة، وتأكدت من السكون الذى تصفه بأنه الحالة التى تسمح لكائنات غيرنا بامتلاك الكون بعيداً عنا. صدح ذكر ضفدع منادياً أنثاه، فأقلقها هاجس: "هل مصطفى نائم فعلاً، أم يتظاهر بالنوم، أم يهرب من لقائى؟ أعرف أنه يصحو حين أدخل البيت. مرات كثيرة أظنه يعرف كل شيء".

أمسكت بالفصل الأخير من رواية عمر الجديدة "**متاهة**"، وراح خيالها يستطيل فوق جدار الحديقة ويمتد، حتى طالت يدها الطابق الأول المظلم عند الجيران، وراحت تقرأ حادث القتل. "يصف عمر تضاريس بيتى كأنه عاش فيه، رغم أنه لم يزرنى مرة واحدة، ربما لكثرة التفاصيل التى سمعها منى". استمرت تلتهم الكلمات بعينين محبتين فخورتين، تحت مصباح يركز الضوء على صفحات الكتاب وحدها.

تعليقاته لا تأتى من فراغ. هل يعقل أنه تصالح مع وضعنا هذا؟ أن نعيش معاً حياة مزدوجة، نصفها علنى يحافظ على الوضع الإجتماعى، والآخر سرى؟ لماذا يقبل، وهو الذى يدير ظهره للماضى دائماً؟ هل لمجرد التشبث بما يمتلك؟ أم هى مسألة كرامة؟ هذا تبسيط مخل! لماذا أشعر باستنفار حواسى كأن الأشياء من حولى تنبض فوق وردات الأعصاب. ارتجفت من إحساسها الذى يتنقل بين الخوف من الأصوات التى تعلو، والأضواء التى تتراقص، والحرارة التى تشكشك بدنها، وبين الترقب الذى يبثه عمر فى المناخ المحيط حول بطلته التى تمثلها:

كل ما حولي مربوط بسلك يلتف حول أمعائي. في الكون شيء ما غامض، أحاول الخروج من تحت أنقاضه دون جدوى. كأني أرى سحابةً تظلل السماء طوال الطريق، في الصيف لا يزور السحاب السماء إلاَّ نادراً. هل تخبرني السماء بما أعجز عن إدراكه المادي؟

ذيلٌ طويل أسود لابد أنه قط، فالفأر لا يملك ذيلاً بهذا الطول. كيف لم أره، وقد عبرني ليصل إلى الكراسي البامبو من هذه الناحية؟ هو قطٌ بلا شك، فالعيون الأخرى التي تبرق- في الجهة المقابلة- تعني أنهم يتجمعون لحدث ما.

كتب عمر هذه النهاية دون اقتناع، ليثبت لي عكس رأيي. قلت له: دعه يقتلها. قال: لا أريد هذا الاستسلام. معنى هذا أن الرواية تدينها؛ هذا ما يُرضي المجتمع الذي يعيش بالفعل حياتين متناقضتين.

أفزعها هبوط مفاجئ لقطٍ رصاصي اللون أمام القط الأسود. لوحت كأنها ستقذفه بشيء ففرا معاً إلى الأشجار، وتبعثرت خيالاتهما التي كانت منذ قليل كأنها حفل زفافٍ للأشباح. تشابكت أصابع يديها معاً، وهي تتمدد على الكرسي، فاردةً ساقيها فوق الكرسي المقابل، تماماً مثل المشهد المكتوب في الأوراق أمامها:

حين وصله نور السيارة، وشعر بدخولها المتسلل إلى البيت، انزرع وسط نباتات الشرفة، مطمئناً للسكون، حتى بخل نسيجه، واعتاد الهواء حرارة وجوده: "كيف لم تكتشف ناهد هذه الحرارة بقربها، وهي التي تلتقط بالغريزة المعرفة بالعالم حولها تماماً مثل الكائنات البرية الحذرة؟ هل شغلها الحذر المادي اليومي، وتركيزها على عدم إيقاظي، عن إدراك أنني موجود بالفعل في المكان؟ ربما تظنني غافلاً عما تعيشه؛ ألغتني من حياتها كأنها تمتلك القدرة على

الإلغاء. سنعرف الآن مَن يستطيع إلغاء مَن".

كان قد قضى ما بعد الظهيرة يرتب أوانى النباتات. أبـدل آنيـةً كبيرةً بآنية أصغر منها فوق الحامل الذى يعلو مكان جلوسها للقـراءة اليومية بعد منتصف الليل. وضع خشبةً رفيعةً بين الحـامل الحديـد والأصيص، حتى لا ينزلق منه قبل الموعد. وحين تأكد تمامـاً أنـه يستطيع أن يسحب الخشبة. فينزلق الأصيص، وضعه برفق مطمئنـاً لثباته بمساعدة الخشبة، أبدل اثنين آخريـن بنفـس الطريقـة حتـى أصبحت سماء الحديقة مُلغمة.

لاحظت خيالها الذى يتمدد أمامها فوق الجـدار، وهـى تقلـب الأوراق: "من الذى وضع لى الكرسى بهذه الدقة، كأنه يجهزه لى؟"

ابتسمت وهى ترفع رأسها ناحية السماء، فـاصطدمت عيناهـا بأصيص زرع هائل يهوى من فوق إفريز الشرفة فى الطـابق الأول. خلفه، أدركت التماع عينى مصطفى العميقتين، وهما ترمان الحدقتيـن بكراهية هائلة ما عهدتها فيه. اختلط الفزع المفاجىء بإدراك سـاخر للقصة كلها، فأطلقت إلى الدنيا بسمةً واسـعةً دون أن تتحـرك مـن مكانها.

واحد

لقـــاء

تأملته فى صمته، وهو يلتقط السيجار مـــن غلافــه السـيلوفان ويضعه فى فمه بهدوء، ثم يشعله معطيا نفسه كلية له. يستقبل الشهيق فى رئتيه بسلاسة انحدار شمس أكتوبر إلـــى المغيــب، ثـم يودعــه بحميمية توديع صديق. عيناه الحادتان منتبهتان دائما رغم أن المدقــق يلحظ استغراقه فى لحظته، فى فكرة وحيدة مسيطرة علــى عقلــه لا يشاركه فيها أحد. كأن العينين حارس يقظ يرصد الخارج، ويتركـــه متفرغا لعمق عالمه.

قررت لفت انتباهه. اخترت مقعدا مواجــها لــه، فــى انتظــار الفرصة لحديث مباشر معه. عرج بالمجموعة النقاش إلى الرقابة عن الكتب. وصفت له تجربة شحن مكتبتى بعد انتهاء بعثتى فى بــاريس، وكيف كنت رقيبا قاسيا حتى أضمن وصول باقى الكتب إلى مصـــر. عملية فرز شديدة الإحكام، ضحيت فيها بكل ما نشر فى الخارج عــن كامب ديفيد، وأوراق ثورة يوليو، ومذكرات حرب أكتوبــر للفريــق

الشاذلي. انتبه، اشترك في الحوار الذى امتد طويلاً.. جاءت إجاباته كما توقعت، عكست ثقافةً عريضةً لإنسان مرتاح، على الأقل يعرف ما يريد. هكذا، سجلت هدفاً، وانتظرت.

من أين يأتى الشعور بأنك تعرف مسار النقطة التى بدأها الآخر؟ وكيف تكون متأكداً من اتفاق الرأى فى موضوعات رئيسية لم تُطرح، أو فى الأسس التى تتبنى عليها الحياة؟ هل هى الخبرة؟ الحدس، الإحساس، أم معادلات يستطيع العقل أن يحل بها لغز هذا الشخص الماثل أمامه فيصنفه؟ وهل يصلح هذا التصنيف لمعرفة مواصفات الإنسان الذى نقع فى حبه، كأن يكون مرن العقل، واسع الثقافة، عطوفاً، دقيقاً، شجاعاً، واثقاً مَن نفسه، يعاملها بحسم وتهذيب، وسيماً، كى نقول أنه المنتَظَر؟ ولماذا يلفت النظر شخصٌ ما قبل أن ينطق حرفاً، ونحسبه من ضمن الفصيلة؟ هل تصلح المواصفات لتكون سبباً للحب، أم أن السبب غامض يمس حاجةً لا منظورة، وربما خافيةً على الشخص نفسه، ويمتلكها هذا الذى يدق على أبواب الروح؟ تيار موجة سرية تركته يمرخ بحريّة منى إليه، واستقبلته فى عودته دافئاً يحمل عبقاً خاصاً منه، دون حذر.

يا الله، من أين جاء هذا الاطمئنان لإدراكيُ كل ما يخصه، ويفكر به، ويقلق من أجله؟ لم أنتظر شرحاً أو معلومات. اكتفيت بصوته الرخيم العريض. هل يتيح عرض الصوت راحةً ما أو حميمية؟

مازلت أجهل تفاصيل ملامحه، لكنى أحسها فى انسجامها معاً.

حين استمعت إليه لأول مرة، لاحظت التوافق بين صوته وذاته، وحتمية أن يصدر هذا الصوت عنه. لم يكمل ملامحه، بل انبثق عنها. لا أعرف شكل عينيه أو لونهما، لكنى أدرك ما تعكسه البؤرة. أين راحت الضجة التى أتخفى وراءها؟ ولماذا اكتفيت بهزة رأس، أو إيماءة صغيرة ونظرة فهم ؟ كدت ألمس كفه لأخبره بمعرفتى لمقصده، لكنى اكتفيت بالمتاح بعد أن فقدت قاموسى اللغوى، ولم أجد فى جعبتى غير كلمتى "نعم" أو "مفهوم"، كى أتابع بهما حديثه المسترسل. عنوان كتاب ما، لينطلق أحدنا فيتحفز الآخر بكل كيانه، ويتحول إلى أذن فحسب. نتآمر معاً على الكلمات، نضحى بمعانيها قرباناً لما هو أعمق خلفها، لاستمرار تواصل اللحظة ذاتها، لهذا الذى يسرى بيننا دون تخطيط، ينشع بالدفء، يدثرنا- دون أن نعى- داخل حلقة تضيق وتضيق، تقربنا وتلغى المسافة بيننا، حتى شعرت لثوان أننى أتلمس حرارة جسده الذى تفصلنى عنه المنضدة.

هززت رأسى، موجهةً الحديث هذه المرة إلى نفسى، أطمئنها دون صوت: "مفهوم". وغامت عيناى فى رحلة سريعة قصيرة ألقيت فيها برأسى إلى كتفه، وشعرت بسخونة احتوائه لها وغيابه معى، رغم أن عينىَّ ماتزالان تحدقان فى وجهه، ومازال هو يحكى، متحديين جمودنا الظاهر، والرفاق حولنا يشاركوننا الحوار بحماس. حفرنا ممراً سرياً امتلك كل منا مفتاحه، استطعنا الهروب إليه من الضجيج وزحام الأصدقاء. كان يكفى أن يلتفت أحدنا كى يدرك الآخر بحثه عنه، ويبدأ معه الحوار الصامت.

حين أخبرته أنى نظمت عالمى بشكل يرضينى، وأننى أعرف ما

أريد من الحياة، كنت صادقة. وصفتُ له عائلتي، عملـــي، أهدافـــي الحالية والقادمة؛ وضعتهم معاً في صُرة صغيرة مربوطة بإحكام بيـن يديه. كنت صادقةً، لأنني- في هذه اللحظة- لم أكن أقدم نفسي فـــي أعماقها البعيدة، بل في المستوى الذي أتعامل معه في داخلـــي، دون تلك المناطق المغلقة تماماً. وكنت قد اعتدت أن أرضى بما أخطط لـه في حدود المتاح، وأجنب خبيئتي الدخول في صراع ســيطرة علـــى باقي عناصر عالمي. اكتفيت بأن تركت لها ظلاً من الحزن لم أستطع التحكم به، لا يكتشفه إلا متأمل يستطيع أن يفـــك غــلالات المــرحِ الكثيرة التي تغلف حركتي. لكن الظل يحتـل المســاحة إذا صمـت؛ فكنت صاخبةً دائماً، ابتسامتي تملأ فراغ روحي ولا تسمح للثقب فيها أن يتسع، فيُخرج علامة الاستفهام الكبيرة التي يمكـــن أن يطرحـــها عمر: "هذا ما حققتيه، ولكن؟!".. حتى إذا سمعتها يوماً، كنت كمـــن تلقى طلقةً من مسدس صوت؛ طلقةً لا تميت، لكنها تجبره على النظر إلى المكان الوحيد الذي يريد ألاّ يراه!

لم أسأل، وأنا أقترب: لماذا الاقتراب، إذا كانت مفردات حياتنـــا في مكانها الصحيح؟ اقتربت بوعي أني أحتاجه، أرتاح إليه، وأن قنـاة خاصة انفتحت بيننا. فلماذا أبحث لها عن تسمية؟ كنت قد تعودت مـع كل رجل لفت انتباهي، أو حرك داخلي سؤالا- في مسيرة العمر- أن أكسر الفضول بالمعرفة، وأن أفرح فرحا حقيقيـــا بدخولـــه حيـــاتي، باعتباره صديقا، أن يكون الخاص بيننا عاما، وأن أخـــبره بصـــوت عال أنه قريب، أي أفشي السر. هكذا اشتركت فـــي لعبـــة مراوغـــة النفس، ولم أشغلها بحيلنا الصغيرة لنتحادث طوال الرحلـــة. وحيـن

جلسنا معا فى طريق العودة لساعات، نحكى دون توقف، لاحظنا عينين متطفلتين قال صاحبهما: يااااه..!

نزلنا من القطار، ودعته ومضيت أضم حقيبتى بين ذراعى، مثل مراهقة. أريد أن أقطع مسافات طويلة على الأقدام وحيدة، قبل أن تنقلني سيارة إلى البيت. فى حركتى دلال صبية عالمها الرحب قادم، في مشيتها حبور وأنوثة. تتمايل بخفة فى خطوات راقصة على إيقاع رددته دون صوت لأغنية ليلى مراد "الحب جميل"، وأنا سعيدة بأنى على شفا الوقوع فى الحب؟! مسنى السؤال بحذر، هششته وأنا أبتسم، وتركت عمر يتسلل إلى شرايينى بوعى الأنثى العطشى. وفى لحظة مقاومة للمارد الذى وقف أمام رغبتى المحرمة، قلت لنفسى إنه لن يعرف مشاعرى أبدا؛ ستكون سرى وحدى، أنا القادرة على ارتداء أقنعة الجمود التى ستصد أية محاولة لكسر الحواجز بيننا. *وإذا ما أدرك، فماذا أنت فاعلة؟* لن يدرك، سأشوش على راداره، ويكفينى هذا الذى يسرقنى من نفسى. سأدخله حديقتى السرية، وأغلق كل الأبواب علينا، وأبدا لن أعطى عنوانها لأحد. *ورغبته، ألم تفكرى فيما يريد هو؟ ألا تودين معرفة مشاعره على الأقل؟* أدركها. تصلنى، أو أوهم نفسى بها، لا فرق، أستمتع بما يصلنى منها وكفى. أعرف أننى مسسته، وأظنه سيقدر رغبتى فى التوقف عند هذه المرحلة ويتفهمها. *أليست هذه الأسئلة سابقة للأوان؟* لا أعرف!

بعد أيام كان لى موقف آخر، ورحت أردد: "سأكف عن هذا الذى يحدث بيننا، ماذا يريد منى هذا الـ عمر؟ "

خرجت من القاعة أمضغ الكلمات، لسعتنى برودة ما بعد منتصف الليل فى شهر مارس. اتخذت قرارا قاطعا بإزاحة كل ما يخصه من حياتى. "عشت كل هذه السنوات قادرة على حماية نفسى، لا يجرحني أحد، فما كل هذه الميوعة؟". كان عمر قد اقترب منى، وأخبرني هامسا أن أصحبه، بعد انتهاء الجلسة بسبب عطل فى سيارته. ابتسمت. كنت قد رأيت سيارته واقفة فى ساحة الانتظار قبل دخولى قاعة الهناجر. "سأتركها للصباح، وأعود مع ميكانيكى".

سرتنى الفكرة المفاجئة. وافقت بآلية وانشغلت بها. حملتنى نقطة ضوء سقطت فى قلبى مثل نيزك ملتهب إلى عالمه. تكورت فيها تاركة جزءا من عقلى للأصدقاء. مساحة ويا للغرابة مكنتنى من الحديث والمرح، والانتقال من حالة صاخبة إلى حالة أكثر صخبا. يا إلهى، كيف استطعت الركض فى هذه المسافات دون أن أمس الداخل، أن أكون واحدة فواحدة فواحدة دون أن أتوه؟ *من قال لك أنك لم تتوهى، وأن ما تبقى منك هو أنت بالفعل؟* أعرف من أنا، كفى.

أمسح المكان بنظرة، فأجده لائذا بالصمت كالعادة. يدخل مغن ناشئ حاملا عودا يتوسطنا مغنيا "الحلوة دى قامت تعجن فى الفجرية". أصفق مع إيقاعه، فيفتح عمر إحدى ستائره وينطلق معنا فى الغناء. يقترب ويغلق العالم علينا وحدنا، هل أتوهم هذا؟ أركض

فى الممر بيننا، ألقاه فى المنتصف، نتوحد ولا يعود التراجع ممكنا؛ تتبخر ساعات الوقت، ويحين موعد انصرافى. فى عينيه معنى لا أفهمه. أشير إليه، لا يلتقط الإشارة. وتقرر المجموعة السهر فى مكان آخر حتى الصباح، تحت إلحاح صديقتنا شذى، للبحث عن مكان يقدم البيرة، أو الذهاب إلى منزلها. أتردد فى سؤاله إن كان سيصحبنى، وأتعثر وأنا أمد يدى لأصافحهم. يقول صديقنا محمود:

- انتظرى معنا ... نريد أن نحتفي بك قبل سفرك، ستوحشيننا.

= لهذا السبب أردت العودة مبكرا. لم أرتب حقيبتى بعد.

- سنحتاج سيارتك مع سيارة عمر.

لم أسمعه يخبرهم بأنها معطلة، وجذبتنى شذى من يدى فجلست معذبة لدقائق. التفت عمر ناحيتى.

- إلى اليونان، هل تعلمين أن ماجى نصف يونانية نصف إيطالية؟

= نعم

- رفضت أن يتحدث ابنى شريف غير العربية فى طفولته. أردته مصريا خالصا.

= لك الحق.

راعنى السكون فى عينيه، وتلعثمت وأنا أهم بوقوف مفاجئ ملوحة لهم: إلى اللقاء.

قابضة على عجلة القيادة بقوة الغضب، سحبت سيارتي إلى طريق مفتوح يلف حول المدينة ولا يتوغل بها. تفوح بعبيرها البكر أرض مارس، تتخايل بخضوبتها وازدهار ألوانها، وتتعجل اقتناصي لبهجتها وأنا أقاوم.. سأكف عن هذا الذى يحدث بيننا، سأكف. هل أحاسبه على أوهامي؟ كل هذا الإصرار، ثم يتراجع لأن شذى تريد السهر! كان يعرف رغبتها قبل أن يكلمني. يعاملها معاملة خاصة، فماذا يريد منى؟ *من البداية لاحظت ذلك، وانتهيت إلى أنه إذا كانت تجمعه بها رابطة حقيقية، فلن يحتاجك.* لماذا لا يكون اهتمامه بها أعلى من تقديري؟ *بل هو فى حالة تأرجح بينكما، وما زالت له قدم هناك، فلا يستطيع أن ينتقل إليك بالكامل دون ترنح. إنها تحقق له ما لا تستطيعين؛ تسهر معه حتى الصباح. ذلك الهروب الليلي الذى يحتاجه دون أن تعرفي السبب.* هل أطارد أوهاما؟ لا يلتفت رجل يحب إلى امرأة أخرى، إلا إذا كانت علاقته بالمرأة الأولى تحتضر، أو كانت نزوة. نعم، يجب ألا أنتظر تصرفا خاصا ناحيتي. *هل أنت نفس المرأة التى قالت منذ أيام إنها لن تمكنه من معرفة عواطفها أبدا، وأنها ستعامله كصديق؟* لن يعذبني ولعي به، ولن أضعف. *ولعك، هل وصلنا إلى الولع؟!* غدا أصل إلى اليونان، وأنشغل بعالمي الآخر. *فاعبري بنيرانك التى تطقطق .. خائفة.*

لماذا حملت كتابه معي، وما الذى كنت أبحث عنه؟ ضاع دخان الغضب كخطوط محتها الريح، حين بدأت أقرأ فى نهم ما بين السطور. ساعدتني معرفتي بمنهج تفكيره على استقرار ما تصورت أنه أعطاه من نفسه لشخصياته. أعرف أن الكاتب يهب لكل بطل قبسا

من روحه، منحة تضفى إنسانية على تناقض الشخصيات وتراوحها بين الخير والشر. قد تكون الفكرة خاطئة، لكنى أحببت أن أصدقها. نفذت إلى خيط وأمسكت به: يعاني بطل روايته عذابا صامتنا، ويعكس سخرية مرة واعتزازا بالنفس. ما أشد الشبه بينهما. نصبت مصيدة من التفاصيل التى أعرفها عنه، ورحت أغلقها على دقائق عالم خلت أنه عالمه. كلما ازددت يقينا من وحيها، تورطت أكثر فى الارتباط به. رحت أنصت إلى خلايا روحه فى إيقاع المسكوت عنه بين حروف الكتاب، واكتشفت أنه حاضر بالغياب فى أقصى شغاف القلب التماعا. رحت أفتح ستائر الممرات السرية التى حفرناها فى كل لقاء، وأمزق العتمة حتى استوى أمامى.. إنى أراه. أتوحد به.

أدرت قرص الهاتف مرات، وأغلقت الخط قبل أن يكتمل الرقم. تشجعت وتركته حتى سمعت الرنين يدق. جاء رنينه عاديا، كأننى أتصل من مصر، فأغلقته قبل أن يلتقط السماعة. ورحت أطلبه فى الأوقات التى أعلم أنه غير موجود فيها، لأطمئن لقربى منه، ثم أنطلق إلى عالمى. وضبطت نفسى أتصل بالجريدة فى الثالثة صباحا، بعد أن أنهيت الكتاب، رغم أنى أعرف أنه لا يوجد بها غير وردية الليل، وأن مكتبه مغلق. لكنى أحببت أن أشعر بإمكانية المحاولة.

احتضنت الكتاب وأنا ممددة فوق السرير المواجه للبحر، وسكنت امتداده المعتم فى الليل. طارت الجمل والفقرات إلى سماء الحجرة فتحولت إلى فراشات حاولت القبض عليها دون جدوى: تدنو، وتبتعد، تومئ لى "أنا هو.. أنا هو". تلمع وتنطفئ. ناديت عليها، ارتعشت وسجدت، اختصرت غاية فى حروف ثلاثة شكلتها

فى سماء الحجرة: ع.م.ر. استغثت بها، انفرطَت وحطت فـــى كــل مكان إلا جسدى، أيقظت حواسى بلهب فك طلاسم تعويذة قديمة كانت تغلق الروح، فأججت رغبةً فى الطيران إليها. وحين همَّت، رحـــت أرتجف وأنا أدعوها تعالَى، تعالَى. حطت خفيفةً على كفى فسـاعدى، فجسدى، فوجهى حتى غطتنى كُلى. أرخيت شعرى فتسلقته، واختفـت فيه، وأنا أحتضن الكتاب الذى بت أحفظ كلماته. والفراشـــات تعـاود الرحيل والعودة، تنفذ من جسدى إلى الصفحات، ورفيـــف أجنحتـــها يمس روحى بشغف مساً أسلمنى إلى نوم يتقطع كلما ضمت إحداهـــا أجنحتها. تتفتح جفونى عن بصر غائم بألوان زاهية لمخلوق رقيـــق، أرى بين صحوى ونومى شمساً تنير جبهته. وأسمع مكـــان رفيـف الأجنحة الذى نمتعلى نغماته صوته يتردد فى المدى، ويـــدق فـــى رأسى نداؤه لى. أستسلم للنعاس لأصحو على حركـة طـائر يفسـح المكان لرقاده بين ضلوعى، له زغب ناعم لبطة صغيرة. يغيب قلبـى فى أغوار لا أصل إليها، كأنى سقطت من فوق صخرة إلى جـــرف. أنام، أسمع وشوشات الماء من بحيرة يملأها البجع، تعلو برفـــق ثـم تصطخب. وضوء يأتى من فتات الأحلام يخـــايلنى، وهفهفـة نســيم تمسح وجهى. أكتشف أن هذا الذى فارقته كـــان ليلـــةً أخـــرى، وأن الصبح زارنى من النافذة التى فتحتها الريح، والبحر بدأ نهاره بزئـــير محاولاته للإفلات من الأسر.

جاءنى صوته عبر التليفون، بعد يوم واحد من وصولى. نســيت أنى كنت قد أخبرته بمدة سفرى. فلما مددت وقت الرحلة، كان هو قد تصور أنى عدت منذ أسبوع، فترك لى وقتاً أرتاح فيه، كما أخـــبرني

بعدها بشهر. ثم فى زلة لسان، جاءت ضمن حكايـــة عــن صديــق غاضب من حبيبته، قال له عمر: فى بعض الأحيان أكاد أموت مـــن الرغبة فى الحديث معها، وأجلس أمام الهاتف أتشاغل بالقراءة عنـــه فى انتظار أن تبدأ هى بالاتصال! لم يخطر ببالي أننا نلعب بتخطيـط، كنت أتصور ما يحدث بيننا فطريا. تعجبت، لكنى عبرتها.

مازلت أجهل عنه الكثير.

إغـواء

هل أنتِ نفس المرأة التى حين طلبت منها ذات يوم أن تفرد لـــي طيات كم قميصى، نظرت لى طويلاً نظرة لوم، ثم أطرقت خجـــلاً؛ وحين طلبت منها أن تمسك بى، لكى نلحق بالأتوبيس الذى يتحـــرك دوننا، سألتنى: من أين؟ فكتمت ضحكةً هائلة، إذ راودتنـــــى دعابـــة أدركت ساعتها أنها سترعبها إن نطقت بها.

كنتُ قد بدأت فى تكوين صورة لـــــها، تراودنـــى ولا أســـتطيع تصديقها. كيف تكون امرأة على مشارف الأربعين بهذه البراءة، رغم عملها الذى يضطرها للترحال وراء الآثار، والـــنزول فـــى فنـــادق ومخيمات، وتتعامل مع العمال والمهندسين من جنسيات مختلفة؟ كيف تقابل هؤلاء البشر علىٍ تنوعهم، دون أن يضيف إليها هذا كله خـــبرةً ومعرفة؟ هل يعقل ألا تكون قد التقت برجل ما فى إحدى رحلاتــــها، ليكسر الحواجز التى تسور بها ذاتها؟ كيف لم يغير هذا العالم المفتوح خبرتها البسيطة بالرجل؟ وكيف حدث هذا مع الزواج؟

أحياناً أصدق ما تقدمه لى بوعى ودون وعى، وأحياناً أرفـــــض

التصديق. لماذا أصبر عليها كل هذا الصبر، وأمد لها الوقت، وأتحسس طريقي إليها؟ هل انزلقت مشاعري إلى مكان غير محسوب؟ هل وقعت في حبها، أم أنها مثل كثيرات غيرها مررن بحياتي، فشغلنني بعض الوقت، ثم مضين لحالهن؟ إلى متى تتمسك بهذه المراوحة بيننا، هل تحبني؟ أشعر بإيماءاتها تسكنني، وتجرح سدودي، تفتحها دون مقاومة، وتترك بي ظفراً من أظافرها يخربش جدار الروح. إلى متى تحجم عن دفعي لاتخاذ خطوة إيجابية نحوها، ولماذا لا تتقدم هي نحوي؟

في العادة، أترك المرأة تبدأ معي، لا أفرض نفسي عليها، وحتى أقطع كل شك في عدم فهمي لرغبتها. فأكثر ما أكره في تعامل الرجال مع النساء هو محاولة فرض ذواتهم عليهن بلزوجة وبلا مبرر. فلماذا الصمت على عواطفنا؟ نتحدث تليفونياً، ونلتقي وسط أصدقاء، وأحياناً منفردين، نتحدث في كل ما يدور في العالم مما يقع في دوائر اهتماماتنا، لكن دون أن نصل ما بين خيوطنا. صحيح أنها تهتم بقراءة كتبي، وتفاجئني بحوار طويل يدل لا على ثقافة عريضة فحسب، بل أيضاً على اهتمام لم أعهده حتى عند زملاء الكتابة. لا أعرف متى بدأت تقرأ في نظريات الأدب والنقد، هل كان ذلك سابقاً لمعرفتنا، أم تالياً لها؟ تذكرت.. أعتقد أنني السبب؛ إذ قالت لي ذات مرة "صحيح أنا قارئة نهمة للأدب، لكني أريد أن أقرأ رواياتك بثقافة أعلى من ثقافة القارئ العادي، حتى أستطيع أن أدلي برأي دقيق قد يساعدك، وحتى أصنفها بين غيرها من الأعمال، لا في مصر أو الوطن العربي، ولكن بين كتاب العالم. فأنا أعتقد أنك من أبرغ كتابنا على الإطلاق. في داخلك شيء لم يظهر بعد. لا أعرف متى سينطلق، لكني أؤكد لك أن ما كتبته– رغم كل هذا النجاح– لم يمس إلا القشرة

الخارجية لما تمتلكه. صدقني.. لن تمر سنوات قليلة حتى تكون على رأس أكبر كتاب الدنيا". أعترف أن الكلمات أسكرتني، وأنني داريت دمعة كادت تهزمني أمامها، لا لأنها خاطبت غدة الزهو أو الكبرياء، ولكن لأنها مست حلماً غالياً يراودني في السر.

تذكرت ماجي على الفور، ورأيها المدمر دائماً في كتبي، إلى أن جاء يوم طالبتها فيه بألا تقرأ ورقة قبل نشرها. لم أكن أتصور – حين أحببتها، وحتى بعد زواجنا بفترة– أنه سيأتي اليوم الذي أخشى فيه على نفسي وكتابتي منها. كنت أتصورها أكبر دوافع نجاحي القادم. الآن أعرف أنها تريد نتائج هذا النجاح، من شهرة ومكانة اجتماعية، وفخر تشعر به حين ترد على ادعاءات عائلتها باغترابها عنهم. تقول "لقد اخترت المكان الصحيح والرجل الصحيح". لكني لم أتصور أن تندفع بجنون نحو عالمي الذي أخطه على الورق، لتحاسبني على أفكاري، وتتهمني أني أبيع في الكتابة علاقتي بها، وأن لا فرق كبيراً بين الدعارة والكتابة، إذا كانت تكشف سراً من أسرار علاقة حميمة. قالت لي يوماً إن تعبير البطل عن علاقته بامرأته مثل الفضيحة قد قتلها. وعكفت تفتش في أفكاري، بدعوى أنني أسرب أسرارنا إلى الورق. وراحت تصرخ في هستيريا، ليلة احتفالنا بصدور روايتي "مدن"، وهي تقلب صفحاتها: "لست هذه المرأة. إنك تقدمني إلى المجتمع كأبشع ما تكون امرأة. كيف سأقابل أصدقاءك والناس؟ وماذا سيقولون عني، امرأة سقراط؟".

قضينا ليلة عصيبة أشرح فيها لها أنها ليست ذات المرأة، وأسألها: لماذا لا تكوني المرأة الأخرى؟ لماذا اخترت هذا النموذج بالذات؟

- أعرف ما تبثه فى الشخصية لتكون صورتى، لكن صورتـــى البشعة. ألم تسمع الناقدة فى ندوة الأتيليه تصف علاقتك بالمرأة فـــى الكتابة بأنها علاقة رجل مهزوم، وأن النساء فى كتاباتك يمثلن كـــل شرور العالم؟

= هذه رؤيتها هى، وليست بالضرورة صائبة. وأنـــت تعلميـن انحياز بعض الناقدات وتعصبهن لقضايا المرأة.

تقلبت صور ماجى التى تستشيط غضباً، وتقلب كل احتفال بعمل جديد لى إلى معركة، نتخاصم بعدها شهوراً. ولاحظت ناهد شرودى، وسألتنى بغتة:

- هل ضايقتك كلماتى؟ أعرف جرأتك فى الكتابة، لكنك لم تمس أثمن ما عندك: إنسانيتك. لم أقصد بهذا أن مـــا كتبتــه لا يعجبنـــى، بالعكس. لكنى أرى القادم.

احتجتُ أن أضمها، أن أهرسها بين ساعدَى، لكنى لم أســـتطع. ورأيتها تحمر خجلاً، كأنها عرفت برغبتى، كما لم أر صبيـــة فـــى الرابعة عشرة تجاهد فى إخفاء عينيها، وتشيح بوجهها عنى، كأنمـــا تخشى أن تضبط متلبسة بالفهم، أو تضطر لأن تـــرد علـــى الرغبـــة بالخطوة المنتظرة.

لم أستطع النوم هذه الليلة. سهرت- كالمعتاد- أكتب حتى أشـرق أجمل صبح عرفته، وانتظرته منذ سنوات. كدت أن أدير رقم تليفونها فى السادسة صباحاً، لكنى كبحت اشتياقى وأنا أُشهد الصـــــبر علـــى مرارة الوقت البطيء. ثم أدرت الرقم. قابلتنى بصوت مرتـــاح، دون سؤال عن سر الوقت المبكر نسبياً؛ بل أدخلتنى إلى عالمها فى لمـــح

البصر. باغتتها:

- لم أنم دقيقة واحدة. كيف استطعت النوم؟

لم أسمع رداً، وتعالت ضحكاتها وسؤالها إن كنت قضيت الليل أعد النجوم.

قلت: نعم هناك من سهّرني، وسرق دنياي.

= هل تعرف.. في العام الماضي

لم أستمع لباقي الكلمات التي أدخلتني في المجرد، والمجرد وحده. لم أعتد محايلة امرأة، أو التحدث إليها عن مشاعري. كنت قد سهرت أرتب مدخلي إليها، فأطاحت به ببساطة من لا تعرف صعوبة هذا على رجل مثلي.

إلى أين تأخذني؟ ولماذا أدفع كل هذا الثمن، وأنا الحريص على ألاّ أُعرض نفسي أبداً لجرح. قررتُ ألا أضايقها أبداً بعد ذلك؛ فمازلت على الأقل في مرحلة أستطيع التحكم فيها بمشاعري. وهي في عالم آخر. لا أعرف شيئاً عن زواجها، ولا تتحدث أبداً بحميمية عن شيء خاص. كل شيء مباح وعام، وهو ما يعني أنها لا تتحدث على الإطلاق. كيف أنزلق إلى هذا الحد، أنا الحذر؛ لكنها.. هل من المعقول أن تقضي معي كل هذا الوقت، دون أن أمثل لها خصوصية ما؟ لماذا تمنحني دلالاً وحنواً يبددان صورة "أبلة الناظرة"، التي وصفتها بها لحظة أن رأيتها أول مرة؟ لماذا تخصني بهذا الود الخفي؟ الناس يحبونها، نعم؛ لكن لأسباب أخرى: ربما لاهتمامها الواضح بهم، وإعلانها لتعاطف عملي معهم، لمرحها أو رقتها، لكنها صورة تغيب عنها الأنثى.. لن أستمر في هذا.

تلقيتُ مكالمتها الأولى بحذر، والثانية بحذر أقل، ثم دعوتها إلى العشاء في المرة التالية.

لم تكن الألفة التي صعدنا بها إلى مكتبي تتنبئ بأن مسارنا سيتبدل إلى الأبد. جمعتنا الصدفة في إشارة مرور، كنت سارح الفكر وراء معركة بيني وبين مدير التحرير ذاك الصباح، حين سمعت نقرات إصبع فوق زجاج السيارة. التفتُّ لأجدها، والإشارة تخضر في ذات اللحظة. قلت لها "اصعدي بسرعة"؛ قفزت إلى المقعد المجاور لي، وهي تسألني ضاحكة: "إلى أين.. ستبعدني عن طريقي، ولدي موعد هام".

- الغيه.. لابد أن أذهب إلى شقة مكتبي، فلديَّ موعد مع العمال. ستجري الشركة اليوم اختبارات لتغيير نظام السباكة. إذا لم أذهب سينفجر السكان غضباً.. وبعدها، سنرى.

= لم أعرف أن لك مكتباً خارجياً.

- لكل كاتب مكان عمل. وأنا أعده حالياً لإصدار جريدة، وأحاول الحصول على ترخيص من قبرص.

حين وصلنا، تركتها تتصرف بطبيعتها، وذهبت لأعمال السباكة. استغرقتها الكتب، حتى إذا عدت إليها قالت:

- هل تصدق أن رفوفاً بكاملها تكاد تكون نسخةً من مكتبتي؟

- أصدق.

= لماذا؟

- لأننا لم نلتق منذ فترة وجيزة فحسب!

= خيال شاعر أم خيال روائى ؟

- الفرق ليس كبيرًا.

= مرهَق؟

- جداً .

أمسكَت وسادةً صغيرة، واحتضنتها كطفل رضيع، وهدهدتها بنعومة وشقاوة دون صوت. انفجرنا ضاحكين. قلت لها: "تعالَى إلى جوارى". استمرت فى التربيت على الوسادة، وعلت بشرتها حمرة خجل. مددت يدى إليها فقامت لتجلس إلى جانبى. مسحت شعرها، فأطرقت. وحين انحنيت أُقبلها غرقت فى ذاتها، فلم أفهم إن كانت راغبةً أم مستسلمةً فحسب. ضممتها إلى صدرى، فلاحظت ارتجاف يديها وهما تلتفان حول خصرى بهدوء. ضغطت شفتيها، فحركت كفيها، وتحسست ظهرى. شعرت أن هذا الفعل هو أقصى ما استطاعت. قلت لها: "أحبك"؛ قالت: "وأنا"؛ ثم غرقت فى صمتها، وأنا أستشعر حرارة وجهها الذى تحول إلى جمرة نار انتقل لهيبها إلى كتفى المدفونة فيه.

تلقيت نبأ انفصالها عن زوجها بهدوء. كانت شهور كثيرة قد مرت، ونحن غارقان فى الحب. لم يعد أى منا يحتمل الابتعاد يوماً واحداً عن الآخر، ولم يجرؤ أى منا على السؤال عن الشخص الآخر فى حياة كل منا. قالت لى بعدها بوقت طويل: "لم أكن أريد أن أتصورك معها. كان هذا كفيلاً بآلام لا أستطيع احتمالها. هى- حتى الآن- غير موجودة فى ذاكرتى، فى حالة إلغاء كامل، حتى أستطيع أن أعيش"!!

لم أعرف كيف تستطيع أن تقيم هذا الفصل. راقبت بصمت، لم أتدخل. فما زال أمامنا الكثير لنكتشفه معاً.

انتظـــار

تحرشات جسدية طويلة لا تنتهى إلى شيء؛ هذا ما يوتر عمـــر. أعرف. كان علىَّ أن أقرر أولاً أن رغبتى فيه هى رغبة نهائيـة، وأن لقاء الجسد معناه أنني لن أتراجع يوماً فى إنهاء علاقتى بمصطفـــى، هذه العلاقة المعقدة، رغم أننى قطعت شوطاً طويلاً فـــى الانفصـــال عنه، حتى لم تعد هناك حياة زوجية فعلية.

فرغم أحلامى بقادم سيهبط فى سمائى بالمظلة، إلا أن أمومتـــى كانت تجعل من رغباتى أحلاماً غير قابلة للتحقق، أو تدفعنـــى إلـــى الاكتفاء بها كما هى: مجرد أحلام. ضاعت حياتى الشخصية تحـــت وطأة الأمومة. لم أعتد التهرب من مسئولياتى يوماً، وهل يمكـــن لأم أن تترك صغيرها، أو تحرمه من الأب، إذا كان الأب راغبـــاً فـــى الاستمرار؟ ربما أم غيرى. لم أدرك أن الأطفال يظلون أطفالاً إلـــى أن يحصدوا سنوات العمر، وأن لا أمل- بعد انفصالهم عن الأســرة- فى تغير ما. قدرتى على التكيف جملت الموجود، طوعته ليناسب كل الأطراف. هدوء مصطفي النسبى وحبه لى امتصا مرارة غضبـــى،

وألقى به إلى البئر التى اعتادت اصطياد الأحزان. احترام كل منا لمشاعر الآخر- فى أدق التفاصيل اليومية- انعكس على شكل الأسرة فى علاقة أفرادها ببعضهم، وانعكس فى الخارج تجاه المجتمع، فكسبنا حسد الآخرين، وضُرب بنا المثل فى السعادة الزوجية. نظمت حياتنا فى مسارات يعرفها كل منا بوضوح، وحرص على أن توفر لكل منا احتياجاته. واستطاع كل منا أن يتخذ القرار الذى يريح الآخر، حتى لو لم نتشاور فيه. نظام صارم، وتربية أطفال صحية تمتعوا فيها برعاية حقيقية، وعبور لعثرات الأيام وتقلباتها، وصداقات لا تقترب من الخاص جداً، الذى حرصت ألا أكون طرفاً فيه قدر الإمكان.

تعاملت مع نفسي كما يتعامل سجين سياسى مع عقله فى زنزانة منفردة. استمعت يوماً لتجربة شيوعى يصف كيف حافظ على رأسه من الانهيار، مستخدماً ثقافته وتجارب سجناء سابقين لحكومات دكتاتورية عذبتهم بضراوة. ولم أتخيل أننى سأحتاج يوماً إلى أسلوبه، لأحافظ على توازنى النفسى، وأمنع عقلى من الانهيار. قال: "قسمت نهارى إلى ساعات، كل منها مخصص لاستعادة معلومات محددة، أو ذكريات خاصة، فى جدول زمنى ينتهى بخروجي من السجن. وحين يوشك هذا البرنامج على الانتهاء، أضيف إليه موضوعات أخرى، بعضها كان مشاكل واجهتنى فى الماضى، فأصحح قرارات اتخذتها، وأصحح مسارات ساعدتنى الوحدة على وضوح الأفكار حولها. حلقة كبيرة مكونة من دوائر صغيرة لا متناهية، تسلم كل واحدة إلى الأخرى، ودائماً.. الحلم على مشارف التحقق. غداً تقوم الثورة."

هذا ما فعلته مع نفسى بالضبط: "غداً تُحل المشكلة"، وسلسلة من الأهداف الصغيرة أركض خلفها، مؤجلةً الحلم الكبير إلى العام القادم،

ثم الذى يليه. هكذا غرقتُ فى تفاصيلي اليومية، والتدريس لأطفالى، والابتكار فى عملى، والتنقل وراءه من مشروع إلى مشروع. هل يمكن أن يتحقق هذا النجاح، إن لم يكن وراءه كرباج يسوط ظهرى؟ لا شيء يشبعنى، لا شيء يعطل مسيرة هذه المهرولة، لأنها إذا ما توقفت مرة واحدة، لتفكر فى جدوى الطريق الذى قطعته، فلن تعود إلى الاستمرار فيه مرة أخرى، أبداً.

لهذا، كان علىَّ أن أقرر تغيير مسار حياتى كلها، إذا قبلتُ أن يمسسنى عمر. لم أكن أتخيل أن أحيا حياةً مزدوجةً مع رجلين. وواجهت فلفصات داخلية تدعونى إلى قليل من الشطح، كما قالت، قليل من الجنون يدفع بالحياة غير الممكنة للتجدد، لاحتمالها على الأقل. وتأتى الإجابة حاسمة: لا أستطيع. قد يكون هذا ممكناً مع تركيبات نفسية أخرى، لا لأننى جامدة، أمشى فوق قضبان حديدية، كما قال لى أحدهم يوماً، لا ألتفت يميناً أو شمالاً، أو أننى تقليدية صارمة؛ بل لأننى أشد الناس جموحاً فى داخلى، وخروجى عن القضيب مرةً واحدةً معناه الخروج إلى الأبد، وشطح لا يقبل السيطرة أو التنبؤ بمساره، أنا التى أعرف ملامح البركان الذى يفور بالحمم فى أعماقى، رغم الوجه الهادئ. لهذا أتمسك بغطاء القدر المحكم على غليانه، حتى لا يدمر انفجاره أقرب الناس لى. نعم، غزلت قيودى بيدى، وأحكمت الرباط، وتركت عقلى وقلبى يحلمان: الثورة غداً.

أحببت فى عمر انتظاره لى حتى أهدأ وأصل إلى قرار. منذ اللحظة الأولى التى تعرفت فيها عليه، قدرتُ أنه سيتفهم موقفى. وأثبتت لى الأيام هذا، حتى الآن. قلت له:

انفصلنا قبل أن ألتقى بك، كأن القدر كان يـــهيئ لـــى فرصـــة للسعادة أكبر من قدرتى على الحلم. كنت قد صنعت إطـــاراً غليظـــاً حول رغباتى، وكلما مر الزمن ازدادت المتاريس قوة، وتحركت فـــى الحياة مثل ظل لا لون له، حتى أسوده باهت. هل تستطيع أن تحـــدد للظلال ألوانا؟ الرصاص مخضوضر، والأزرق لا يصلـــح.. الظـــل رمادى.. ربما. لا أعرف. لون الحياد الحزين.

....

نعم هى إجابة سؤالك الذى لم تطرحه. ساعدت ظروف تكويـــن بناء البيت من طابقين واتساعه على ألا يشعر بنا الأطفال أو الأهـــل. ظروف كثيرة قاسية، ليس هذا أوان الحديث عنها، أدت إلى هذا. لـــم نتفق على طلاق، بل حل الصمت والعزلة. لا أعرف إن كنت حـــرة أم لا، وإلى متى؟ ربما يكون هذا هو سر عذابى. لك أنت أقول إننـــى لست معذبة الضمير حياله. استنفدت كل الطرق لإصلاح مـــا بيننـــا، دون جدوى. لم أكن أستطيع أن أعترف لك بحبـــى، دون أن أســـدد خانات ما فات. هى مرحلة صعبة، وسوف أجتازها. ساعدنى.

كنت أعلم طوال حياتى أننى سألتقى بعواطف حقيقيـــة، وأؤمـــن أنى أستحقها، وقد حدث. أنا فى حاجة إلى تمسكك بى، فأنا مثل زئبق لا يملك لنفسه قـــدرة على الثبات. كلما اقترب منى رجل انزلقت مـــن بين أصابعه.

تناسق

سيدة المتناقضات: لم أكن أتصور أنها بهذه البساطة المفاجئة، كأنها كانت خارج العالم، فى البراءة الكفيلة بتفجير المفارقة. كأنها لم تتزوج، ولم تنجب، وتعش حياة حافلة. منحتها العزلة التى صنعتها، أو فرضت عليها، الوقت لصناعة الأقنعة التى تخفى دقائقها وشهواتها، فلا يراها أحد؛ أقنعة مصنوعة من أفكار وصور ذهنية عما يجب أن تكون عليه إزاء الآخرين، وإزاء نفسها. صنعتها بإحكام ودقة، على مدى سنوات طويلة، حتى أصبحت جزءاً منها، لا تستطيع أن تخلعها إلا بشق الأنفس، وبالصراخ الأليم، كأنك تنتزع جزءاً من جسدها الحميم.

إنها تنتظر، لن تبادر إلى شىء. وترغب، لكنها لن تمد يدها، أو تخطو خطوة واحدة، كأنها- وهى فى موقعها المعتصمة به- تدعوك أنت إلى أن تمد يدك، وتخطو الخطوة وتأخذها. وحينما تفعل- إذا ما كانت راغبة- فستجدها مهيأة لك، متهللة من كل ناحية.

جمال هادئ بلا صخب، لا يستثير فى ذاته انتباهاً: ذلك الجمال

العادى الجميل الذى لا يثير الشهوة أو الرغبة أو الاستفزاز، بل- إذا ما تمعنت فيه- سيمنحك الإحساس بالسكينة والطمأنينة، كأنك تعرفها منذ ألف عام. له مذاق الألفة والهدوء، ولصوتها طعم الرحمة والحنو؛ فيمكن أن ترمى عليها متاعب العمر لتغسلها عنك ببساطة. ويمكن لك أن تسأل: من أين أتت بكل هذه الطمأنينة والرضى، كأنها لم تعرف ألماً وعذاباً، أو لحظة انشطار؛ كأنها سيدة القناعة بما مضى، وما هو موجود، وما سيأتى. لا قلق، لا صراخ، لا زعيق. ملامح بلا فجاجة ولا مبالغة. فلن يأخذك واحد منها على حدة، لكنك سوف تؤخذ بالتناسق والتوافق بين العينين السوداوين والبشرة الخمرية والشعر الفاحم والوجه المنمم. وستحبه هكذا بلا حيثيات.

فى اللقاء الأول، نظرت إلى جسدها: جسد محكم بلا ترهلات، ولا نحافة فى نفس الوقت؛ ممتلئ قليلاً، لكنه شديد التماسك والاتساق مع طولها. فى مرة أخرى، حين التقينا فى كازينو غرناطة، وهى تلبس البنطلون "الاستريتش"، تأملت فخذيها: قويين مغريين. فى المرة الثالثة، تأملت ردفيها، وهى تدير ظهرها، وتمضى بخطوات قوية إلى الحمام. لم يكن أحد سواى بقادر على أن يرى هذه الرجرجة الطفيفة التى يتلاطم فيها الردفان. قلت لنفسى: جميل.

كانت تبدو لى بنظارتها الطبية، إذا ما رأيتها عن بعد أو عن مسافة: "أبلة الناظرة". هى لحظة سكون الملامح فى الشارع، أو فى الخارج، على وضع معين يليق بالعالم الخارجى: وضع الجدية الساكن الذى لا يوحى أبداً بأن وراءه امرأةً فى اكتمال أنوثتها وشهواتها. كنت أمزح معها وأقول "أبلة الناظرة"، لأكسر هذا السكون الهش الخارجى. وكأنها كانت تنتظر ذلك منى، فلم تكن لتتشبث به.

لم تكسر الأقنعة دفعةً واحدة، بل واحداً فواحدًا فواحدا. وبين كل واحد والآخر جهد جهيد ومعاناة، أستشعرها أحياناً، وتتجلى- أحياناً أخرى- فى ممانعة ودفاع وتشبث، إلى أن يصبح القناع هشاً فيتساقط من تلقاء ذاته.

كانت تعانى صعوبةً بالغةً وهى تحكى لى عن ذلك الرجل الذى أحبته ذات يوم. وتروى لى الحكاية بكلمات متقطعة، كأنه عارٌ لا تريد أن يلتصق بها، أو أعرفه عنها. لم تروها لى مكتملةً- في أية مرة- دفعةً واحدة، لكنها وصلتنى مفتتةً على مدى زمنى طويل. ويكون علىَّ جهد لملمة الشذرات- كعامل الموزاييك- لتكوين الصورة فى ذهنى، وحل بعض التناقضات فى التفاصيل. ترويها بشكلٍ ما ذات مرة، ثم تنسى ما قالته وتعيد روايتها بصورة أخرى، أو تنفيها، لتقدم تفاصيل أخرى أو شكلاً آخر لها. دائمة الهروب من ذلك الماضى بتفاصيله، بلا مصالحة معه ولا سلام إزاءه. ينقلب وجهها وحالتها النفسية إذا ما ذهب الحديث إلى هذا الاتجاه، وأحياناً ما كان ينتابنى الندم على الدخول فى هذه المناطق، ومحاولة معرفتى لها واستكشافها. أقول لها أنتِ لى كلك، منذ ميلادكِ وحتى الآن، بماضيكِ، بأحلامكِ المتحققة والمهدرة، بمواقفكِ الجيدة والسلبية. فتاريخكِ لى، ولابد أن أعرفه لأعرفك. لا فضول لدى ولا غيرة من الماضى، لكنها المعرفة". لكن نوازعها الداخلية كثيراً ما كانت تدفعها إلى الصمت، فأقنع بالفتات المتناثر بين الحين والحين، ألملمه وأحنو عليه.

اختطـــاف

أتقلب على وخزات من نار، كل وخزة صحوة. تحتل صورتــك وعيي، فيما يخايلنى نوم أحتاجه بشدة، يسحبنى من قدمى وينزلق بــى رويداً. يحتل أطرافى، فأعطيه ذاكرتى والأفكار، يتهادى بى؛ أوشــك أن أغرقٍ فى دهاليز ما بين الأزرق والأســود، وأنــا أتبــع بــؤرةً أرجوانيةً فى فضاء عقلى، تلسعنى وخزات من نــار، كــل وخــزة صحوة، تحتل صورتك وعيى وأنا أقاوم، أهشها ثم أعــود، أشــرئب لأمسك بك، تطفو فوق الذاكرة التى تتخلق بسرعة وتضيع، أنســحب إلى عالم السكون مبعثرة الإدراك، هادئةً مستبشرة، أُمنى النفس بــأننى سأراك فى الغد، وأتابع النوم، تفيقنى وخزةٌ أخرى، وحــرارة تنشــع خافتةً من بؤرة فى جسدى تتسرب بنعومة، تسربلنى بغلاف شــفاف، أحسه مشعاً على مسافة قريبة تمسنى ولا تمسنى، لا أعرف بانطلاقها معاً مركزةً اندفاعها فى حربة إلا حين أشعر الوخزة تخترقنى، مثــل شرارة ماس متموجة قاطعة، بألم وغفران. أعرف أنك جئتنى. لمــاذا تتلخص فى إحساس صاعق يمر دون أن أعرف من أين بدأ، وإلــى أين انتهى؟!

أربعة أيام دون لقاء. يزداد صخب وخزات الليل، تعـــزف كـــل وخزة أنينها فى هارمونى من الحنين يحسونى برهافة، تنقر أعضائى التى تصارع النعاس، لا تنفع معها وعود ولا تهدئة، لا تسلمنى إلـــى نوم، تشب لى من الصحو، ينتشى قلبى بالأمل فى الغد، ثـــم يستسلم قرب الفجر لوشوشة أنك جد قريب.

أُسرع نحوك، لم يعد يخجلنى أننى امرأة تشتاق إلى رَجُلها. قبـــل أن أعبر الشارع، أرى جارتى سلوى تحاول إيقاف تاكســـى، وهـــى تتحرك بصعوبة بسبب الحمل. أساعدها كى تصعد إلـــى ســـيارتى، نتبادل الضحك طوال الطريق سعيدتين، خاليتى البال من كل همومنـــا المعتادة. يلفت انتباهى حجم انفجارها الأنثـــوى، اســـتدارة وجهـــها الممتلئ، تفلطح شفتيها، لمعة عينيها بتوحش، انفراط ثدييـــها، بهجـــة لون بشرتها. لم تكن سلوى هكذا أبداً. أعرفها فتاةً صغيرة، وزوجـــةً وأُمًّا للمرة الأولى. فماذا حدث لها هذه المرة، يشغلنى السؤال، بعد أن تتركنى إلى عالمها. أجد الإجابة قريبة: لقد نضجت.. فيـــها فجاجـــة ما.. لماذا فجاجة؟ أنت التى بدأت تلاحظين فعل الطبيعة ولعبتها.. فى وجهها شهوة للحياة، إدراك لأنوثتها، وهى سعيدة بها.. لم أكن مثلـــها أبداً. نعم.. هذا حقيقى. انتبهتُ إلى مشـــاعر الأمومـــة، لا مشـــاعر الأنوثة. هل كانت مدركةً لإحساسها هذا فى بدايـــة زواجـــها، ومـــع حملها بطفلها الأول.. قد يكون هذا الإدراك قد بدأ حتى قبل الـــزواج والحمل. ربما أنتِ التى ترينه مرادفاً للأنوثة، وليست هى. كـــل مـــا يتعلق بها سار فى مساره الطبيعى، نضجت وتعرفـــت علـــى فنـــون الحياة، والعلاقة بالرجل، خطوةً خطوة.. والآن ها أنتِ تعرفينها كلـــها دفعة واحدة.

تشم سعادتى، حتى قبل أن أدلف إلى الغرفة. ترفع عينيكَ عـــن

الكتاب، فتراني قافزةً إليك، أحط بين أصابعك، أصارع مزيجاً من الرقة والعنف. من ينتصر ؟ أريد كل الوسائل، أكون كما أنا هذه الخلطة، لا أخشاها. نعم، لم أعد أخشى تناقضاتي، ولن أشذب أياً منها. سأجعلها تنطلق من القمقم بفطرتها وطزاجتها، لن أسمح بتدخل جراحي، ولن أؤطر أي شيء معك.

لا أعرف لماذا يغيب عقلي ويتوارى لحظة التحامنا، كأنه أدرك أنه تعب طويلاً، وقد آن الأوان ليرتاح ويتركني كاملةً لك حرة، أنتشي ثملةً، تعزف أعضائي معزوفة تعي نغماتها منذ مئات السنين، قبل أن أولد. أدرك أن العزف لم يكن ليكون إلاّ لك. من علمني هذا؟ من حررني، فك أسر خلاياي، أخرجها من الشرنقة لتراقصك بلا قواعد، بفطرة جُبلت عليها دون أن تدري. تنتقل من إحساس إلى آخر، ومن درب لغيره. نضيء الشقوق المعتمة معاً، ونبعث فيها الحياة. وحين يحتدم الرقص، لا أعرف من أين يأتي صوت الناي، أو كيف تدخلني ضربات البيانو، وكيف لم أعد أفرق بينهما، أسمع انطلاق الكورس في سيمفونية صاخبة، أستشعر ارتعاش أعضائها في جسدي، وأنت أنا نحتشد معاً، تعلو وتعلو حتى ينفلت من بين صدري طائر لا يتركه خاوياً، رغم الفراغ، بل ممتلئاً بكائن آخر لا أعرف ما اسمه.. ربما الشبع، ربما جوع أكبر، لا أعرف.

وحين أدرك عمق استغراقنا، ويعود الصحو يدغدغ الخلايا التي تعبت من شدة الالتحام، وتجبرنا قدرتنا البشرية- التي نكتشف هذه اللحظة كم هي هشة- على الانفصال، أشعر أنني أُنتزع من رحم أمي، وأنني لا أريد إلا الالتصاق بك.. أصرخ منادية عليك "لا تذهب عني"، تربت فوق جسدي بحنان: "لا تخافي"؛ أحتضنك بقوة اشتياقي وحرماني الطويل، والنوم يدعوني، يخايلني اليوم، ودون سائر الأيام

معك، لن أقاومه- كما تعودت الصحو حتى لا تضيع لحظـــة إدراك بوجودك- سأستسلم له. تشعر بمعاناتى، وتخـــبرنى أن الوقـــت قـــد انتهى، وأن علينا أن نستسلم للعودة.. أتذكر الشارع والناس وأمريكـــا وكوسوفا وفلسطين ومعارك العمل الصغيرة. أتذكر البـــواب الـــذى ينتظرنا وعيناه تسألان، والقدر والوقت المباح القليل، والقتل الذى يتـــم حين أختطف منك. أشعر بجرح يشق صدرى، وأنا أشـــاهدك تبتعـــد وتبتعد حتى تضيع، فأتابع طريقى، أحاول فى الدقائق القليلة الباقية أن أتوازن، وأتقبل كل ما شطرنى، وأرسم ابتسامةً باهتة لأقـــابل العـــالم والسؤال يهطل أمامى:

- إلى متى؟

كتـــابة

عينان تفسدان متعة النمو الحر للكتابة، متوجستان، تفتشان عـــن الواقع فى المخيلة، فيما يخطه القلم، تبحثان عن الخفـــى فـــى عمــق المشاعر فى العقل الباطن. تزداد ماجى توتراً كل يوم إزاء مشـــاريع رواياتى تتوجس من كل شخصية أبنيها، وكل رأى يرد على لســـان أحد أبطالها، تتهمنى حين بدأت فى كتابة روايتى الجديـــدة "متاهـــة" بكتابة سيرتى الذاتية. رغم أننى شرحت لها أن هـــذه الطريقـــة فـــى الكتابة هى إحدى طرائق الكتابة ليس إلا. ورغم أننى غـــير مطـــالب بالشرح، ولا أقبل تبرير تصرفاتى، إلا أنى أشفق على حيرتها، أقـــول لها.. للكتابة كينونتها وقوانينها الخاصة، حتى لو اعتمدت على حـــدث واقعى، لأنها تمر عبر الخيال. إنها تشق طريقـــها كيفمـــا أرادت، لا بالضرورة كما أريد بالضبط. تجيب: طريقها مغاير لعقلك الواعـــى، لكنه يتفق مع ما يريده عقلك الباطن، لأنها نتاج تفاعلات، وأنت تعلـــم أن الكتابة ليست بريئة..!

تهدأ بعد نقاش طويل. وبعد أن تتفق معى على أن توقف طوفـان

فضولها العارم لمسودات مخطوطاتي أثناء تكوينها، تعاود المتابعة السرية لكل ما أكتبه طوال الليل أثناء صحوها النهاري. ألحظ علامات الصراع فوق وجهها، قبل أن تنطق. وأدرك أنها قارنت بين الكتابة وحياتنا اليومية، وشكت في كل امرأة من نساء روايتي التي بدأت تتضح في الكتابة عن حبيبة رائعة، يتوق البطل إليها بشغف. تكتفي في البداية بمراقبة من بعيد، متحفزة للقفز إلى معركة مفتعلة أتجنبها بانتباه السائر في رمال متحركة. أشعر بها في حلقي، فأبعد إدراكي لما يحدث عن التأثير على ما أقوم به بالفعل. سنوات وأنا أحاول منعها من أن تكون طرفاً فاعلاً في التأثير على إبداعي، بمناقشة أفكار وتصورات لم يكتمل نموها بعد، ما زالت تتحاور على الورق، تتفاعل معاً لتخلق نسيجاً متجانساً أو متناقضاً، يستحيل عليها إدراك أبعاده أثناء عملية التكوين ذاتها، أو حتى بعدها. أرفض أن أحمل أوراقي بعيداً عنها، وأصر على أن يكون عملي هنا، حيث أحيا، أو أحيا حيث يكون عملي. فما جدوى وجودي في المكان دونه.

تعاود المتابعة السرية لما أكتب. أكتشف هذا من ترتيب الأوراق، رغم حرصها على إعادتها إلى ما كانت عليه تماماً؛ لابد من خطأ ما. وما لا تدركه هو هذا الخيط الحسي السري بيني وبين الورق، هذا التراكم اليومي للألفة الذي يجعله يبوح لي، لحظة أن أحرره من الأدراج، بما تغير فيه. تصلني رائحتها عبره، بصمة إصبعها فوق الكتابة بالقلم الرصاص، ثنيات الأركان التي ما استطاعت طوال حياتها تجنبها وهي تقرأ. أحاول فك شفرة المعرفة التي وصلتها، بما تملك من مفردات حياتنا وما قرأت. أشعر بمعاناتها، أضيق بالكتابة، وأؤجل الدخول إلى عالمها لدقائق، أحاول فيها إعادة توازني العصبي.

أعياني اليوم دورانها حولي، والالتصاق بي، وهي تعلم- بحكم متابعتها الدقيقة- أنني أكتب ذروة تعذبني، أعدت كتابتها عشرات المرات، كل مرة بحال. كأنها كانت تخشى قراري فوق الورق. أدركتُ من تصاعد توترها أنها تربط بين قراري بالاستمرار معها وبين قرار بطلي الرواية بالانفصال عن حياتيهما، وتكوين حياة سوية. تتعمد رفع صوت التليفزيون إلى أن أنبهها لخفضه، ثم تعيده إلى سيرته الأولى بعد دقائق. أغلق الباب، وأدير اسطوانة موسيقى بجانبي، وأنفصل عن العالم، فتأتيني بالتليفون، رغم أنني أبعدته عن مكتبي، وتقول "فلان يريدك". يتدخل شريف: "بابا طلب ألاَّ يكلم أحداً"، تنهره صارخة. ألتقط السماعة، وأنهي المحادثة بسرعة. تأتي بكومة جرائد ومجلات، وتحتل المقعد المجاور لمكتبي، وتسألني سؤالاً في الموضوعات التي تقرأها كل خمس دقائق. أعيد قراءة الصفحة التي أكتبها من بدايتها، حتى إذا بدأت الكتابة في التدفق سألت سؤالاً آخر. أطالبها بلطف أن تتركني، لأنني مشغول الآن، تقول- هازئةً- وهي تغادر الغرفة: "ومتى لم تكن مشغولاً؟".

تغلق الباب من ورائها، بعد أن تطلق إلى رأسي خيولاً جامحةً تشوش قدرتي على تجميع الصورة التي أسعى إليها. لا شيء غير أفراس تركض، تدمر تحت حوافرها كل أوهامي عن التقاط الفكرة، فتضيء في عقلي جملة واحدة: افرنقعوا عني!. أسمع صوت صراخها وهي تنهر شريف عن شيء لا أعرفه، ولا يحتاج صراخاً بالطبع. أقوم عن الأوراق، تتملكني رغبة وحيدة: أن ألقي بها من النافذة. تستشعر غضبي، وتكون قد وصلت إلى ذروة أمنياتها باستفزازي، فتطلق سيلاً من الاتهامات، وأنفجر بعد أن أكون قد دخلت المصيدة التي نصبتها لي بمهارة، ونجحت في إبعادي عن

الأوراق. لا أعرف متى تستطيع ناهد أن تتخذ قرارها بالارتباط بـي. أجلت مشاريعى الهامة إلـى أن يضمنـا بيـت واحـد. لا أسـتطيع الانفصال عن ماجى دون أن تكون ناهد قد انفصلـت رسـمياً عـن مصطفى. كيف سنواجه انتقالى- قبل ذلك- إلى شقتنا دون أن نثـير شك المجتمع حولنا من زيارتها لى، وليس إقامتها معى؟

متى يا ناهد، متى؟

انهيار

رغم مرور كل هذه الشهور، لم يكن مصطفى قد تأكد تماماً من إصرارى على الانفصال. خبرته معي تشير إلى عدم استطاعتى إغضابه، أو رفض رغبة له، راضية دائماً باحتياجاته. لم يفهم الفرق بين كونى أحبه لأنى عاشرته عمرى كله، وبين وقوفه الآن فى مواجهة احترامى لنفسى ومشاعرى. نعم، كنت امرأة مؤجلة لزمن طويل، أرجأت الحسم، لكن المواجهة تمت، ولم تعد العودة ممكنة؛ إذ أن معناها احتقار الذات.

حين اقترب منى هذه الليلة، مظهراً عواطف صادقةً، جرحنى، وضعنى بين نصل سكينتين، إحداهما فى يده والأخرى فى يدى. رحت أرقبه جزعةً، محاولةً الإفلات دون جدوى. كان- طوال العمر- يلتقط إشارات عدم قدرتى، لكنه- هذه المرة- تجاهلها عن عمد، وألفيتنى بين ذراعيه. قبلاته تشعل حريقاً من الرفض، ولا تثير رغبة. حاولت التملص، لكنه كان قد قبض على أعضائى كلها، منتبهةً، منفصلةً، أشعر بها واحداً فواحداً: هذه رأسى، وهذا جذع،

وتلك ساق. ضربات قلبى انفرطت إلى ثلاث فى آنٍ معاً، دقـــة فـــى منتصف كل دقتين، تتردد بين ثديىَّ، أسمعها جزعةً وأنفاسى تغيـــب، طالبةً أن يبعد صدره عن رئتىَّ، لكنه كان غارقـــاً فـــى اســتمتاعه. أبعدته بعنف، فأفاق مذهولاً وأنا أرفس بقدمىَّ وســـاعدىَّ فـــى كـــل الاتجاهات، وأصرخ مختنقةً بصوتى الذى لم يبتعد سنتيمترات عـــن وجهى. كتمته التقاليد والعائلة النائمة فى الغرفة المجاورة. وفضحـــه تنفسى العالى، وحشرجة خرجت رغم أنفى، تسأله أن ينقلنـــــى إلـــى المستشفى لأننى أموت. أفقت من الإغماء لأدخل نوبة بكاء صـــامت. وحين وصلت إلى المستشفى، واستسلمت للأيدى التى امتـــدت لـــى، كنت مشغولةً بالتربيت عليه: لا أريده أن يجزع. مازلت أخاف علـــى مشاعره، ولا أرضى بعذابه. أريد الاعتذار، الاستســـلام، الاستســـلام للنوم، يا الله!!

فى الصباح، وجدته جالســـاً فـــوق كرســـى أمـــامى. تحركـــت فاحتضننى بحنان. قلت: "سأكون بخير"، وكنت صادقة. أعرف فـــى نفسى القدرة على السيطرة عليها. خرجنا معاً إلى البيت، ولم نتحـــدث فى هذا الموضوع مرةً أخرى. تأملت ما حدث، وجســـدى لا يتـــألم، لكنه همدان كأنى جريت مسافة "ماراثون". كان طبيعياً لمثلى ألا تقبـــل أن يمسسها مصطفى بعد أن أصبح غريباً عنى. مازلنا زوجين، نعـــم، لكنه الآن آخر. أنا لعمر، ولا يمكن أن أكون لرجلين فى آن.

دخولى المستشفى اضطرنى أن أخبر عمر بما حدث. لم أخـــبره بباقى القصة وأسبابها. لم أستطع، فكـــل كلمـــة هـــى ســـر خـــاص بمصطفى، ولم أجد ضرورةً لإفشائه. تهربتُ من الحديث عن حيـــاتى السابقة. قلت له باختصار: "لم ولن أعيش مع رجلين". ضمنـــى بيـــن ذراعيه، وظل السؤال المعلق في عينيه يقض نومى.

اتهـــام

سافرت ناهد اليوم إلى الوادى الجديد، إلى مكـــان لقائنـــا الأول، ضمن بعثة تحقيق فى سرقة آثار قام بها متعلمـون للمـرة الأولـــى: طبيب ومدرس وفتاة من أبناء الوادى، اتصلت بى. قـالت: آن الأوان لكى نكون معاً للمرة الثانية حيث تعرفنا وانتبهنا إلى بعضنا. اســـتقل أول طائرة لتغطى التحقيق فى القضية، الأمر يحتاج منك إلى حملـــة صحفية كبيرة لإنقاذ الموقف هنا. فرغم مساحة الوادى الـــذى يمثـل أكثر من نصف مساحة مصر، ويحتوى على أكثر من ٢٠٠٠ موقـــع أثرى، معظمها مناطق بكر، فلا يحرس الآثار بـــها غـير أربعيـن عسكرياً أقرب إلى الأمية، ولا تملك هيئة الآثار إلا ســـيارة واحـدة "لاندروفر"، والبنزين المرخص لها محدود للغاية، ولا توجـــد نقطـــة شرطة سياحية، والبعثات الفرنسية العاملة هنا لم تكتشــف أى شـــىء حتى الآن، لكنها على وشك الكشف عن إحدى الحلقات المفقودة التـــى تربط تسلسل التاريخ القديم.

أغرتنى القضية والمعلومات الكثيرة التى ذكرتها ناهد، فقــــررت

اللحاق بها بالفعل، ممنياً نفسى بقضاء وقت طويل مع حبيبتى خارج العاصمة والمشاكل. وصلت إلى مطار الخارجة فى الصباح المبكر، والشمس العفية تعلن وجوداً خاصا بالمنطقة الدافئة نهاراً، قارصة البرد ليلاً. أحاط بى مندوبون من الثقافة، والمحافظة، والآثار، وأشاعوا الحميمية التى عرفتها من قبل عند أهل الواحات. أقلتنى السيارة إلى مكتب المحافظ، ثم إلى مقر هيئة الآثار. مررت ببناء المتحف الذى سبق أن قالوا لنا إنه سيفتتح قريباً، وسيضم كل آثار الوادى. سألت مدير العلاقات العامة عن سبب بقائه خاليا حتى الآن؛ قال إن البناء لم تراع فيه عوامل الأمن، ولهذا ترددت الوزارة فى نقل الآثار المكدسة فى المخازن إليه.

تذكرتُ أننى لاحظت- فى زياراتى السابقة للوادى- أن الفتيات العاملات فى الاستراحة التى أنزل بها يضحكن لحظة خروجى من غرفتى. وفى صباح أحد الأيام، تقدمت منى إحداهن وسألتنى لماذا أغلق الغرفة بالمفتاح؟ عرفت ساعتها أننى- بعاداتى التى اكتسبتها من المدينة- قد جرحتهن دون قصد، فتركتها مفتوحة بعد ذلك. فكيف حدث هذا للمجتمع الذى كان آمناً، لم يعان من سرقة واحدة طوال تاريخه؟ ولماذا كل هذا الانزعاج؟ هل الجريمة بهذا الحجم؟

أخبرنى إبراهيم الخليل مدير الثقافة أن الجريمة الأخيرة فاقت كل تصور، إذ تم ضبط ٤٦ قطعة آثار فى حديقة أحد المواطنين، تم تجميعها تمهيداً لبيعها خارج المحافظة، وأن الشهور الأخيرة قد شهدت العديد من الضبطيات، بعضها حفر وتنقيب وبعضها نقل آثار.

ذهبت إلى قسم البوليس للاطلاع على المحضر. لاحظت أن عدداً من المتهمين جاءوا من قرية "المنيرة" التى اشتهرت فيما مضى

بسجن المحاريق، الذى شهد اعتقال المثقفين بعد الثورة- اليسار والأخوان معاً- لكنها تشتهر الآن بتعدد السرقات فى مناطقها الآثرية.

أخيراً التقيت بناهد ومفتشى آثار الخارجة. قدمتهم لى، وكنت قد التقيت ببعضهم من قبل. لاحظت أنهم قد تناقشوا طويلاً فيما يمكن أن تؤدى إليه حملة صحفية واسعة لمواجهة المشكلة. ثم تحدثت مع الأثرى عادل حسين، الذى كان له ولزملائه فضل اكتشاف آثار عديدة فى منطقة "دوش" منذ سنوات، وأيضاً فى منطقة "اللبخة"؛ قال إنه يجب أولاً تعيين حراس وبأعداد كبيرة. حيث أن الموجود حالياً "٤٢" حارساً مخصصين لحراسة نصف مساحة مصر. ونظراً لوجود أربعة مخازن تحوى الآثار المنقولة، وكذلك ستة معابد عليها كتابات ونقوش، ومقبرتين منحوتتين فى الصخر عليهما رسوم غاية فى الأهمية، فقد تركزت الحراسة على هذه المعابد والمقابر. كما توجد بواحة الخارجة مساحة تبلغ حوالى ٩٠ كم طولاً وما بين ٣٠ و٤٠ كم عرضاً بدون حارس واحد، على الرغم من أنها تحتوى على العديد من المواقع الأثرية الهامة مثل منطقة "اللبخة"، و"عين الغزال"، و"بئر الجبل"، و"المغطى"، و"دير المنيرة"، و"الجب"، و"السميرة"، والعديد من المناطق الأخرى؛ وكذلك هناك عجز فى الحراسة فى جنوب الخارجة وجنوب باريس، ومناطق أخرى تحتاج إلى تعزيز حراسة. أما "الفرافرة" فلا يوجد بها حارس واحد، وكذلك نقوم- نحن الأثريين- فى تقليل المسافة بين الخارجة والداخلة، وكذلك مشايخ الخفراء والوكلاء، بالمرور الدورى على هذه المواقع فى الواحات الثلاث، رغم أن المسافة شاسعة بين هذه المناطق. فنحن نعمل فى منطقة يبلغ طولها ٨٠٠ كم وبعرض يتراوح بين ٣٠ و٥٠ كم، إلى جانب المسافة بين العمران والمناطق النائية داخل الصحراء.

فى المساء، قابلت الفتاة المتهمة فى بيتها. أمسكت بتماثيل صغيرة من الخشب على شكل طيور وعصافير، وقالت إننى أصنع هذه التماثيل فى بيتى، وقد ظنوا أنها آثار؛ أنا بريئة من هذه التهمة الفظيعة. وحين خرجنا من بيتها، قال لى الصديق الذى صحبنى غاضباً: استغرب الناس دخول فتاة للمرة الأولى فى قضية آثار، لكن ارتباطها الأسرى جعل الأمر يبدو منطقياً، بسبب ضبط أخيها وخطيبها فى قضايا تهريب سابقة.

فى اليوم التالى، قابلت عضو المجلس المحلى بالمحافظة، وسألته عن القضية، وعن سبب الظاهرة التى انتشرت فجأة. قال:

– المشكلة هى من يقوم بتحريضهم على السرقة. الآثار هنا غير محددة الأماكن. لابد من التحديد أولاً حتى يعرف الجميع أنه ممنوع الاقتراب؛ لأننى لا أستطيع أن أمنع أحداً من السير فى الجبل لمجرد الشك. هؤلاء الأولاد الذين يقومون بسرقتها، وتحويلها إلى بلاد أجنبية، لا يعتبرونها جريمة، لأنها مدفونة فى أرضهم.. نحن فى حاجة إلى توعية الشباب.

سألت أحد الشبان فى "إذاعة الوادى" عن تصوره لماذا يسرق شاب متعلم الآثار، فرد بمرارة قائلاً:

– أتعلم طوال حياتى، وينفق أهلى على تعليمى كل أموالهم، إلى أن أتخرج من الجامعة فلا أجد عملاً، ولا أجد مالاً لكى أتزوج. وهذه الآثار مدفونة تحت بيتى، وضعها أجدادى أنا، فلماذا لا تكون ملكى؟!

كنت أستشعر مرارة كلماته، وأعرف أنه ليس فى حاجة للوعى بأهمية هذه الآثار، بل فى حاجة لحل مشاكله بالعمل والزواج. وسألت

ناهد عن مرتب مفتش الآثار هنا، فعرفت أنه مائة وخمسون جنيهاً فقط لاغير. قررت أن أكتب تحقيقات نارية بحجم الغضب المشتعل داخلى.. أرسلت أولها على الفور، ثم عدت مع ناهد فى طائرة واحدة. لم أستطع أن أجعلها تلقى برأسها فوق كتفى وسط السحاب، أو حتى أمسك بكفها، والتزمنا الحرص، رغم أن الطائرة كانت تعج بالأجانب، واكتفينا بسعادة أن نكون متجاورين..

بعد أيام، اتصل بى رئيس هيئة الآثار، وأخبرنى بحل مشكلة سيارات الغرز، والتعزيزات الأمنية، وإقامة مقر لشرطة السياحة. أما الطائرة الهليكوبتر التى طالبت بها من أجل العاملين، فلم يستطع تدبيرها. ووعد بحلول أخرى قادمة.

انفجـــار

أعشق النهر؛ أهرب إليه كلما ثقل إحساسي بالوحشة. أقود سيارتى إلى الطريق الموازى له، أترك القاهرة خلفى، وأمتص انفجاراتى على مهل. أحب توغل الليل هذا، لم أتوقع أن يكون الطريق فى حالة إصلاح؛ الرصف قاس يجرح الأرض بعمق، رغم أنه يهبها نعومة. من أين أتى هذا الكلب فجأة؟ الحمد لله، توقفت العربة بأعجوبة. أنا أعرف هاتين العينين، وهذا الأنف المرتعش بالشر، وهذا الفك ذا الأنياب.

رغم خوفى، والمسافة القصيرة بيننا، أردت أن أربت على رأسه، لعله يستكين. لم أكن قد رأيت الذئب من قبل، لكنى أدركت- رغم أعوامى التسعة- أنه ليس كلباً؛ وهو لا يملك فراء الثعالب ذات الذيول المنفوشة المعلقة فوق جدران بيتنا فى البلدة. بدا كئيباً وسط أعواد الورد، والشمس تنفث زفرات العصر الهادئة؛ سكون الموت المنبعث من المقابر- خلف حديقة الجوافة- أشاع حولى جمود الرعب الصادر من عين فريسة الثعبان وهى تستسلم.

كنت قد سبقت أصحابى، وقفزت من فوق سور الحديقة، لأصل قبلهم إلى الورد البلدى، وتعطلوا هم فى فتح الأبواب. أردت أن أصرخ، لكن التماع نظرته، وارتعاش أنفه أخرسانى، ووجدتنى فوق شجرة الجوافة الهشة، وهو تحتها، له فحيح، وأنياب متباعدة، وأسنان صغيرة وفم مظلم؛ ظل يطاردنى كلما كشر إنسان فى وجهى دون سبب.

أمسكت بأطراف أعلى الأغصان، وأمسك هو بذيل فستانى النايلون الذى سمعته يتمزع وقدمى تتطاير فى الهواء، تحاول اللحاق بفرع آخر، وأنا احتضن الساق. فقدت حذائى، وصرخت، تخلصت من وهم مصالحته، واعترفت أننى فى حاجة إلى النجدة التى ما طلبتها طوال حياتى بعدها. ليتنى تعلمت أن أسأل الآخرين المساعدة .. ليتنى تعلمت.

الورد والذئب وفتاة صغيرة تركض فوق حصان عبر الحقول فى الظلام، أو تشق لجة النهر غير خائفة. شجاعة أم عدم إدراك؟ لا هذا ولا ذاك، لأننى كنت أخاف بالفعل حين يصلنى الإدراك فى السكون، فأعى الخطر الممكن. أجدف، وقد اشتعل جسدى بحماس الرهبة، فأعمل وأعمل حتى أصل إلى بر الأمان. لم أر الجنية حتى أخافها، أو عفاريت القيلولة، التى كان العجائز يخيفوننى بها كى أنام عند الظهر. كيف أنام، والتوت ينضج بالحرارة، والشجرة تنفرط لما تسيل الشمس فى خطوط مستوية؟ ودائماً كانت هناك ثمرة، أية ثمرة، فى أعلى فروع الشجرة تنتظرنى، وتلوح لى بالأمل أن تكون لى.

أحب هذا التتابع للمشاهد أمام زجاج السيارة، حقول واسعة، فضاء وأشجار متباعدة تحرس الماء والزرع، وتحمى جسد

أوزوريس. لماذا يضئ سائق الميكروباص كل هذا النور؟ الطريق ضيق، والكشاف يعمى بصرى، يا إلهى..

- قاع العين سليم تماماً، ولا يوجد بك مرض عضوى.

= النور يحرقنى. أبعده قليلاً يا دكتور.

- تعال يا دكتور فاروق انظر، لقد فحصتها. تأكد بنفسك.

= لكنى لا أراكما؛ لا أرى إلا الكشاف الكبير. رقبتى تؤلمنى، كأنى معلقة فى خطاف يشدنى للخلف.

- اهدئى يا ناهد، هذا طارئ بسيط وسيزول حالاً، بمجرد الراحة.

الآن أعرف أننى كنت فى حاجة إلى الهروب، إلى التخلص من بصرى حتى لا أرى الانهيار الذى وصلت إليه. لا أدرى لماذا تذكرت فان جوخ، حين وقف للمرة الأولى فى باريس أمام لوحات رمبرانت وجيله من الرسامين، جوجان، ورأى خيوط الضوء تشع منها، فبكى ظلام لوحاته ولوحات المدارس الفنية الرصينة. أعرف الآن أن النور لم يأت من اللوحات وحدها، بل من لحظة الكشف الداخلية التى دفعته لتحديد طريقه، والإمساك بما يريد.

كنت فى حاجة إلى أن أكون وسط تيار بشرى. لم يدرك مصطفى مدى حاجتى للناس، كان يسمى أعراض الوحشة حمى المناطق المغلقة. أرادنى لنفسه وحده، ولم يعرف لحظتها أنه يقتلنى. أقسم أننى حاولت، لكنه كان مجتمعاً كسولاً تافهاً ومحبطاً فى آن معاً. فالسجن ليس جدراناً أربعة. السجن أن ترتد إليك كلماتك دون تواصل، ألا تستطيع أن تبث الأفكار، وتتوهج وتتفاعل.

كنت فى حاجة لسماع أراء جديدة، وأفكار جديدة، وعالم أوسع من هذا العالم، رؤية أعمق للكون، لا لهذا المحيط الضيق من البشر، الذى يعيش فى خندق من الطموحات الصغيرة، رغم أنه يعيش فوق ساحل بحر يمتد أمامه الأفق؛ حتى على المستوى المكانى لا يدرك هذا. لم أعِد نفسى لأن ألعب رر زوجة فى مدينة إقليمية صغيرة تنحصر اهتماماتها فى تفاصيل الحياة اليومية المتكررة، وتدور حياتها حول محور كونى وحيد: زوجها.

يومها، يوم أن فقدت بصرى، ورفضت أن أرى ما يحيط بى، كانت الأحداث عاديةً لا تبشر بهذا الانهيار الفجائى. كنت قد شغلت نفسى طوال اليومين السابقين فى إعداد طعام العشاء لزملاء مصطفى، وأحسست بالسعادة، وأنا أصنع تورتة كبيرةً من عدة طوابق، صممت معمارها بنفسى، مستخدمةً علب اللبن الجاف الألومنيوم، وغطيتها بأوراق الشيكولاتة المفضضة، وصنعت قلباً كبيراً يحمل ثلاثة قلوب صغيرة. لم يصدق مصطفى هذا الانشغال، وقال معلقاً بعد أن انتهيت: لماذا لم تخبرينى لنفتح مكتب "متعهد حفلات"، بدلاً من البحث عن المعادن فى الجبل؟

كنت آمل فى الاستمتاع بهذه الدعوة، فى الخروج منها بحيوية تدفعنى لتحمل الوقت المهدر، والتفكير فى عمل أواصل به ما كنت أقوم به طوال حياتى باشتياق.

كنت أعرف أن زملاء مصطفى وزوجاتهم من طبيعة مختلفة عن زملائى وأصدقائى في القاهرة. بالقطع لن تكون اهتماماتنا واحدة، لكنى تمنيت أن أجد بينهم محبةً ما.

بدأت الزيارة كما توقعت، بانشغال شديد لتلبية احتياجاتهم، لكننا

سرعان ما انفصلنا إلى مجموعتين: الرجال فى جانب، والنساء فى جانب آخر من الحديقة. سألتنى زوجة المأمور، وهى تلوى عنقها فى بطء، لتضفى تردداً مصطنعاً على السؤال، الذى تؤكد عيناها أنها تريد إجابته بشغف:

- لماذا لم تدعى زوجة الطبيب الجديد؟ يقولون إنها صغيرة، وجميلة، وفى مثل سنك؟

وقبل أن أجيب، سبقتنى زوجة المهندس محمد:

= اعتذرت لأنها لم ترتب بيتها بعد، ومنهكة من السفر الطويل. ثم التفتت إلى السائلة بحدة: ومن قال إنها جميلة؟

- لها قوام حلو.

= ليس مثل قوام ناهد . فلها سيقان ماعز.

- انتظرى حتى تحمل وتلد.. "ما تبان البضاعة إلا بعد الحمل والرضاعة". سمعت أنها مغرورة ومتعالية.

لم أسمع. شعرت بغثيان وغربة، وهن تتبارين فى الكلام عن الموضة، وأمراض الأطفال، وألوان برازهم التى يجب أن ألتفت لها حين ألد طفلى. حاولت أن أخفى خيبة أملى وأنا أودعهم، لكن مصطفى أدرك ذلك حين أغلقنا الباب خلفهم.

لم أستطع أن أشكو، أو أطلب العون، أو أفكر فى الرحيل؛ هذا مكان عمل مصطفى، والزوجة عليها أن تكون حيث يكون زوجها. لكن الأسئلة كانت قد راحت تدق رأسى بعنف، وأنا أنتظر مصطفى لساعات طويلة مملة، عن معنى وجودى، ثم رويداً تسلل إليها سؤال

عن معنى الحب؟ هل هو إقبالنا معاً على الجنس؟ للجسم احتياجه، وكل منا يشبع احتياج الآخر؟- هل يشبعه حقاً ؟- وهل الاحتياج المادى هو كل شيء؟ لماذا أشعر بجوع عاطفى يتزايد، بعد أن ينفض التصاقنا، وتهدأ الفورة التى تغيبنا للحظات. لماذا يبدأ عقلى العمل بهذه السرعة، كأنه تخلص من شيء إلى الخارج، ليعود إلى حالته الأولى؟

لم تعد الأسئلة تطرح نفسها وقت غيابه، بل طرحت نفسها بقوة أكبر وهو موجود، بعد أن اختفت الأصوات من البيت، وخفت الغناء، وتوارت الشكوى. لم يعد يُسمع فى الصمت سوى وقع الخطوات المنتظمة لإعداد الطعام، أو حمل الصحون الفارغة. وحل هدوء لزج، يشبه ما تبثه المستنقعات الميتة تحت وهج الشمس الحارقة. حتى محاولة اقتناص صيد، للمحافظة على البقاء، مثل الخروج فى نزهة، أو التمشية على البحر يوم الجمعة، لا تكون..

فى الصباح، مع النسمة الأولى التى استقبلتنى، ومصطفى يصعد إلى السيارة، سألت نفسى: ماذا سأفعل طوال اليوم، إلى أن يعود بعد الظهر؟ أمسكت بكتاب مللته بسرعة، فتشت فى الصحف القديمة والجديدة، لكنى كنت أعلم محتوياتها جميعاً. شعرت بآلام فى ظهرى، فقمت لأستند إلى الحائط، أسلمته رأسى، ثم تركته إلى الجدار المقابل، ارتكنت إليه، وعدت أجرجر نفسى حتى وصلت إلى الردهة، ووقفت أنظر إلى الفراغ من النافذة؛ لكنى لم أستطع البقاء طويلاً على هذه الحال. هربت إلى الحديقة، ورويت الزرع الذى كان يكافح للبقاء، وعدت إلى المنزل أتمسح بالجدران التى اقتربت منى، وراحت تطوقنى، وأنا أقاوم، حتى شعرت بها كلها تحيط برأسى. رحت أدور دون وعى، ثم أمسكت بجبهتى أحميها من السقوط، وعدت إلى

الخارج. لم أجد الحديقة أو الشارع أو البيوت. وجدت سماءً صافية، وطيوراً راحلةً في وداعة. جذبتني الآلام في رقبتي كي أنكفئ للوراء؛ قاومتها، لكني لم أجد مفراً من مواجهة السماء. حاولت أن أحرك وجهي دون جدوى، اصطدمت بأصيص زرع بجوار الباب، استعنت بذاكرتي: هذا هو الممر، وبعده الشارع، بضع خطوات إلى اليمين ويكون منزل الجيران. سمعت صوت طفل يرحب بي:

- أهلاً تانت.

= أين ماما؟

- ماذا بك؟

= اصحبيني إلى المستشفى بسرعة.

هل كنتُ بحاجة إلى ديناميت كي أخرج عن صمتي، كي أتأوه وأعترف أن هذا المجتمع أمرضني وأسقمني؟ استيقظت على صوت مصطفى يودع جارتي سميرة، ويشكرها. هدأ جسدي تماماً، وجاء زوجي يربت على رأسي. حاولت الكلام، لكنه منعني بإشارة من يده، وأسندني دون صوت إلى طاولة الطعام الصغيرة. تحدث كثيراً على غير عادته؛ كان مرحاً رقيقاً، لكن شيئاً ما حال بيني وبين التحليق معه، أعرف الآن أنه إدراكنا معاً للنسيج الذي بدأ يتكاثف ليحجب كلاً منا عن الآخر. هو غارق في عالمه، وأنا أنتظر؛ وحين يأتي لا يغير وجوده عالمي. بعد دقائق، عادت عيناي لتنظرا إلى السماء وحدها. تمددت فوق الأريكة، وبكيت. جاء الطبيب وزوجته، فحصني ثم سألني ضاحكاً عما كنت أفعله في القاهرة. أخبرته عن دراستي للآثار، ونشاطي الجامعي، ورحت أحكي ونحن نكتشف معاً تزاملنا

فى نفس الفترة. عادت عيناى إلى مكانهما الطبيعى، وتعالت ضحكاتنا، ونسينا ما جاء من أجله، فلما تذكرنا، أمسك قلماً وورقة وكتب فيها.

البحر. الجبل. البحر. الجبل.

- ألنا مريضة بالفراغ؟ قلتُها غير مصدقة، وأنا أتحسس وجهى، وأنتظر حركة شفتيه:

= ليس تماماً. الخروج يكسر حدة الملل ويهبك راحة. أبدلى دواء مانع القيء، لم تحتمل أعصابك هذا النوع أثناء الحمل، فلن تعاودك هذا الآلام مرة أخرى. واصطحبى زوجتى إلى البحر، فهى تعانى مثلك تماماً..

كأنها كانت بالأمس. ما لا يميتك يزيدك قوة. دفعنى فقدان البصر للحظات إلى تقرير المصير. استعدت كتبى وأبحاثى، وساعدنى أساتذتى فى القاهرة للتجهيز لدراسة الماجستير. مسحت المنطقة، وتعرفت على آثارها الرومانية واليونانية، ثم شغلنى موضوع المرأة المصرية القديمة. شيء ما دفعنى كى أتعرف على ملامح جدتى، وأسد بعض النقص العلمى فيما نعرفه عنها، ورحت أجمع المراجع والمعلومات، واعتبرت وجودى هنا كأنه وجود فى بوتقة معمل، يساعدنى على سعة الاطلاع والعلم، ويؤسس لباحثة خلت أنها ستكون فريدة. ثم انشغلت بابنتى عن الأسئلة التى تمور داخلى، عن الجدار الشفاف الهائل الذى نما بينى وبين مصطفى، وسط المنظومة الدقيقة لرجل ثقلت أعباؤه فى العمل، واختار أن يحيط نفسه بسياج من العزلة، حتى عن أقرب الناس إليه..

لم أدرك، وأنا أغادر سفاجة عائدة إلى القاهرة، أن الأرض تعيد ترتيب عناصرها عنوة، تصهرنا لتصنع عالماً جديداً. وكيف لنا أن ننجو، وقد قبلنا أن نكون فى بؤرة التغيير. تصورت أننى أستطيع أن أبعد النيران عن أسرتى بالوعى، بالاختيار الدقيق لمسار الحياة، وهو ما لم يحدث حين قرر مصطفى أن يغير مسار حياته، ليصب فى تجارة الأسرة تحت لواء الأخ الأكبر. تجارة مشروعة، نعم؛ لكنها جعلت بيتنا وأفراده مجرد ترس فى آلة مصالح ضخمة، لا يملك القدرة على الخروج عن قوانينها دون أن يتفتت. امتلكت الوعى بما يحدث حولى، لكنى اكتفيت بالكلام لأمنع مصطفى من الانقياد للمصالح التى يخطط لها غيره؛ وفشلت، رغم استيلائهم على بيتنا، وتركنا نواجه المجهول.

كم مرة أبتلع دموعاً مُرةً على لسان جف من شدة الألم، وأشرق بها دون صوت؟ سكين تشق ظهرى، رغم الكليم القطنى الذى يغطى مقعد السيارة، بصمة أبدية تركتها مظاهرات ١٩٧٣؛ ضاع الألم ظاهرياً، وبقيت عضة أحسها كأنها صوت يلهب الجلد، مثل تيار كهربى، كلما شعرت بالغضب. أعدل جلستى، وأنا أعلم أنه لا جدوى.

– انتبهى يا ناهد ، تعالى هنا.

ألقيت بثقلى عليه، وهو يجذبنى إلى مدخل عمارة.

= شكراً.. كاد "الآيش" يسلخ ظهرى، والعسكرى مندفع ورائى مثل الثور الأعمى.

– هل جرحت؟

= لا .. ألم بسيط سيزول حالاً.

- ظهرت لنا هذه العمارة نجدة من السماء، نستريح دقائق ثم نلحق بالجميع فى ميدان التحرير.

= أعرف شوارع الدقى جيداً، لكن ماذا سنفعل فى الكبارى؟ سيتم اصطيادنا عند كوبرى الجامعة. وحتى إذا عبرنا الجزيرة من عند كوبرى الجلاء، فسيقابلنا كوبرى قصر النيل.

- نخرج أولاً من هنا، الخطة سليمة. نجحنا فى استفزازهم، ووصل صوتنا إلى الناس.

= هل يجرؤون على ضربنا بالنار، كما حدث عند كوبرى عباس؟

- كانت مصر محتلة.

= ما الفرق؟ على الأقل كانوا يحاربون عدواً يعرفونه. الآن، أنت تحارب من؟

- الهدف واضح: أولاً، حرب نحرر فيها سيناء، ثم نصفى الحسابات.

= أشياء كثيرة كنت لا أفهمها، لكن يبدو أن القنابل المسيلة للدموع و"الآيش" فى أيدى عساكر الأمن المركزى أفهمتنى بعضها.

- ماذا حدث لك؟ لقد كنت أبيض فى أبيض.

= يبدو أن كلاً منا يحتاج إلى لون واضح، مثل الشمس، حتى لا نظل باهتين، والنظام لا يرانا، ويعتقد أننا مجرد خيال ظل أو خيال مآته. هيا نخرج.

– لا تستعجلى الخروج. الوقت محسوب، وسنجتمع كلنا بإذن الله.

= لا أسمع أى صوت.

– انتظرى. لا تتحركى، سأرى ما يحدث فى الخارج، وأعود إليك.

مجرد عبور عتبة باب فصلنى عن عالمين.. خشبة المسرح والمتفرجين. عبرها هو ووقفت فى الظلام أنتظر. الآن أعرف أننى وقفت على عتبات الأبواب، ولم أملك أبداً القدرة على تخطيها. أين كمنت البذرة التى عششت داخلى مدى الحياة؟ متى تخلقت؟ هل ولدت. فى تلك اللحظة، أم أن السوس كان ينخر داخلى قبل ذلك بسنوات؟ هل لعبت الصدفة هذا الدور؟ أم أن القدر كان قد ترك لى اتخاذ القرار، فلم أقو على اتخاذه؟

انطلق ياسر إلى الحمم فى النور، غاب، وتعبت من الوقوف فجلست فوق درجات السلم. تسللت برودة الوحشة فطوقتنى، أبعدتها واحتضنت حقيبتى.. نهش الخوف جلدى، وخزنى بأسئلة رحت أجيب عنها دفاعاً عن نفسى والجموع: نحن لا نطالب بأكثر من حقنا فى طرد العدو. فلماذا تدهشهم مطالبنا؟ ألقوا بطلبة هندسة الإسكندرية إلى الجبهة، ولم نسمع عنهم خبراً. فى لهجة مسرحية وكأننا مجرد أطفال نزقين: تريدون الحرب، اتركوا الدراسة، والتحقوا بالجيش.

لم يستطع الشبان التراجع، مواجهة كافرة.. ثم موات.. كأننا الأعداء. بذروا جواسيسهم حولنا، حتى ضاقت الدنيا؛ لم نعد نعرف مع من نتحدث، ونأكل، ونتابع المحاضرات، ونغنى فى الرحلات؟!

عندما تصفو قلوبنا وننساهم، حين نصغى لدبيب الحياة فى شـرايينا، ونتطلع للحظة صدق وتواصل، يتقدم أحدهم: ناهد، لماذا تتحدثين معـه؟ ألا تعرفين أنه مباحث؟ كل يوم، تتقدم جماعة بدليل اتهام ضد الأخرى. ما يحدث اليوم هو دليل فشلهم فى تشتيتنا. يزرعون الكراهية والشك فوق أرضنا حتى نحصد فراغاً، وتتوه أصواتنا. غاب ياسر. أين ذهب؟ هل أصابته حجارة العسكر، أو عصيهم الغليظة. أيكون اشتبك معهم واعتُقل؟

عرفت بعد أيام أن سيارة الشرطة تلقفته، بمجرد عبوره العتبة، وحملته إلى سجن القلعة، قلعة محمد على، إلى رائحة مذبحة المماليك، ليضيف فوق جدرانها اسمه وسط الأسماء المحفورة للسجناء والثوار على مدار التاريخ. كان يريد البقاء لوقت آخر حتى يطمئن، هل دفعته بتسرعى إلى الخروج؟ سؤال أرقنى سنوات، رغم أننى لم أر له أثراً على وجهه حين التقينا بعد ذلك.

تولدت شرارة التحدى داخلى، دفعتنى طاقة هائلة للاندفاع نحو الشمس. لم ألق نظرة أخيرة على البهو الذى بقيت حبيسةً داخله، حتى أننى لم أعرف شكله، ولم أتعرف على العمارة بعد ذلك أبداً. لم أجد ياسر فى الشارع، بل وجدت موجةً من الطلبة تنبض بالغضب، تهدر "الحرب.. لا شىء غير الحرب"، والدخان الأبيض يلوث الشارع فى دوائر أشبه بحكايات أمنا الغولة.

وقعت فى قلب الموجة التى انسالت فى فيضان، تشابكت أصابعى مع أصابع شاب لا أعرفه، التقطت عيوننا المعنى. التفت لأرى من يمسك بيدى الأخرى، كان شاباً آخر لا أعرفه قد قبض عليها. ودون وعى التحمت الموجات، واتضح لها قوام وعصب، ولم تنفع أية حيلة للعسكر فى صدها. نسيت فى غمارها من أنا، وعرفت معنى أن أكون ذرةً فى كيان

كبير. شعور بحثت عنه طوال حياتى، لكنه كان مثل السراب يخايلنى من بعيد، يرتفع كلما اقتربت فوق سطح الأرض، يمتطى ضباباً ساخناً يتجسد لى، فأركض نحوه، لكنى لا أصل إلا إلى فراغ. انداحت الكتلة، وانتظمت أقدامنا تصفق بإيقاع ونغم وحشى مثل طبول أفريقيا، وارتفعت رؤوسنا مثل زهرة عباد الشمس نحو مصدر القوة. كان "رع" قد استوى على العرش، فمضينا نحوه حريصين على ألا يختفى عن أعيننا..

سَكَن

كان علينا أن نشق قلب المدينة القديمة، أن نعبر شوارعها السوداء الضيقة التى تتلوى تحت زحف العمارات فى أحيائها الشعبية، حتى نصل إلى كوبرى السيدة عائشة، ونعبره إلى قلعة صلاح الدين، ثم نستسلم لطريق طويل وسط مقابر البساتين من ناحية وجبل المقطم من الناحية الأخرى، لتطل علينا فى الفراغ الصحراوى المترب أبنية تحت الإنشاء، توقف اكتمالها منذ عشرات السنوات. بهتت ألوانها، وتعرجت فراغاتها التى لم تثبت بها أخشاب النوافذ والأبواب، فبدت نموذجاً لكآبة الوحشة والهجران.

نعرج إلى شوارع تتراكم على جانبيها مواد بناء تقادمت دون استخدام. يفتح لنا الخفير البوابة، نعبر الشارع الأول وسط قلقلات الحجارة وفتحات المجارى التى لم تكتمل أو تردم. نتقافز بالسيارة فوق مطبات الإهمال حتى نصل إلى باب العمارة التى لا يسكنها غيرنا، وعروسان سكناها رغم عدم وجود ماء أو كهرباء. تعلمنا منهما توصيل سلك ينتهى بمصباح ببطارية السيارة التى كانت

يشحنانها يومياً، والاكتفاء بـ"جركن" ماء نظيف للشرب. أخبرت العروس ناهد أنها تذهب أسبوعياً إلى بيت أهلها كى تغسل ثيابها، وأنهما يستخدمان راديو وتليفزيون صغير بنفس الطريقة .

راقبنا نمو الحياة فى بيتهما البعيد عن المدينة، الصبار فى الشرفة، وتكعيبة عنب صغيرة أمام باب العمارة، ثم مدًّا خرطوماً للماء من مصدر تمويل أعمال مشروع البناء حتى خزان كبير بجوار مدخل العمارة لكى يملأوه فى الليل، أو يستعينان بسيارة مياه كلما فرغ. كنا ننسى إحضار "جركن" الماء، فنطرق بابهما. تفتح لنا بفرح، مستعينةً بكلب حراسة كبير، تعود علينا، وتعطينا الزجاجة ضاحكة، وتدعونا إلى الشاى، فنعتذر بضيق الوقت. فرحا بوجودنا الذى بدأ متقطعاً ثم منتظماً. عرفا مواعيدنا، وأدركا دون أن نخبرهما بشىء أننا نقلنا أعمالنا الخاصة إلى المكتب، كما كنا نسميه ، وطالبانا كثيراً بأن ننتقل للعيش بالكامل فى هذه الشقة. كنا نتعلل بمدارس الأطفال، لكننا أبداً لم نخبرهما بأكثر من هذا.. كنت أخشى حديث العروس مع ناهد، وتسرب معلومات تخلق لنا مشكلة، لكنها اكتفت من الفضول بوجودنا الذى يبعث الحياة بشكل ما فى البناء الضخم الصامت، رغم عزلتنا !!

إثنان

حنين

وحيدة على الشاطئ فى المنشية، تنظر إلى البعيد. هناك، حيث لا يتمكن بصرها من عبور المتوسط، يطير قلبها إلى اليونان موطن الأجداد. لا تستطيع أن تعطى ظهرها تماماً إلى الإسكندرية التى نشأت فيها وأحبتها، مُمزقةً بين بيئتها، مفردات حياتها التى لم تلامس غيرها، وبين الحنين إلى الجذور. لم تشك ماريا أبداً أن البحر سيأتى لها بفارس هو قدرها، يعبر المتوسط مثل السمان المهاجر، ليصحبها فى طريقه إلى عالم آخر. تقطع رحلتها اليومية من بيتها فى العطارين إلى البحر، لتراقب الغروب، حيث قوارب صغيرة وجنادل ومراكب شراعية راسية فوق سطحٍ هادئ، محكوم بكتل خرسانية، وصخور. تتنقل بخفة، محاذيةً البحر، إلى الطابية، أو تستقل الترام إلى بحرى مع جيرانها، ليفترشوا أرض الجناين أمام قصر رأس التين، ويعودوا بعد أن تكون قد تأملت انفتاح المدى الذى يعيشه البحر.

دربت نفسها على الانفراد به حتى وسط صديقاتها، تستمع إلى

وشوشاته، وحفيف يشبه حركة الشيفون حين يتطاير من فوق جسدها؛ تخال أنه يخاطبها وحدها بأصوات فالتة من هناك، فيها خربشات الماء فوق الصخور، مختلطةً بعزف ضربات خشنة لآلة البوزوكي، وغناء جبلي، وإيقاع دبكة فيها شموخ. تشم رائحة اليود ممتزجةً بعبير لم تستنشقه أبداً، لكنها تعرفه بالحدس من حكايات أسرتها التي استوطنت الإسكندرية منذ زمن. خليط من ماء ثائر، وأسماك طازجة، وحيوانات بحرية مجففة في الشمس، ولحوم مملحة منشورة، وصخور مبللة بماء رائق، وطحالب خضراء، وتخثر ألبان الماعز، وأجبان مطبوخة، وقوارب قديمة وجديدة، وشمس عفية، وكستناء مدخنة وريح قوية في الشتاء تلوى سيقان الأشجار.

من يستطيع أن يقبض على رائحة اليونان التي يحكون عنها؟ قالت لها أمها: أنصتي إلى دبيب سريان الرائحة في دمك، ستعرفينها، وستصفو لك قوية. وقال لها أبوها: هي رائحة الأساطير والآلهة القساة. وعرفتها وهي تستقبل ريح البحر، استخلصتها من بين رائحة الأخشاب العطنة بالميناء القديم الممتزجة باليود وبقايا الصيد، وإحساس الغربة، والانقسام بين الواقع وميراث الأحلام عن الجذور. راحت تجمع الهواء كل مساء في صدرها بقوة، مغمضة العينين، وتدفع بالنسمة إلى آخر وردات رئتيها، حتى يمتلئ بها جسدها، ويخيل إليها أنها بلغت الساقين. ساعتها، تسمح بخروجها، فتكتشف حجم الخواء الذي تركته لها.. خواء لا يملأه إلا هذا الحبيب المنتظر.

ألقت مفاتيح قدرها إلى البحر، وأسلمت روحها، وراحت تتصيد إجاباته من النوارس والعرافين، وضاربات الرمل؛ من دقة نوّاته أو اختلافها، من حكايات الصيف والجنود العابرين، من الوجه القبيح للمدينة الذي لا تظهره إلا للغرباء، وتتناقله البنات في السر. وتتابع

بشغف أضواء السفن المنتظره فى البوغاز، وتدور مثل نحلة تـاهت عن خليتها، إذا سمعت بوق سفينة يزعق بالرحيل. صدقت حلمها حين رأت "باولو"، بحار إيطالى فتنتها حيويته وصدقه، فتزوجته على الفور؛ لكنه فضل البقاء في الإسكندرية على العودة. أجلت أمانيها فى الرحيل ليحقق النجاح المنشود. استقر وافتتح ورشة خراطة كبيرة فى ذات الحى، سرعان ما حققت لأسرته التى اتسعت حياة رغدة. لكن ماريا لم تفقد أغنية السفر، راحت تبث نغماتها فى أبنائها، فنشأوا أعضاء حقيقيين فى جالية صغيرة تعيش على هامش حضارة، وتتعالى عليها، إلا ماجى، صغرى أطفالها التى انحازت عاطفياً لموطن مولدها؛ فكانت الوحيدة التى بلا لكنة. ولولا عينيها الزرقاوين، وبضاضة جسمها وبياضها الشاهق، ما شك أحد فى أنها ابنة بلد اسكندرانية من الأنفوشى. تطلق على نفسها- وسط أصدقائها- اسم ماجدة عبد الله، وتقول ضاحكة أن ماجى باولو هو تحريف إيطالى للإسم المصرى.

عاشت ماجى وسط خليط من ثقافات ثلاثة تتجاذبها، فجمعت بينها وأجادت لغاتها. أصرت ماريا على إلحاقها بمدرسة فرنسية تدرس الإنجليزية أيضاً ضمن مناهجها، تشبهاً بالأرستقراطية اليونانية فى أثينا. وأظهرت ماجى موهبةً غير عادية فى التقاط روح اللغات، وأضافت لها- حين التحقت بالجامعة- اللاتينية. ورغم هذا الحرص من جانب ماريا على التأكيد على الثقافة الأجنبية، وإضفاء تميزات كانت مشروعةً فى ذاك الوقت، فلم تستطع أن تزحزح ماجى عن الانتماء للإسكندرية، لا إلى غيرها. لم تعجبها هشاشة وضع أخوتها الأكبر، الذين فضلوا- بسبب أحلام أمهم- الطفو فوق سطح المجتمع، بدلاً من غرس جذورهم لتتمسك بالتربة، كما أراد باولو الذى بذل

محاولات صادقة للذوبان فى المكان.

أدركت- وهى تسمتع إلى أحلام جدها وجدتها بالعودة- أنها قصة وهم يتمسكون بها لتعينهم على تمرير آلام الحنين. أمل يجترانه دون قصد حقيقى، بعد أن فقدوا أثر عائلتيهما هناك، وتفرق العدد الأكبر منهم فى القارات الخمس، ولم يعد لديهما عنها غير ذكريات طفولة وأوجاع غربة يرددانها، كأثر لماضٍ مفقود.

قال لها جدها ديمتريوس يوماً: كنت أبدأ الإحساس بافتقاد الإسكندرية لحظة أن تطأ قدماى ميناء أثينا، وأعد الأيام الباقية على عودتى إليها. أفتقد بيتى، وعملى، والناس، وسحرها؛ وحين أصلها أبدأ فى التعلق بأمل جديد لرحلة أخرى، تحملنى إلى اليونان. عشت معلقاً بين المدينتين، لكنى ما فكرت أبداً فى غير الاستقرار فى الإسكندرية. واليونان تسكننى أينما أولى وجهى: قرَّب الجرامفون جزيرتى من بدنى، وألغى النبيذ- من دانة كبيرة محاطة بالقش- المسافات. وحين يحين موعد الرقص، أترك كل أحزانى، وأدق الأرض بقدمى، وأغنى بصوت كل يونانى ترك جزيرته واعتلى مركباً. أعرف لماذا أصواتنا خشنة؛ لأنها ترد على الريح وهى تضرب صخورنا بقوة؛ وقبل أن تهرب، نسجنها نحن فى صدورنا، ونخرجها وقت أن يطغى علينا الحنين. كل واحد منا يا ابنتى احتفظ بالريح فى بدنه.. ريحنا التى تشبهنا ولا تشبه سوانا.

تتذكر ماجى جدها فتملأ عينيها الدموع. تراه وهو يرحل عن حبيبته مضطراً، بعد قرارات التأميم والتمصير. لم يخرج فى الأفواج الأولى؛ قاوم كثيراً، لكنه أُجبر فى النهاية. لم تقابله أبداً.. مات لحظة أن لمست قدماه أرض الجزيرة بلا عودة. سرحت عيناه وراء الموجة

التى لفظته إلى حيث عاش حياته، واعتلت روحــه الأمــواج عــائدةً إليها، حيث حلم دوماً بالدفن فيها...

استطاع أبو ها البقاء فى الإسكندرية سنوات، بعد أن أوجدت لـــه السفارة عملاً متصلا بها، ومنحت أسرته إقامةً مؤقتة، رحل أثناءهــا اثنان من أخوتها إلى ايطاليا، ثم لحق بهما الجميع فى النهاية.

التم الشمل فى نابولى، بعد أن وصلت إليها جدتها لأمــها. لكــن ذلك لم يُشعر ماجى بهويتها الجديدة، ولم يدفعها للتخلى عن التصميــم على العودة إلى حيث نشأت. درست علوم التاريخ والسياسة، بتشــجيع من باولو، لكى تعمل بالسلك الدبلوماسى. ونجحت فى الالتحاق بفــرع شركة سياحة تفتح توكيلاً لها فى القاهرة. وصلت إلـــى الإســكندرية حبيبتها وسط فوج قادم من اليونان من "جمعية اليونانيين المصرييـن"، وآخر قادم من روما من "جمعية الإيطـــاليين المصرييــن". اســتقلوا جميعًا أتوبيساً ضخماً لنقلهم، غنوا بلهجة متعثرة:

اقروا الفاتحة لابو العباس .. يا اسكندرية يا أجدع ناس

حتى تعبوا، ودخلوا المدينــــة فـــى صخــب. توقفــوا أمــام فنــدق المتربوليتان.. اتفقوا على ترك حقائبهم والراحـــة. تــأملت الفنــدق، لاحظت تراكم الزمن وزحف الظلام إلى ردهاته وصالاته، ثم تبخـــر إحساسها بالقدم لجظة أن سمعت صوتاً يونانياً. احتضنت صاحبه فـــى نزق رغم أنها لا تعرفه.

انفرطوا إلى الشوارع والأزقة، يبحثون عن عناوين قديمة، عـــن رحيق النشأة وعبير سنوات العمر الضائعة. هزتها الملامح، وشـــرخ صوت الكلام صدرها مفتتاً قلبها. تتبعت اللهجة الاسكندرانية، ميَّزتها

عن غيرها وسط زحام شارع صفية زغلول. أرادت تقبيل كل إنسان رأته، مدفوعةً بألفة وحميمية كبحتها بأعجوبة، وهى تسأل نفسها إن كانت تعرفه أم تتوهم، هل خانتنى الذاكرة؟ كانوا جيراننا؟ رفاق دراسة؟ زبائن سوق؟ ما أروع هذه الوجوه! اسكندرانيون.. جاءت الإجابة كشفرة قاطعة..

انساب أعضاء الرحلة فى وسط المدينة يتلكأون أمام المحال، يصرخون: هذا سانتا لوتشيا، هذا ينى البقال، والسينما مازالت فى وسط الميدان، نفس الشوارع وتقاطعاتها، نهاية الترام فى محطة الرمل. لم تتغير ملامح المدينة، لكن الشيخوخة طحنت أحياءها القديمة، هرمت مبانيها، تقلقلت مربعات البازلت التى كانت مرصوفةً بعناية تغطى أرض الشوارع، واعوجت عند التحامها ببندورة الرصيف المتآكلة، وبهتت ألوانها التى ميزت الأزقة. اختفت عربات الحنطور الكثيرة، وصمدت بعض شجيرات الياسمين الهندى، وإن توارت وسط الأبنية الجديدة الشاهقة.

انقسموا إلى مجموعات صغيرة دون تخطيط، والتحموا، وعادوا يتفرقون. اصطحب أحدهم زوجةً وطفلاً يزورانها للمرة الأولى. وجاء بعض الأصدقاء القدامى معاً. ريح أكتوبر المحملة بطيور السمان المهاجرة، ووقار استعادة أهل المدينة لها بعد رحيل المصطافين أضرم النار فى ذكرياتهم القديمة، ومنحها شباباً متألقاً معجوناً بالفرح والألم معاً.

توقفوا أمام كازينو "إيليت" الذى يفترش اللسان أمام سينما مترو. ظهرت صاحبته "كريستين" على الباب، موفورة العافية رغم أعوامها التى تعدت الستين، فى كامل زينتها وأناقتها، كما كانت دائماً،

وصدرها محمل بعقود من الأحجار شبه الكريمة. استقبلتهم بترحلب؛ كانت تعرف كلاً منهم وعائلته. احتفلوا معها بالعودة، ووعدوها أن يعيدوا الزيارة مرات، وحملوا سلامها إلى الأهل. غسلوا أوجاع الغربة بالدموع، وأعادوا تفاصيل كثيرة باهتة وبشراً رحلوا عن الحياة. وانهمرت الإجابات تتداخل مع الأسئلة محملةً بالأخبار الغائبة، وارتفعت صرخات الإمساك بمعلومة مفاجئة. طالبوها بغذاء مصرى يومى إلى أن تنتهى الرحلة.. ثم عادوا إلى الفندق، مؤجلين زيارة كل منهم لعنوانه السابق إلى المساء.

أخذت ماجى مفتاح غرفتها، بعد أن اطمأنت على الفوج بالكامل، وجلست فى الصالون أمام الحاجز الزجاجى، تتابع مرور السيارات فى شارع سعد زغلول باستمتاع. استدعت ترددها مع عائلتها فى المساء صيفاً على كازينو تريانون، والجلوس على مقاعده فى الهواء الطلق يتابعون الحركة، وعبورهم الطريق- هى وينى واستافروس، متماسكى الأيدى- لشراء الفشار من محطة الترام؛ سهرات أبيها الطويلة فى "كاليثيا" على البحر، وسهراتهم فى "سيسيل"، ومعاكساتهم لبائعى الفستق والسودانى، والأفلام التى دخلوها سراً، والجلسة المحببة لجدها هنا فى الشرفة فى نفس المكان، "ما أشد احتياجى لك يا جدى.. وما أشد سحر المدينة التى أعادتنى إليك".. مسحت دموعها، وانتبهت لدقات قلبها التى تتلكأ فى طريقها للظهور، ثم تعود للنبض بعنف، "كأنى واقعة فى الحب، هل يمكن لرجل أن يطلق فىَّ كل هذه السعادة والانفعال العاطفى والشوق، أم أن طغيان الإسكندرية على عواطفى أكثر عنفاً من حب رجل!!". تقدم منها شاب أسمر، له ملامح مصرية واضحة: عيون عسلية، وشعر بنى مجعد، وشفتان إخناتونيتان. تبينت تقاسيم وجهه قبل أن تسمع صوته:

- بعد إذنك، أخطأ موظف الاستقبال، وأعطاك مفتاح غرفتى..

لم تفهم. هزت رأسها وهى تنظر إليه، فأعاد الكلمات:

- أنا نزيل الغرفة المجاورة لك، مفتاح الغرفة معك رقم ٥ وليس ٦.

فتحت كفها لتجد مفتاحه، أعطته له، وهى تضحك بصخب. قامت واصطحبته إلى لوحة الاستقبال لتبدل المفتاح. قدمت له نفسها، فسألها عن إجادتها للغة رغم اسمها الإيطالى. حكت القصة أثناء انتظارها انتهاء الموظف من الحديث مع نزيل آخر. وأكملت تفاصيلها معه فوق درجات السلم، وهما يصعدان معاً دون الاستعانة بالأسانسير إلى الطابق الأول. وقبل أن تدخل غرفتها، سألته- إن كان غير مرتبط فى المساء بموعد- هل يقبل صحبتها للبحث عن بيتهم القديم..

- كنت سأتمشى على الكورنيش، أحب الإسكندرية فى أكتوبر.

= إلى السادسة، إذن.

تحركت بألفة معه ومع المدينة، كأنها ما غادرتها منذ عشر سنوات، تلتهم عيناها التغيير بشراهة، تهضمه، ثم تعيد أواصر المعرفة معه فى لحظات. قطعا شارع النبى دانيال، وانعطفا يساراً، تسللا بين الأزقة بخفة حتى وصلا أمام محل "ملك الحمام". أشارت إلى بيت جدها القديم.. حكت عن طفولتها، مدرستها، جدها ديمتريوس وجدتها كاترين، جيران الحارة وصديقاتها فى المدرسة، بيتها فى شارع كانوب الممتد بين كامب شيزار والابراهيمية. سينما لاجيتيه التى تعرفت فيها على يول براينر فى أدواره ومشيته الغريبة،

وكلارك دوجلاس فى "سبارتاكوس" الذى لم تنسه أبداً، فيلم "الفايكنج" الذى نبهها لموسيقى صاحبتها طول الحياة، تعيدها إلى أجواء الإسكندرية حيث سمعتها للمرة الأولى، سينما أوديون التى سُمح لها بارتيادها مع أخيها يانيس وحدهما للمرة الأولى، فاعتبراه حقاً مكتسباً بعد ذلك، ولم يفرقا بين أفلامها الجديدة وأفلام سينما لاجيتيه التى تعرض أفلاماً قديمة وفيلمين فى عرض واحد، أحدهما عربى لعبد الحليم حافظ وشادية أو فريد الأطرش وصباح وعبد السلام النابلسى وزينات صدقى. نسيته، وهى تحكى. تابعت وصف معاركها مع يانيس للوصول إلى الطابق الثانى فى الترمواى، والجلوس أمام الزجاج ليشاهدا المدينة من ارتفاع، رائحة الترمواى المميزة التى اكتشفا بعد ذلك أنها مختلفة عنها فى القاهرة أو روما، النادى اليونانى فى الشاطبى، الورشة فى العطارين..

زلزل كيانها خروج عجوز يونانية إلى الشرفة، رطنت معها كلمات كثيرة ودموعها منهمرة، قبل أن يصعدا معاً إلى شقتها. التقط خلالها كلمات ياسوس، كلاكلا، مولتوبينى، لاحظ أن كل ما فى الشقة ينتمى إلى الماضى؛ صور وشهادات، مفارش قديمة، خنقته رائحة الذكريات. اصطادت أصوات الفرحة العالية عجائز تجمعن على عجل، والتففن حولها دون أن يعرنه التفاتاً. لاحظ جفاف أجسادهن، والموضات العتيقة لملابسهن، شعورهن المصبوغة، فساتينهن القصيرة، اعوجاج قاماتهن، وتقوس سيقانهن. واكتفى بالصمت والانتباه لهذه الفتاة الجامحة المفعمة بالحب. تذكرته بالكاد وهى على وشك الرحيل. وهو يسحبها من يدها خارج الحلقة، قدمته لهن قائلة صديقى عمر من مصر، وله: عمتى كليا جارتنا، وعماتى ستافرولا، صوفى، مارسيل، مارتينا، وارينا، جاراتنا.. وأقرباؤنا.. وعمى

تيتوس. استطاع بصعوبة أن يصطحبها إلى الكورنيش، مرجئين زيارة بيتها فى شارع كانوب لليوم التالى. فكر بسرعة فى رغبته أن يراها فى الغد، وأراد الخروج من وسط هذا الازدحام العاطفى إلى قليل من الهدوء معها. أسعده قبولها لاقتراحه ببساطة، رغم أهمية الموضوع لها، كأنها اكتفت بجرعة عاطفية واحدة، مطمئنةً للحصول على غيرها فى الغد، بعد أن تهدأ. وتأكدت أن أية قوة على هذه الأرض لا يستطيع بطشها أن يمنع امتلاكها للمدينة.

مشيا دون كلل، فضًا حواجز المعرفة على مدى طريق طويل من السلسلة إلى المنشية، ثم إلى الطابية فى الأنفوشى. لم يعرف أنه نفس الطريق الذى قطعته أمها، وهى تناجى البحر أن يحملها إلى بعيد. استمع منها إلى تفاصيل حركة الأسرة بعد الرحيل من مصر.

وقبل أن يصعد كلٌ إلى غرفته، كان قد عاش معها اجتيازها لقصة حب وحيدة فاشلة. وانتبه إلى تعليقها "الجنس عنصر كاشف فى العلاقة، ترمومتر أصدقه فوراً"، وكأنه يتلقى معرفةً للمرة الأولى فى حياته. أخبرته أنها وقعت فى حب شاب بورتريكى درس معها الموسيقى، "لم تدهشني سهولة انسجامنا، نادتنى عناصر العالم الثالث التى تجمعنا، سمرة بشرته، عاداته وتقاليده؛ لم يكن أوروبيا، وهذا سحره الذى داعب مشاعر طفولتى. لكنه حين عاش معى فى ستوديو صغير، أثثناه معاً، ترك لى الحمام بعد الاغتسال دون تنظيف، وترك فوران قهوته فوق البوتجاز، وطالبنى لاشعورياً بأن أكون خلفه دائماً. لم نستطع الاستمرار، رغم أن علاقتنا طالت. حاولت تعديل سلوكه، لكنه لم يقبل المساواة، رغم معرفته بحجم عملى واحتياجى للدراسة والتدريبات الطويلة على البيانو.. انفصلنا وعدنا مرات، بقينا موسماً دراسياً كاملاً كأننا مربوطان بخيط سرى، كلما ابتعد أحدنا شده الثانى

إليه، نتقارب ونتراجع، حتى حسمت الأمر بالرحيل إلى مصر، مع أول فرصة وفرتها لى شركة سياحة تمتلكها صديقة يونانية مصرية واصلت علاقتى بها بعد الرحيل"..

لا يعرف لماذا أخبرها أنه بلا فتاة، ولكن فى حياته صديقة: فايقة، يربطه بها "الفراغ والاحتياج". نطقها بصوت هادئ خفيض، ولم تعقب. لم يعتد الإجابة على أسئلة أحد، أو الحديث فى الموضوعات الخاصة، لكنه أجابها عما طرحته دون تردد، ربما لشدة وضوحها، ورغبته فى ألا يكون أقل منها صراحة. كيف مر الوقت؟ كيف تنقلا بين الموسيقى التى تعشقها والأوبرات، وقضايا الدول ومعاركها، وماركس وفرويد، وأيضاً الصراع العربى الاسرائيلى؟ حكت له وقعٍ أحداث هزيمة ٦٧ عليهم جميعاً، "لم يكن موتاً لعزيز، لكن كان موتاً لقبيلة"، وكيف استقبلوا أخبار انتصارات الحرب فى أكتوبر "هل اشتركت؟" أجاب بأنه لم يكن قد تخرج بعد.

فى حقيبتها صورتان، واحدة لعائلتها مجتمعة، والثانية لجمالٍ عبد الناصر. بعد أن تتوثق علاقتهما فى اليوم الرابع، سيرى صورةً لها وهى طفلة تمسك بيد جدها ديمتريوس. وستقول له إنها أهم تذكارات حياتها، وستلتمع دموع سريعة فى مقلتيها، فيأخذها إلى صدره بألفة ألف عام وعام.

سيقطعان الأزقة الضيقة معاً فى كامب شيزار، وستختبئ منه بين البيوت فى ممرات سرية تنفتح على شوارع واسعة فى اتجاه آخر. وستركض فوق سلالم حجرية تقف أعلاها قائلةً "هنا نابولى تماما!". سيأكل معها فى مطعم يونانى، لا تزيد مساحته على عشرة أمتار، وجبات بيتية؛ وتقول هذه "تافرنات" اليونان. وسوف يتصعلكان

بعد رؤية فيلم فى سينما أوديون، ويتقبلان تحيات مسائية من نساء جالسات فى شرفات الأدوار الأولى من بيوت الشارع الحميم، ويقطعان درجات منخفضة إلى مكتبة كتب قديمة: من هنا اشتريت أول نوتة موسيقية، وأول كتب المعرفة العامة فى الآداب والتاريخ والسياسة. يأكلان معاً جيلاتى عند "رضا"، وتعلمه شراء البقلاوة ليأكلاها معاً بالجيلاتى، باعتباره سراً يونانياً تركياً، ويبحثان معاً عن صديقاتها، ويتوصلان ذات مساء إلى ميرفت، رفيقة طفولتها. يكتشف لحظة أن قبلها للمرة الأولى أنه عاش معها فى الإسكندرية، ولعب فوق رمالها، وسأل نفسه كثيراً إن كان يحق لأحد أن ينتزع منها من تربى على ترابها، ملقياً به إلى قارة أخرى لا يعرفها، ناسياً كل ما تعلمه فى حياته عن الإستعمار الأجنبي، والامتيازات التى امتصت رحيق الأبدان قبل ثورة يوليو؛ موغلاً فى الانقسام على نفسه وهو يطرح بسذاجة حقوقاً يراد بها باطل، فيقول أليس فقراء العالم هم فقراء العالم، يونانيين كانوا أم برازيليين، فاتحاً بهذا طريقاً متناقضاً، لو استمر فى التفكير فيه لدقيقتين على الأكثر، دون دخول ماجى فى الطريق، لكان اتخذ وجهة النظر المناقضة تماماً لدفاعه عن الأرض والوطن.

شعر أنه لا يستطيع الابتعاد عن هذه المرأة، أو عالمها الثرى. مد فترة بقائه ثلاثة أيام، بعد أن انتهت وقائع المؤتمر، حتى يرحلا فى وقت واحد، هو إلى القاهرة، وهى إلى الأقصر ثم أسوان، قبل أن تلحق به.

تجمع أعضاء الرحلة فى السادسة صباحاً أمام الفندق، فى انتظار الأتوبيس الذى سيقلهم إلى المطار، والشمس تتلاعب بخيوط برتقالية تنير حواف سحاب أكتوبر الذى يعبر سماء المدينة. حركة قلقة،

خطوات مترددة، حُمى أخيرة لاقتناص أكثر مشاهد ممكنة وجمعها في القلب والذاكرة. تدخل الحقائب جوف السيارة، وينهمك المنظمون في التأكد من وجود الجميع. يحكم السحاب قبضته على الشمس الغافلة، فتظلم السماء وتودع الفوج بقطرات دموع جاءت في وقتها. لم يكن حزناً ما سرى في قلوبهم، بل موجات من المحبة في أقصى استمتاعها ممتزجةً بلذة ألم، ومعرفة يقينية بأنها لن تكون الزيارة الأخيرة[*].

حمل عمر ماجي في قلبه إلى القاهرة، على أمل لقاء قريب؛ وهو مطمئن تماماً أنها سكنت عالمه، وأنه لا قوة في العالم تستطيع انتزاعها منه. ولم يعرف لحظة أن استقل القطار، تاركاً شفتيها كآخر ما لمسه في المدينة، أنه سيلقاها بعد أسبوع واحد، وأنها ستنتقل إلى شقته الصغيرة، وأن شهوراً قليلة ستمر قبل أن يعلنا زواجهما، بعد أن يتأكد أنها تحبه فعلاً، وأن اصطدامهما بهذه العواطف لم يكن وليد حالة حنين إلى البلد الذي نشأت فيه.

---

[*] رغم أن معظمهم ما استطاع الحضور مرة أخرى إلا بعد سنوات زادت عن الخمس عشرة، حين وصل إلى مصر مستشار ثقافي، شاعر ومؤرخ عمل في السفارة اليونانية يدعى **كوستيس موسكوف**. لم يولد بمصر، أو يقضي طفولته أو شبابه فيها، لكنه أحبها من التاريخ وعشقها من السياسة، واختارها ليعيش فيها السنوات الباقية له من العمر، ليرتاح بعد تاريخ حافل بالكفاح ضد الديكتاتورية وسنوات من الاعتقال. وقرر – بمساعدة صديقته ورفيقة حزبه، نجمة السينما العالمية ميلينا ميركوري، وزيرة الثقافة في ذلك الوقت – أن ينعش العلاقات بين البلدين، ويعيد الشباب لجمعية المصريين اليونانيين في أثينا وفرعها في ثيسالونيك، وأن يتحدث عن مصر باعتبارها "جسدنا في أفريقيا".. عاد معظمهم في رحلات سنوية منتظمة في شهر أكتوبر مع مهرجان ثقافي يجمع بين الحضارتين، تخليدا لذكرى الشاعر السكندري اليوناني كفافيس، وعاد بعضهم – بعد أقل من شهر – بصحبة مؤتمر سنوي علمي تاريخي في الآثار عن الإسكندر الأكبر..

مع لقائهما اليومى، يكتشف أنها خليط من البراءة والطفولة والعفوية معاً، وفى لحظة أخرى هى ذهن منظم متقد، تربية حزب شيوعى، قادرة على التنظير والجدل. لم يستغرقا وقتاً طويلاً كى يكتشفا أن ما يجمعهما- رغم عدم انتمائه الحزبى لأى من أحزاب اليسار- هو نظرة أشمل وأعمق. كانت فكرة الالتزام الحزبى هى أكثر الأفكار إثارةً للجدل والمناقشة فى هذا الوقت، وخاصة فيما يتعلق بقضية الالتزام فى الفن والأدب. وكانت ماجى قد حسمتها- على المستوى النظرى والعملى- قبله بزمن طويل، فى حين توصل إليها هو بالحدس، أكثر مما بالمعرفة بطرح نظرى محدد.

لم يضعها فى مواجهة فايقة، أو يقارن بينهما، خاصةً بعد أن باعدت ظروف العمل بينهما؛ إذ نقلت فايقة إلى قسم آخر، وما عادت تراه إلا نادراً، وأصبح كل ما يربطهما هو الجسد. مع ماجى، النقاش مفتوح، مفعم بالحياة، فى الفن والسياسة والموقف من الحكومات. حملته على بساط ذاكرتها إلى دول كثيرة كان يتمنى رؤيتها.

كان الملل قد تسرب إلى علاقته بفايقة فى الشهور الأخيرة. كان قادراً على تصور الأحداث تماماً، فى توقيتها بالضبط، بل وتحديد الكلمات التى سيتبادلانها فعلاً. بعد أن يغلق الخط معها، محدداً موعد حضوره فى المساء، تقبله خلف الباب المغلق، ثم تصحبه وهى تلف ذراعها حول خصره، ويلف ذراعه حول كتفها، إلى مائدة مجهزة لعشاء ساخن، ثم كوب شاى. ستكون مرتدية واحداً من ثلاثة قمصان نوم يعرفهم، وستتخلص منه وهى تعد الشاى، ثم يدخلان إلى السرير يمارسان نفس الفعل، كما حدث فى الشهر الأول للعلاقة. سترقد مثل سلحفاة مقلوبة، وتستجيب لكل أفعاله، وستطلب أن يقوم بكذا وكذا، وربما تطالبه باستعادة الحب، إذا لم تكفها المرتان المعتادتان أو

الثلاث.. وسينطلقان محتشدين ليصلا قمة نشوتهما فى نفس الحالة التى بدآ بها.

مرة واحدة خالفت فايقة القاعدة، وأدخلت نظاماً جديداً عليهما، بفعل الصدفة وحدها. فحين مر عليها- ذلك اليوم- كان متعباً بشدة، كان قد استطاع أخيراً الحصول على سكن خاص، بعد التنقل المرهق فى الشقق المفروشة. دخل فى تجربة أولى للتعامل مع مشاكل العمال والتشطيبات، وقضى مشاوير إدخال الكهرباء ونقل المفروشات، ثم ذهب إليها فى حالة إعياء كامل. التحما على عجل، ثم سقط في نوم يشبه الغيبوبة، أفاق منه على أرجحة غامضة، ويداها تدفعان جسمه، وتقلقلانه من مكانه؛ سمع صوتها كأنه قادم من جوف بئر بعيد "قم يا رجل.. أكمل الواجب". قال: "حاضر"، ثم غلبه التعب فغرق في النوم من جديد. عادت لإيقاظه، فطالبها بالهدوء وتأجيل ذلك إلى الصباح، واستغرق فى نومه، ليصحو على صوت بكائها، وهى تردد "هل تذلنى ؟!". انتبه مذهولاً للفكرة، وتعلم سؤالها بعد ذلك إن كانت قد اكتفت..

كان فى داخله يبحث عن امرأة، لا عن أنثى. ولم تعد فايقة ترضى جسده، رغم أن خبرته فى التعامل مع الأنثى لم تتعد ما حدث بينهما. لكنه - بحكم ثقافته وحركته- كان يعرف أن عالماً آخر موجود وعليه اكتشافه. وكان يعرف أن فايقة، بحكم سلبيتها واستسلامها له، تحقق أعلى درجات النشوة لرجلها كما تفهمها، لا كما يشبعه، دون أن يعرف صورةً أخرى يستطيع توصيلها لها..

بعد عودته من الإسكندرية، ذهب إلى فايقة بحكم العادة، مشوش الفكر، ملولاً، وضجراً. كان قد أجل زيارتها عدة مرات، بسبب قلق

اعتراه، وذبذبة نقلته من الساخن إلى البارد ذهاباً وإياباً، فتقلب مزاجه بين فرح زاعق واستبشار وبين كآبة بلا جذور. استقبلته في حبور واندفاع أشعراه ببعض الندم لدقائق، دارا في فلكهما حول نجم الجسد، حتى همدا؛ سحب سيجاره وأشعله، وهي راقدة بجواره مستسلمةً للذة السكون بعد الهدير. عرف، وهو يلملم مشاعره من شتات، أن شرخاً قد سرى بينهما. لم يحدد مكان ماجي بالضبط في حياته، أو يجزم بنجاح علاقتهما الوليدة؛ لكنه كان متأكداً من أنه يريد رؤيتها والبقاء معها طوال الوقت. تأمل فايقة "مرتاحة، هانئة، أحب عرامة جسدها وفورانها، وكل هذه الرغبة". ماجي تعطيني مشاعر أخرى، حتى الآن لا يلعب الجسد فيها أي دور ذي بال. فهل أستطيع الاحتفاظ بالمرأتين؟ أم أنني حين أمارس الحب مع ماجي، سأبحث عن وسيلة للاختفاء من حياة فايقة..؟ كيف سأخبرها، ماذا سيكون رد فعلها؟ لم أخدعها، ولم أعدها بالزواج، لكنها ابنة بلد مصرية، أعطتني ما تتصور أنه أغلى ما في حياتها، فكيف أبتعد دون أن أجرحها؟!

في المرة الأولى التي لمستني فيها ماجي، فاجأتني خبرتها. تعاملت مع جسدي برغبة حقيقية في الاستمتاع، وليس مجرد إمتاعي. وانعكس هذا الشعور على تنامي إحساسي بجسدي وجسدها؛ علمتني- في أيام قليلة- أن الوصول إلى النشوة ليس غاية احتدام الجسدين، لكن الرحلة إلى هذا الهدف هي أصل الاستمتاع. عرفت معها أبجديات جديدة، أولها قدرتها على التعبير عن رغباتها، لا بطلب فعل أقوم به، بل بالتعامل المباشر مع جسدي ودفعه لتحقيق إرادتها. لم تخجل من فعل الحب، أو تخشاه، أو تضع حواجز من أي نوع؛ امرأة أخرى بثقافة مختلفة. وكان هذا متسقاً تماماً مع آرائها التي تقاتل من أجلها، وهي تحكي معي عن شعرائها المفضلين: نيرودا، ناظم

حكمت، داريل صاحب"رباعية الإسكندرية"، أونجارتى العظيم- كمـــا تقول، أو وهى تبكى حين تصف لوحة الجيرنيكـــا، أو تعـــزف لـــى نغمات موزار "العبقرى" كما تسميه، أو تغنى على أنغام ثيودراكـــس، وترقص الدبكة اليونانية الشهيرة.. لم يكن تخيلاً لأفكار وإبداعات، بل كان فعلاً وواقعاً حقيقياً تعيشه، كما تعيش حالة كونها مصرية، رغـــم جنسيتها الإيطالية وأمها اليونانية، وأخواتها الذين يرطنـــــون بلهجـــة اسكندرانية متعثرة..

خيط لا أستطيع قطعه. تحملنى قدماى إلى فايقة، أمـــــارس دور زوج يتحرك بآلية، دون أن يسأل نفسه إن كان يســـــتمتع بـــالفعل أم يلعب دوراً مقدراً له. لم تعد المرأة الشهية، التى كان جسدى يدفعنـــى دفعاً لملاقاتها، تثير فيَّ غيرِ الشفقة. لحظة إدراكى لما يربطنـــــا الآن أثارت داخلى رغبةً وحشيةً فى اجتياحها بطعنـــــات ســـريعة قويـــة، حفزتنى لها آلاف الخيول التى شعرت أنى أقودها، ورحـــت أحســـها تركض معى وتركض، حتى شعرت أن الغرفـــــة معبـــأة باللـــهاث. ارتديت ملابسى بسرعة، وخرجت إلى الشارع وأنا ألهث، ورأســـــى مدفون فى ماء..

فتنتنى لحظة أن رأيت أصابعها تتحرك فوق أصـــــابع البيـــانو، تمسها كأنها تخشى جرحها، لتعود تباغتها بضربات خاطفة عنيفـــــة. صراع محموم بين أصابعها العشرة وأصابع البيانو السوداء البيضاء. تركت جسدها يتمايل، وروحها ترفرف وهى تســـتقبل الـــهواء فـــى صدرها، فينتفخ ليلقى بزفير يؤدى إلى جَزر جســـدى، فيبتعـــد عـــن الجهاز الأسود وهو يتنفس النغم. فرقة باليه كاملة تتحرك فوق أصابع البيانو، وماجى تسبح بعيداً، كأنها جمعت البحر بهدوئه وعنفوانه فـــى قبضة هذه الأصابع، التى لم أكن أعلم كم هى حزينة، لأنـــها أبـــداً لا

تستطيع امتلاك الصوت الذى تبحث عنه. يـــا امرأتـــى، غـــافلتنى.. وتسللت فى زمن بلا زمن، فأحببتك.

نسيت فايقة، حتى وجدتها فـــى مكتبـــى ذات صبـــاح موجـــع. استعرت صراحة ماجى، وأخبرتها أن النهاية قد حلـــت؛ فســـألتنى- والدموع فى عينيها- إن كنت قد اتخذت قرارى بالرحيل عنها، قبـــل رقادى معها فى المرة الأخيرة ؟! قلت: نعم..، ولـــم أعـــرف ســـر السؤال.

اعتادت ماجى- منذ وصولها إلى القاهرة- أن تمر بى بعد انتهاء فترة عملى، لننطلق معاً إلى المدينة، لا تخشى استفسار أصدقـــائى أو تصوراتهم عن وضعها بالنسبة لى؛ بل تقدم نفسها إليهم ببساطة، دون معلومات عما يربطنا. نسهر فى المسرح، أو نمر بمعـــارض الفـــن التشكيلى، أو نجلس على مقهى، حيث تجمع المثقفين ونقاشـــاتهم، أو إيزائيفتش التى كانت مولعةً بها، لأنها تطل على ميـــدان التحريـــر، تجلس ساعات طويلةً وراء الزجاج، تشاهد عرامة الحياة والناس.. لـم يزعجنى حديثها عن رجالها السابقين، كمـــا تســـميهم. حكـــت عـــن رومانسية العواطف فى الصبا مع فتيان الجـــيرة فـــى الاســـكندرية، وأخبرتنى- وهى غارقة فى فرح الذكرى- عن أول خطاب غرامـــى تلقته، وهى فى التاسعة، من صبى فى الثانية عشرة اسمه هاشم، قـــال لها "أريد أن تكونى حبيبتى، ونتزوج !"؛ "كنت أنتظره بشـــغف فـــى حوش المدرسة، لكنى رفضت بشدة أن يكون صديقى الوحيـــد كمـــا قال. كنا نتعاند ونصفو، ونعود نتعاند. فى عيـــد ميـــلادى الخـــامس عشر، قدم لى فتاةً رائعة الجمال، باعتبارها حبيبته. أغاظنى، لكنـــى رفضت أن أكون له كما تخيلنى. ظل يراسلنى بعد الرحيل، وطلبنـــى للزواج بعد تخرجه، رغم أنه لم يرنى طوال هذه المدة.. أحببت رقـــة

مشاعره، لكنى نفضتها بسهولة، وأنا أنمو. وكنا نتصور فى صبانا أن حياتنا ستنتهى إذا ما افترقنا.."

لم تشعر بخجل أو ندم وهى تنتقل إلى الحديث عـــن رومـــاريو البورتريكى، الذى عاشت معه سنوات الجامعة، ثم تتذكر غيره فجـأة، "كاد هرقليس أن يكون فتاى، لولا تغير فى تقديرى فى آخر لحظـــة، حين تأكدت أن مزاجه نارى، وأنـــه يصـــدق ميراثـــه للأســطورة، ويتعامل بالعنف فى كل شئونه. كان يتحرش بى، لكنى لم أنم معـــه". وضوح وبساطة أسلمانى لحالة أظن أنى كنت سأتعامل بغيرها مع أية امرأة تجيد التصنع، وإخفاء علاقاتها الســـابقة بالرجـــال، وتظـــن أن البراءة المفتعلة هى كنزها الذى تحرص على اســـتعراضه بمناسـبة وبغيرها. لم أشعر بغيرة، وسألت نفسى: لماذا؟ ولم تكن تشعر أبـــداً بخزى أو ندم، أو اختراق لقواعد مبدئية ثابتة، بل أحست أن تجاربـــها هى حقها فى الحياة. وأعترف أن خبرتها السابقة بالرجال أمتعتنـــى، ليطوف بذهنى سؤال عن حرص الرجال فى الشرق على امرأة بكـر، جاهلة.

هذه المرأة، التى قطعت ذات يوم عهداً على نفسها بالعودة لـــهذه الأرض، عادت لى، وأنا أستحقها..

"عزفتُ فوق خشبتها وأنا فى التاسعة"، من بين دموعـــها أمـــام ميدان الأوبرا المحترق الفارغ، خرجت الكلمـــات. "حضـــرتُ مـــن الإسكندرية للمشاركة فى مسابقة كانت تجريها وزارة التربية والتعليـم كل عام. كانت المنافسة شديدة بين مدارسنا ومدارس القاهرة. عزفـت عزفاً منفرداً كان حدثاً فى ذلك الوقت، واشتركت بالتمثيل مع فريـــق المدرسة المسرحى، وحصلت علـــى الجـــائزة الأولـــى للموسـيقى.

انبهارى بتصميمها، وبنائها، بــألوان ســتائرها المخمليــة، ونقــوش جدرانها الذهبية دفعنى للقتال من أجل مستقبل موسيقى، رغم حــرص أبى على متابعتى لدراسة مواد تؤهلنى للعمل فى الخارجية- "هذا هـو الطريق الوحيد للعودة إلى مصر"- يقول.

تأقلمت أمى مع الحياة فى إيطاليا بصعوبة، أضناها الحنين إلــى الإسكندرية؛ لم نكن لنصدق كل هذه الآلام التى تكبدتها فى إحساســها بالغربة، رغم حلمها طوال العمر بالسفر عنها. الكل كــان يدفعنــى لتحقيق الأمل فى العودة. تيتو ابن ميخائيلينودس، صــاحب المطبعــة فى العطارين، عاد إلى مصر متخفياً فى مركب شحن. وبعد شهرين، قبض عليه ورحّل. حصل على منحة دراسية بالجامعــة الأمريكيــة، فلما انتهت المدة عاد إلى إيطاليا، ثم وصل مصر سائحاً، وبقى بعــد انتهاء الإقامة المؤقتة، ورحّل. قدم عشرات الطلبات، طوال الأعــوام السابقة، للحصول على الجنسية، رفضــت كلــها. قــالوا لــه فــى الجوازات: لدينا ما يكفى من بشر، ابحث عن مكــان آخــر. يقــول أحبها، ويعود؛ حتى أصبح جواز سفره فضيحة. رأيته فــى إحــدى مرات عودته الإجبارية هذه، لا يستطيع الوقوف من شــدة المــرض والإرهاق. كاد أن يهلك من مغامراته، لكنه عاد أشد تصميمــاً علــى القتال من أجل العودة. لا أدرى ما هو ذلك السحر الكامن فيــها، ولا يدهشني تصرفه.. أحمد الرب، لقد عدت أخيرا لها"..

دعوتها إلى الغداء فى بيتى، خرجنا معاً مــن مقــر شــركتها، ودخلنا سوق التوفيقية. اشترينا مأكولات، فاصلت وقلّبت فيها بخــبرة لا يستهان بها. وحين رأيتها تتحرك بطبيعية فى المكان، لم أســتطع الانتظار: أمرتها- مثل أى رجل شرقى يأمر امرأته بحزم- أن تذهب معى لتحضر حقيبتها من الفندق، لأنها ستعيش معى..

أزمـــة

أحبها بصمت منذ وقعت عيناه عليها. زاملت أخته في الدراسـة؛ لفت انتباهه ثقتها الشديدة بنفسها، ومرحها. انتظر حتى أوشكت علـى التخرج، وفاجأها بالتقدم إلى أبيها للزواج منها، دون أن يقـول لـها كلمةً واحدة. استفزها هذا، فسألته حين تركهما الأب منفردين:

- لماذا لم تعرض الأمر على صاحبة الشأن؟

= أعرضه بطريقتى المباشرة، لا لزوم لكى أستوقفك فى الشارع لأطلب منك الزواج، أو أنتظر زيارتك لأختى لأفرض نفسى عليك.

رفضَته دون نقاش، قالت إنه يريـد أن يكمـل صـورة البيـت بعروس؛ أى عروس أخرى كانت ترى فيه نموذجاً راقياً لشاب جـاد يعجبها نظامه، وهدوءه، ووصوله لأهدافه دون ضجيج، وأيضاً حـب عائلته له. إعجابٍ عـام عليٍ مسـافة من القلب لا يخربش جـداره. كانت تريد رجلاً أكثر حرارةً وجرأةً، يكسر النظام وينـتزع أشـياءه بيديه، لا يلقى تحتها بدلو ماء لتطفو ثم يلتقطها. كـانت قـد أغلقـت مشاعرها على وهم الحب الأول الذى لن يتكرر، "لا يحب المرء حباً

حقيقياً إلا مرةً واحدة، وقد أحببت وفشلت"؛ وانحصرت أحلامها في بعثة علمية.

دعاها إلى عشاء من خلال والدها أيضًا؛ لا تعرف لماذا استجابت؟ أهو الفضول؟ أم تشجيع الأسرة؟ أم الملل؟ أخبرها أنه يحبها، وأنها مُحقة في رفضها؛ لكنه يستحق أن تمنحه فرصةً حقيقية، وأنه على استعداد لانتظارها إلى أن تعرفه عن قرب. تسلل إلى حياتها بدأب، دون كلل، حتى وجدت نفسها تتساءل ذات صباح:

- أأتزوج الرجل الذى يحبنى، أم الرجل الذى أحبه؟

موافقتها على الزواج قطعت الطريق على كثير من أحلامها، وغيرت مجرى حياتها؛ إذ كان عليها اللحاق به في سفاجا حيث يعمل؛ وكانت قد لقنت منذ طفولتها المبكرة أن الزوجة تتبع الزوج أينما يولى. رحلة قطعتها مع أبيها ضابط الشرطة الذى ينتقل مع كل نشرة تنقلات إلى مدينة، وتنتقل الأسرة بكاملها معه. لم تعرف كيف ستوفق بين الدراسة والسفر، لكنها لم تيأس. كيفت حياتها وفق الممكن.

فضَّلا تأجيل الحصول على شقة فى القاهرة إلى ما بعد انتهاء "التكليف" فى سفاجا. فاجأتهما القاهرة بأزمتها بعد فترة بسيطة من زواجهما. لم يشعرا بعمق المشكلة أثناء العطلات؛ كانا يتنقلان بين بيتى أهليهما، حتى إذ أصبحت العودة ضرورة. قررا أن يدفعا كل ما يمتلكان ثمناً لشقة، لكن أم مصطفى عرضت عليهما إعادة بناء بيت العائلة:

"نبنى شقةً أولاً.. ثم نستكمل البيت حين نستطيع". جمعا كل ما

لديهما من مدخرات، وسددا قيمة ميراث الأخوة والأم، وأكملا البناء. لم تتغير عادات الأسرة التى تحلقت حول الأم. كان مصطفى يشعر بالامتنان لإخوته لرعايتهم لأمه. لكن عودتهما من سفاجا جاءت كالصاعقة على العائلة التى رتبت أحوالها على عدم وجودهما فى البيت، فيما كانا مبتهجين بتجمع العائلة؛ كانا متعطشين للدفء بعد سنوات الاغتراب فى مدينة صغيرة. فلما انتهى الصيف ودخلت مها المدرسة، واستلمت ناهد عملها فى هيئة الآثار، كشفت المشكلة عن نفسها، إذ لم يجدا بيتاً. كان أشبه بسوق، أو نقطة التقاء لعابرين فى محطة للنقل. لا يعرفون من سيأتى ومتى، ومن سيبقى، وإلى متى. لا خصوصية، لا راحة، لا مكان لاستذكار دورس أو كتابة أبحاث، أو انفراد لالتقاط الأنفاس اللاهثة، أو نوم القيلولة. اختفى النظام الذى أثمر فى سفاجا نجاح مصطفى فى عمله، ونمو ناهد الدراسى.

حاولا احتواء الأمر فى البداية، على أمل أن تنشغل كل أسرة من إخوته بعالمها مع بدء الدراسة؛ لكن الأمر ازداد سوءاً ما بين أطفال ارتبطوا بمدارس قريبة وتأتى الأمهات لاصطحابهم فى المساء، وزوج أخت مقيمة فى المنصورة يضطر للبقاء فى القاهرة ضمن دورة تدريب ثلاثة أيام فى الأسبوع. تتجمع الأسرة حول التليفزيون فى صالة المنزل حتى الثانية صباحاً، ويطالبون ناهد بإعداد المطبخ لتقديم وجبات طوال الأربع والعشرين ساعة.

اكتشفا ضياع حريتهما تحت وطأة الحياة الجماعية غير المبررة، واضطرارهما لارتداء ملابس مناسبة قبل عبور عتبة باب غرفة النوم، وعدم استطاعتهما الحديث إلا همساً خلف جدار لا يستر أحدًا أو شيئا. حل التعب علي جسديهما معاً، وأصبحت رؤيتهما لسيارات الإخوة أمام البيت كفيلةً بإثارتهما قبل أن يدلفا إليه. ثم تسبب حادثان

بسيطان في تغيير مجرى حياتهما؛ إذ- ذات ليلة- صحت ناهد من النوم فزعة من صوت فى الغرفة. سألت:

- من ؟

أجابت صوت أم مصطفى أمام دولاب الملابس:

= احتجتُ مبلغاً، والنقود كلها فى دولابك!

استيقظ مصطفى مندهشاً يحاول استيعاب الموقف، وهو ينظر إلى ساعته التى تشير إلى الخامسة صباحاً. قالت ناهد، وهى تدارى جسدها العارى:

- نقود الآن ؟

= نعم .

أكملت الأم مهمتها وخرجت، وراحت ناهد تبكى صامتة.

أما الحدث الثانى، فكان سفر أخته إلى قبرص فى إجازة بصحبة زوجها، وتركها لأطفالها الثلاثة فى البيت دون أن تخبرهما . فاجأهما وجود الأطفال، ومسئوليتهما الإجبارية عنهم. وحين سأل مصطفى أمه لماذا لم تستأذنهم قبل سفرها، حتى من باب اللياقة، قالت:

- من حق ابنتى أن ترتاح بعيداً عن أطفالها، وقد تركتهم لأمها وليس لكما.

= وجودنا معك يحتاج إلى نظام آخر. أريد بيتاً أتمتع فيه بحريتى كما يتمتعون بحريتهم فى بيوتهم. ويستطيع الجميع زيارتك يومًا واحدًا فى الأسبوع.

قالت بهدوء: لماذا لا تعود إلى حيث كنت، وتجمع مبلغاً آخر من المال يكفى لبناء طابق آخر، أو تبحث عن إعارة إلى بلد عربى؟ أنا لا أستطيع الحياة دون أبنائى.

= لماذا تركتنى أدفع كل ما أملك، وأشترى نصيبك ونصيب أخوتى؟

- لم أتخيل أنك لن تحتمل إخوتك.

لاحظا- بعد هذا النقاش- أن كل ما يحدث حولهما كان مقصوداً، وأن التفاصيل- التى كانا يتصورانها مجرد اختلاف فى العادات- كانت مدبرة لكى يتركوا البيت، أو يتقبلوا الأمر الواقع.

خرج إلى الطريق حاملاً أمتعته، مصطحباً زوجته وابنته، لا يعرف إلى أين. فى سلسلة مفاتيحه مفتاح لشقة صديق، كانوا يجتمعون فيها للمذاكرة فى سنوات الدراسة. يعرف أنه انتقل إلى غيرها للزواج، ولا يعرف إن كان قد احتفظ بها أم لا. اتصل به فأخبره أنه يستطيع استعمالها حتى يرتب أحواله.

حاولت ناهد مناقشته فى قراره بترك البيت لهم، وهو كل ما يمتلكون.

قال: هى أمى، وهؤلاء إخوتى.

- لماذا لا تتفاهم مع أمك أو أخيك الأكبر لشراء البيت؟ لديهما من المال ما يكفى لشرائه، ونحصل نحن على بيت آخر؟

= أنا المسئول عن الخطأ، وسأدبر حالنا.

كان قد دخل فى نقاش آخر مع أمه، عرض عليها الفكرة فطالبته

بالاقتراض من عائلة زوجته لكى يبنى طابقاً ثانيًا، لكنه رفض. ولم يجد مفراً من الخروج من البيت الذى تحول إلى جحيم، دون أن يخبر ناهد بموضوع النقاش.

لم يستطيعا تغيير مدرسةٍ مها سنةً كاملةً، تناوبا اصطحابها من كوبرى القبة إلى عابدين يومياً. وكان يوم مطير واحد- يضطرب فيه المرور- كفيلاً بإثارة ناهد، وبعث سؤالها الملح: إلى متى نعيش فى مخزن، ويتمتع غيرنا ببيتنا؟

لم تغفر له استمراره فى التجارة مع أخيه الأكبر، وارتباطه بعجلة العائلة التى لفظته بقسوة. بنى الموقف بينهما ساتراً، لم يستطع تخطيه؛ ساتر غذته متاعب الحياة اليومية فى بيت ضيق خنق العواطف. ولم يشفع له حنانها الذى أغدقته عليه فى كسر الحاجز. كان حناناً مُراً يذكره بضرورة استعادة بيتهما، وعدم قدرته على انتزاع حقوقه.. أثاره صمتها.. بكاؤها، كما أثارته أحلامها، وتحطم فى داخلها المعنى النفسى للحماية. لم تعرف مَن يحمى مَن. التفت حوله تحميه من الانهيار، وتدفعه إلى العمل حتى غرق فيه تماماً، تاركا مشكلته للزمن يحلها، إلى أن فاجأته الأم بالرحيل، قام ببيع البيت دون أن يخبر ناهد، واشترى أرضاً جديدة فى الهرم بالقرب من عملها، بناها بسرعة، ونقل عائلته.

تمـــاس

تابعته بعينين ابتسمتا لمفاجأة ظهوره أمامها، عابراً الممر الضيق الذى يفصل جانبى المحل. صدفة دخولها لشراء نـوع خـاص مـن البطاريات جمعت بينهما. تركته يتحرك تحـت مراقبتـها، تـابعت اختياراته حتى انتهى من الشراء، دون أن يفلت من ساحة بصرهـا، فتوجهت إليه:

- هانى. كيف حالك؟

استوعب المفاجأة فى زمن شعرت ببطئه، وهو يمد يده ليحييـها؛ لكنه كان كافياً لتحسب كم مر من السنوات منذ آخر لقاء لـهما. "مـا أعجب ما نعيشه"، رددت دون أن تشعر بهزة داخلية كانت تتوقعـها فى خيالها، كلما تصورت لقاءهما. لم يقلقها عـدم حدوثـها، لفتـها طمأنينة الواثق من نفسه، وثباته المعتاد أمام المفاجآت لم يثر غضبـها كما اعتادت فى زمن آخر.

عرفت منه فى الدقائق القليلة التالية أنه يسكن فى مبنًى قريـب، أشار إليه قائلاً إنه انتقل إليه بعد تخرجهما بسنتين، وأنه يعيـش الآن

مع زوجته وابنه نادر. احتفظ إذن باسم الطفل الذى أراده منها يومـــاً. "جميل"، رددت مرات. تبادلا أرقام الهاتف، وتواعدا على تدبير لقـــاء مع زملاء الدراسة قريباً. صعدت إلى السيارة، واختارت طريقاً أكـثر طولاً، لكى يمنحها مهلة خمس دقائق زائدة، تسترجع فيـــها لا أيـــام حبهما، بل الأيام التى مرت فيها بسيارتها أمام بيته القديـــم، تسـتطلع صدفة أن تراه؛ رغم أنها تعرف مكان عمله، وتستطيع أن تذهب إليـه فى أى وقت.

لم أكن جادةً فى لقائه. كان مجرد استدعاء لقصة حفرت خطـــاً حقيقياً فى حياتى، رغم أنه بُنى على وهم. لا، لم يكن ساعتها وهمـــاً، هذا الذى حدد مسار العمر؛ كان طفولةً لا غير. لماذا كل هذه السعادة التى لفتها لإدراكها أنها لم تتأثر بلقائه، ولشعورها أنه بعيد وغريـــب عنها؟ هل كانت تحتاج إلى كل هذه السنوات لتثبت لنفسها هذا؟ نعـــم، لأنها تستطيع مواجهة نفسها بالحقائق دون مواربة، ولأنـــها اعتـــادت حواراً داخلياً هادئاً منذ الصغر، اعتادت أن ترى جيـــداً. فحتـــى لـــو كانت القرارات التى تتخذها مضادة لرغباتها فقـــد اتخذتـــها بوعـــى كامل، على الأقل فى حدود إدراكها- فى تلك اللحظة- للعوامل التى تبنى عليها القرار.

أحبته، وتصورت أن خسارتها هذا الحب معناها خسارتها للحـب نفسه. "فالإنسان لا يحب حباً حقيقياً مرتين"، هكذا كانت تقول دائمًـــا. سذاجة ساعدت الظروف على ترسيخها كواقع، حين ضغـــط الأهـــل عليها لتقبل الزواج من مصطفى، الذى أحبـــها وانتظرهـــا ســنوات ثلاث. تبكى فراق هانى، وترفض أن تكون لغيره، ثم تترك الحـــزن ليرعى بحرية فى الأعماق دون أن تسميه، أو تجسده فى صورة هـذا الذى حين قبّل إصبعها- وهو يمسك كفها ذات صباح- دمعت عيناهـا

تحت وطأة المحرمات الكثيرة التى تصدقها ولا تريدها.

حسمت الأمر- فى النهاية- لصالح الإنسان الذى أحبها دون أن تستطيع أن تهبه قلبها، بعد أن روضت مشاعرها تجاه هانى، وغلفتها بحرص ووضعتها بعناية فى قرار مكين. تركتها فى بئرها، واكتفت منها بخيط الحزن الذى غزلت منه الحياة- بعد ذلك- نسيجاً رقيقاً شفافاً، يصعب رؤيته حتى على صاحبه، ونصبت منه فخاً للخيوط الأخرى التى أضافتها الخسارات التالية.

لم تكن ناهد تستدعى الخبيئة من البئر، بل كانت تجدها طافية أمامها، إذا ما قابلت صديقاً مشتركاً بعد سنوات من الغيبة، أو ردد أمامها جملة انحياز لعالم هانى. دون توقع، تراها وقد فكت شرائطها الساتان، وشرعت تتمطى بفجور مثل الفضيحة، فتلعن "الحب وسنينه"؛ وتشدها للنور، توسدها منضدة أمامها، وتبكيها بحرقة. تنتهى- بعد مشى طويل فى شوارع ودروب لا تعرفها- بالتصالح مع نفسها، والاعتراف بحقها فى الألم، بل الصراخ أيضاً؛ فتصرخ دون صوت، هي التي اعتادت الاختباء حتى من صوتها، ثم تهدأ وتعيد إحكام الشرائط حول الخبيئة، لتعيدها إلى البئر الذى سقطت فيه أقمار كثيرة، دون أن تضيئه.

لم يكن الاطمئنان هو رد الفعل الذى تنتظره فى سيناريو لقائهما المنتظر، الذى أعادت صياغته عشرات المرات فى عقلها، طوال السنوات الماضية. لكن الاطمئنان بعث راحة لفتها، فصدرت عنها ابتسامة عاقلة، كبديل غريب للصخب الذى اعتادت أن تقابل به زملاء الدراسة. كانت المعلومات عنه قد تسربت إليها عبر الأصدقاء؛ فعرفت أنه تزوج فى حينه، ووصلتها خطوات نجاحه

عملى كذلك، وانضمامه لمكتب منظمة دولية فى القـــاهرة. ورغـم مرارة هزيمة الحب، كما كانت تسميها، لم تحشد نفسها ضـــده أبـداً. "هو إنسان نبيل لكنه باهت، لماذا لم أر هذا من قبل؟"، جاء السـؤال منطقياً، لتعرف بحكم الخبرة التي تعمقت عن سن الثامنة عشـرة، أن ما باعد بينهما ليس ظرفاً خارجياً، بقدر ما هـــو تكويـن أدى إلـى التنافر، أو عدم التمسك.. "لم أجد أمامي ما أصر عليه"؛ حتى السـؤال الذى ظل يلح دون إجابة : لماذا؟ والذى توقعَت أن تسأله لـه بشـكل ما، وأن تسمع منه القصة كما عاشها، لا كمـا تصورتـها، لتعـرف حقيقة مشاعره المتناقضة بالضبط، لم يخطر ببالها فى هذه اللحظـة. "لم أعد نفس الفتاة"– نظرت فى المرآة، فرأت عينين خبرتا الدنيا.

لم يكن لقاؤهما التالى صدفةً، بل حدداه تليفونيـاً دون مواربـة. تصورت أن الطبيعى أن يجلسا معاً، ليتعرفا على ملامح الرحلة. ألـح عليها سؤال حين تصافحا بعد ذلك ليفترقا: "لماذا كنتِ محتشدة بـهذا الشكل لإثبات خطوات نجاحك؟ لماذا قدمتِ له امـرأةً جافـةً قويـةً، تسخر من التوقف أمام مشاعر المراهقة؟" تذكرت أنها حكت له أنـها التقت بصديق مشترك لهما صدفةً، وأنه أقحم اسمه فى كـل جملـة بينهما، ليدفعها للسؤال عنه. وعلقت على الواقعة بأن بعـض النـاس يعيشون فى أوهام المراهقة إلى الأبد! فلم يرد، "لماذا فعلـتِ ذلـك؟ افتراس محموم لإثبات الذات، من أجل دفعه علـى النـدم مثـلاً؟ أم محاولة تبرئة لما تعرفينه مثل شمس ساطعة؟"

طوت الصفحة. طوتها دون أن تعود به إلى أحلامها، ولم تـره أبداً فيها بعد ذلك. كانت أحلامها قبل هذا اللقاء وسيلةً داخليةً غريبـةً لتذكرها به، إذا ما نسيته فى زحمة الحياة: تراه كما كان، متردداً، لا يروى مشاعرها أو عقلها، يضعها فوق ميزان مختل لا يهدأ، تتقاذفـها

كفّته بين السماء والقاع؛ فإذا ركضت نحوه قابلها بابتسامة عاقلة، مكتوف اليدين؛ وإذا انتظرت، حملها وطار بها. أما فى أحلام اليقظة، التى كانت تتجسد أمامها إذا ضاقت بالجفاف الذى شقق مشاعرها، فكان يظهر لها- دون حسابات- مُحباً ملهوفاً عليها، كما أخبرها- ذات يوم- فى لحظة صدق حقيقية تمسكت بذكراها.

لم يفقدا الصلة بعدها. أزاحت السؤال الذى كان يلح عليها بعد جهد. عاودا الاتصال، وسعى كل منهما تجاه الآخر. جاء الجهد بسبب الحنين للمعرفة. حايلت أسباب الرغبة فى سؤاله عن الماضى بطرق مختلفة، وألبستها أثواباً منوعة؛ لكنها كانت تجد نفسها فى النهاية أمام سؤال وحيد: ماذا حدث؟ رغم أنها- فى زمن ما- كانت قد أدركت أنه لم يكن يحبها، أو- ببساطة أشد- أن تقديرها لهذا الحب كان أعلى كثيراً مما قدرته بعين الزمن اللاحق؛ تقدير كشفه لها قانون بديهى فى الحياة لم تكن تعرفه أو تصدقه ساعتها: أنه ليس بالضرورة أن يحبك الآخر بنفس الدرجة التى تحبه بها، أو أن يحبك على الإطلاق.

كانت العواطف التى تبثها- دفعةً واحدة - للناس تفتح أمامها القلوب مباشرة؛ لكنها لم تنتبه إلى أن فتحها ليس معناه أن تدلف إلى الداخل. لهذا تصورت أن عواطفه قد نضجت مثلما نضجت عواطفها، بعد اعترافهما معاً بالحب؛ وهو ما كان يذهلها بالفعل حين يتصرف كأن لا شيء يربطهما. نسجت هى مستقبلاً مشتركاً ولم يفعل؛ اكتفى بالحاضر الممكن حين يمتلك الوقت، وأعطى لحياته العامة ونشاطه السياسى كل الوقت. يحدد لها موعداً فى العاشرة ليلتقيا فى الكلية، ويأتى فى الثالثة، ثم يتركها لأمر هام بعد ربع ساعة، فإذا رفضت تحديد موعد آخر حاصرها الليل والنهار حتى

تقبل، ويخطفها عنوةً من بين الأصدقاء والدراسة، ويهرب بها، ليعـود لنفس الدائرة بعد أيام. على حافة القمة دائماً، وسط بوتقة من لهب، ثم إلى بحيرة من الجليد. لم تكن تستطيع ملاحقة هذا التغيير، أو التوقـف للاستمتاع بإحدى هاتين الحالتين، إن سلباً أو إيجاباً، حتى انتقل هـــذا إلى جسدها: حين يمر بجوارها، تحتشد بسخونة عارمة تـــهبط بعــد ثوان إلى برودة، لتعاود ارتفاعاً فجائياً شعرت به صديقتها ذات يــوم، حين كانت تستند بجذعها عليها، خلف مقعد فى الكليـــة، فصرخــت. فلما نظرت إليها بـــهدوء العـــارف المطمئـــن، انفجــرت صديقتـــها بالضحك، ولعنا معاً "الحب وسنينه". كان الحب الذى يفجــر بكـــاءً و فرحاً وجاذبيةً طاغيةً تتقلب فى ثانية إلى طوفان من الغضـــــب، ثـــم عودة إلى البحث المحموم عنه. الحب الذى أصبح بؤرةً يدور حولـــها الزمن والأحداث والعلاقات بالآخرين والآمال والإحباطـــــات. كـــان الحياة ذاتها.

سعادة لقائها به، دون أن تتقاذفها مشاعر حـــادة، أشـــارت إلـــى الطريق الطويل الذى قطعته، دون أن تنتبه إلـــى أن بعــض ثمـــاره تتساقط الآن فى حِجرها، وأن خطتها للوصول إلى أهداف أخرى قـــد غزلت على جرحها النازف أنسجةً حقيقيةً سدت فيه فجوات عميقـــة، وأن فتحه لم يعد بسهولة الزمن الماضى الذى أصبـــح بعيـــداً، حيـــن امتدت يده لتصافحها ببرود أو بتردد، أو ربما بعض الفضول، كمــــا تصورت. والنتيجة: أنها أمام شخص آخر، وأنها أيضاً آخـــر. لكـــن تربطهما صلة قديمة لم تربطها بغيره؛ تستطيع على الأقـــل أن تثـــق به- راودت نفسها- ربما ثمة حنين للماضى، لســـعادة عاشـــتها، أو لإحساس لم يتكرر أبداً.

حتى حين قابلت حب حياتها، بعد هذا بسنوات، مع عمر، لم تكن

نفس المشاعر؛ اختفت اللسعة الحادة الصاعقة لتيار كـــهربى، وحـل محلها انتفاض حقيقى لزلزال فى العمق، يصدع المتــاريس والأبنيـة التى تحاول الصمود، ولو بحكم الرغبة التاريخيــــة فـــى المقاومـــة. الفارق كبير بين التجربتين، حتى فى البهجة. فالأولى بهجة الفطـــرة والطفولة بلا جذور، رغم طغيانها وامتلاكها الكيان، بسبب الـــبراءة؛ لكن بهجة زمن عمر لها ثِقل آخر، إذا كان للإدراك ثقل فى الســعادة يجعلها أكثر عمقاً من ذلك التأثير الممتد بهدوء فى زمن هانى. حتـــى فى الخيال: لم تجرؤ مرةً واحدة على تصور هانى فى وضع أبعد من أن تضع رأسها على كتفه، وهو ما لم يحدث فى الواقع، فـــى حيـن تستطيع أن تغرق فى رغبة حقيقية فى الدخول بكافة أعضائها الحيـة والمعنوية إلى جسد عمر، "الجسد.. ما أشد طغيانه وجبروته، حتـــى على أشد المتحكمين فى النفس، والقادرين علـــى التعـامل بمنطـق الأخلاق"، تنهدت.

عادت إلى دفتر يومياتها، لتكتشف أنها- على الأوراق- كـــانت اثنتين، وأنها ببساطة أخرجت إلى الحياة قسمها العاقل فـــى مواجهـة قسمها العاطفى، وأنها عاشت تتقاسمها الرغبة فى أن توحدهما بـــدلاً من أن يظلا متخاصمين.. كانت قد نسيت- وسط علامات الطريـــق- يومياتها التى تسميها "الكتاب الأسود". مفاجأة أخـــرى كشــفتها لـــها قراءته بعين العقد الرابع من عمرها؛ ذابت آلام كلماته فـــى شـفافية المشاعر ورقتها، والتى عكست- دون أن تـــدرى- حـب الحيـاة، والعرامة التى تشكلها رغبة البقاء التى تمتعت بها تلك الفتــــاة التـــى كانتها يوماً. تحت عنوان "إلى بقيتى"، قرأت:

- الحنين إلى بقيتى يمزقنى.

= *هل تستطيعين استردادها؟*

- *اختلطت به، لا أستطيع أن أميزها عنه.*

= *كيف؟*

- *امتزجنا، ضاعت حدودنا، وعند الانفصال لم يستطع أى منا تحديد ملامح كيانه قبل الحب. ومع ذلك انقسمنا، اكتشفت بعدها أن أجزاء منه تسكننى، وأن لى بقايا عنده، يعذبنى حنينى إليها . يمزقنى.*

= *تخلى عما لديك منه .*

- *لا أستطيع. إنها ما تبقى لى، إنها ذاتى الآن.*

= *أنت لا تبحثين عن بقاياك. أنت تبحثين عنه هو.*

وخزتها لمعة ضوء، أعادت مشاعر السخونة والبرودة التى كان هانى يبثها فيها. جف ريقها، وتقاطرت دموع من عينيها، كأن الزمن الظل لم يبارح. كبحت سلطانه عليها، وراحت تقرأ. وكلما توغلت، ازداد ارتفاع الصوت، فغرقت فى الحروف دون الأفكار.

نشوة

- *كل شيء فى بدايته له نشوة كبيرة وفى نهايته كذلك.*

= *يعقبها؟*

- *حزن شديد، أو فرح كبير.*

= *وأنت .. دموع بعينيك.*

- لا ، لن تدمع عيناى بعد أن غرقت الآلام فى صدرى.

= صغيرتى.. إنها تطل من حواسك كلها. فلماذا إخمادها؟ إن دخولها الأعماق سيشعل حريقاً لن ينطفىء بسهولة.

- أعيش الآن راحةً مبعثها رماد الحريق.

= دموع الدخان هى؟

- للدخان أثر سيضيع مع الريح، ويصبح ذكرى. أتصورها الآن وكأنها تزورنى من مكان بعيد.. هل عرفت الآن من أين جاءت النشوة؟

طوت الصفحات بأصابع يؤرقها البرد. ومازال صوتها الذى توقف تتردد نغماته فى الفضاء حولها. وعثرت فى الصمت على وخزة حزن تتهجى اسمه على عتبة الذكريات.

لم يستمر هذا الاطمئنان طويلاً، إذ تسلل إليها شعور غامض بالسعادة واللهفة، حين جلسا ذات مساء أمام طاولة طعام وحيدين، فى مكان اعتادا اللقاء فيه. لم تكن مهيأةً لهذا التغيير، ولم يصدر عنه ما ينم عليه، لكنها خافت من أن تسكن نظراتها إليه سواد عينيه، وأن يدرك. لم تسمح لقلبها أن يعلن فرحه بتلقى إشارةٍ ما منه، وسيطرت بإحكام على محاولته التملص من قبضتها التى ظهرت فى دلال حركتها التى يبثها فؤادها المنخطف. وسرعان ما أعادت تصرفاتها إلى قواعدها بحسم اعتادته طوال الحياة، تحت إطار غليظ لا يسمح باختراق المجال المحروس بقوة. وخرجت من اللقاء تترنح داخلياً،

ليعود السؤال يشع فى ظلام الروح: ما الذى أحسه نحوه بالضبط؟

أجابت باختصار لا يناسب العمر ولا الموقف، إنها مشاعر الزمن القديم لبشر آخرين. لكن قلبها، الذى لم ترهبه صراحة الجواب، عاد وأزهر فى أحلامها عناقاً طويلاً أفاقت منه على زمن عاد بها إلى الوراء عشرة أعوام، وفى جعبته كل بَلاءات الحب المذبذب بين نعم ولا. أزاحت كل المتاريس التى وضعها العقل أمام الخيال، وسمحت له أن يصطحبها إلى البلاد التى أحبتها فى أسفارها، ودعته إلى عشاء تصاحبه موسيقى هادئة، ورقصت معه حتى انفض الجميع، ثم تركته يقبلها. وفى مرة أخرى، أعادت صياغة الدعوة وانسحبت إلى غرفتها، حيث لاحظت شدة اقترابه منها، فوجدته يطرق بابها بعد قليل، ويكمل معها الرقص فى شرفة الفندق الذى يطل على شمال المتوسط، ثم أعادت صياغة اللقطة حيث جاء يزورها وهى مريضة، وأصر على البقاء بجوارها حتى الصباح. وأيضاً، لم تستطع إلا أن تتصور هذا الشكل الحالم الذى لا يمس الجسد لقصة الحب الرومانسية التى تصورت- فى لحظة ما من حياتها - أنها كل الحب، وأنها لن تعرف أشكالاً أخرى منه أبداً. لم تستطع- فى تلك اللحظة- أن تأتى به إلى خيالها داخل القارة التى تعيش عليها فى إفريقيا، بل صحبته عابرة مياهاً شاسعة، لها أمواج عالية يتوه عقلها فى زرقتها، قبل أن تحط بهما الأقدام على يابس فى جزيرة ما، حتى تستطيع أن تحلم به بهدوء يعانقها. واكتفت، لتفيق عند أول لقاء تال لهما، بأنها أخيراً قد فطمت فطاماً حقيقياً منه، وأنها تعرفه الآن حق المعرفة، رغم أنها لم تسأله أبداً عن سبب ما فعله بها، ليس هجره لها بل دفعها إلى هجره، ولا سألته سؤالها المؤرق إن كان قد أحبها فى الماضى بالفعل، أم أنه كان قد خيل إليها هذا.

تركت نفسها تنعم بصداقته، والصلات العملية التى نشأت بينــهما على هامش حركتهما، دون أن تعاود الأسئلة. ولم تعرف أبــداً ســر رغبته فى تجديد علاقتهما. هل هو أيضاً فى حاجة إلـــى الاطمئنـــان لإنسان ما، جاء له من الزمن القديم، حيث الحنان والثقة والحب الـذى غلف علاقات تلك الفترة من حياتهما، فى مناخ اكتشـــفا فيـــه أنـــهما كائنان تواجدا بالصدفة فى زمن آخر غير زمانهما. لم تعرف أبـــداً، ولم تكف فى لحظات تالية عن تمثل صورة عابرة للحظة عناق بينهما لم تتم. تبتسم لها، وقلبها يتمطى بدلال، ودون حزن هـــذه المـــرة، إذ التأم الجرح، وخرجت الشرائط الساتان من البئر طافية، لأنها أذابـــت ما فيها من خبيئة، وعامت على سطح الماء مثل زورق ورق ملـــون، ترفرف رايته بسنوات انقضت، انطبع فوقها ختم التسامح والنســـيان؛ إذ عوضتها الحياة بحب حقيقى، اعتقدت لزمـــن طويـــل أن القليليـــن فحسب هم الذين عرفوا مثله – تقولها خائفة.

نــزوة

الضباب يغشى الفضاء، لا يتيح له إلا رؤية حدود عامة للحركة أمامه. وهو اعتاد القيادة ببطء فى مثل هذه الظروف الجوية. أنعشته البرودة، وارتاح للهدوء، حين رآها تركض فى الشارع قاطعةً الطريق أمامه، وهى تحمل طفلتها. أضاء نور السيارة مرات لكى تبتعد عن نهر الطريق، ثم أطلق نفيراً قصيراً، فتنحت وهى تتعثر. أوقف المحرك بجوارها، عرفها على الفور. سألها- مقدمًا نفسه إليها- إن كانت فى حاجة إلى المساعدة.

- أحتاج إلى طبيب. حرارة ابنتى مرتفعة، ولا أملك تليفوناً فى البيت.

فتح لها باب السيارة، وهو يشير إلى وجود طبيب فى الشارع الخلفى. انطلق مسرعاً على غير عادته، وهو يهدئ من انزعاجها.

- حاولت البنت النزول من سريرها، فلم تستطع الوقوف. وضعت يدى على جبهتها، فوجدتها ناراً. استحيت أن أطرق باب الجيران، وحملتها وأنا لا أعرف إلى أين.

أخبرها الطبيب بإصابتها بحمى قرمزية، وطلب حقنها بالبنسيلين فوراً. وأرشدهما إلى صيدلية قريبة للطوارئ. اشترت الأدوية، لكن الصيدلي رفض حقن الطفلة، بحجة أنها فى حاجة لاختبار حساسية أولاً. اتجها إلى مستشفى خاص. رفض الطبيب حقنها، ورفض إجراء الاختبار أيضاً. خرجا مسرعين غاضبين، وقطعا القاهرة كلها إلى أن وصلا إلى مستشفى أبو الريش فى حى السيدة زينب. فلما تكرر الرفض، سأل مصطفى الطبيب غاضباً:

– هل أحضر ميكانيكياً لكى يحقنها بالبنسلين؟

= آسف، حوادث البنسلين كثيرة، والاختبارات– فى الغالب– مضللة.

دموعها الغزيرة، وهى تحكى أن ابنتها تأخذ البنسلين باستمرار، بددت قدرته على الهدوء. خرج بصحبتها من المستشفى، وهو يتوعد كل من فيها بالمحاكمة. وسألها عن اسم طبيبها، ومكان سكنه، لأن عيادته لابد أنها مغلقة الآن. طلبت منه الانتظار حتى تعرف عنوانه من خالتها تليفونياً، لأنه جارها، ولكى ترسل من يستبقيه فى بيته إن كان موجوداً. عادت بعد دقائق مستبشرة:

– الآن أستطيع الاطمئنان، العنوان فى الدقى.

احتضنت ابنتها، ورفضت اقتراحه بأن تنام البنت فى المقعد الخلفى. حكت بمرارة أنها لم تستطع طلب المساعدة من جيرانها الذين يغلقون الباب بسرعة، حين تخرج من شقتها لتتسلم اللبن من البائع:

– يخشين مجرد ظهورى فى ردهة الدور، كأنى شيطان، رغم

أنى لا أختلط بأحد، ولا حديث لى معهم غير تحية الصباح. كل واحدة منهن تخشى على زوجها منى، رغم أننى زوجة، كما تعلم.

نظر إليها بركن عينه، حريصاً على ألا تلحظ نظرته. كان يعرفها منذ سكنت فى الجوار. تناقلت الشائعات سيرتها، بسبب جمالها وصغر سنها، وزواجها بزوج يكبرها بأربعين سنة. لم تكن من نوع الجمال الذى يلفت نظره عادة: بيضاء، لها ملامح صريحة، وجسد ضخم يكاد يقاربه طولاً ويزيد عليه مرتين عرضاً. انسدل شعرها الأسود الطويل منفلتاً من رباطة، بحكم تحركات طفلتها الرابضة فوق صدرها، فبدت أكثر رقةً مما كانت منذ قليل.

- زوجى لا يأتى إلا ساعات محدودة، كلما استطاع الإفلات من مسئولياته. يقضى معى وقتاً هو كل حياتى، فقد منعنى من العمل، ودفعنى إلى إغلاق الأتيليه بعد زواجنا. وأصبح انتظاره وتعليم ابنتى هو كل شئ!

كانت المدينة تتمطّى وهى تصحو متكاسلةً صباح وقفة عيد الأضحى. سافر معظم سكانها إلى قراهم، أو إلى الإسكندرية رغم البرد. المحلات مغلقة، ومعظم الناس صائمون فى انتظار الصلاة مع الواقفين على جبل عرفات.

حركة الشارع الهادئة ساعدتهما على الوصول بسرعة إلى ميدان الدقى الذى مازال غافياً. كانت محقةً فى طمأنينتها، إذ استقبلهما طبيب محنك دقيق، ذو ابتسامة شافية. قال إن الوقت مبكر جداً على القطع بأن ما تعانيه البنت هو حمى قرمزية، وإنه يرجح أنها مجرد التهابات روماتيزمية من كثرة التعرض لالتهاب اللوزتين، وإن الإغماء سببه امتناعها عن الطعام الكافى. حقنها بالبنسلين وبمخفض

للحرارة، وطلب منهما التوجه إلى معمل اتصل به ليفتح لهما خصيصاً، يوم العطلة.

لم تكن نفس المرأة وهي تخرج من باب العمارة، بل أخرى مرحة متفائلة، تتحرك بخفة لا تناسب وزنها، وهي تمسك بيد ابنتها. توجهت نحو المحل الوحيد المفتوح، واشترت بسكويتاً راحت تحايل ابنتها على أكله، ثم التفتت إليه تشكره على مساعدتها، وتطلب منه الذهاب إلى عمله بعد أن دبت الحركة في الشارع، فتوفرت التاكسيات. لم يفهم دافعه على الإصرار على مصاحبتها حتى ينتهي الأمر تماماً، إلى أن رضخت. دخلا المعمل، وأنهيا التحاليل المطلوبة، وعرفا أن النتيجة ستظهر قبل منتصف الليل. صحبهما عائداً إلى البيت، والمدينة تكشف عن ألوان العيد وبهجة انتظاره. عرف منها أن البنت من زوج سابق لها، وأنها تزوجت من زوج أحدى قريبات أمها الذى أشفق عليها، بسبب رفض مطلقها الإنفاق على ابنته، ثم طلبها للزواج بشرط عدم الإعلان، حتى لا تتألم خالتها ويغضب أولاده، خاصةً أنه صاحب ثروة كبيرة.

هكذا برر موقفه. اشترى لها هذه الشقة فى ضاحية الهرم، حتى تكون بعيدةً عن مسكن العائلة. قطعا الباقى من الطريق صامتين، يفكر هو فى هذه الصدفة التى حفرت داخله معنى لا يستطيع تفسيره، وتفكرٍ هى فى الأمراض التى مرت بخاطرها، حين رأت ابنتها تقع فريسةً لمرض مجهول لا تعرفه: حمى شوكية ، شلل. صدرت عنها آهة خافتة، وهى تعتصر منديلها بقوة، قائلة "يا رب".

شرخ صوتها سكونه، التفت إليها:

– استهدى بالله، ابنتك بخير. وسأتصل بك لأطمئنك على نتيجة

المعمل.

شكرته: "مكالمتى لخالتى ستجعل زوجى يتصل بى فوراً. أرجوك .. أبلغ تحياتى إلى ناهد".

دخل منزله والعصر يوشك على الهرب بسرعة. وجد الأسرة كلها فى انتظاره، قلقةً على السفر إلى القرية قبل آذان المغرب، حتى يلحقوا بالإفطار مع العائلة الكبرى. لم يستطع اقتراح التأجيل إلى صباح الغد؛ اعتادوا المبيت فى القرية، حتى يلحقوا بصلاة العيد بعد الفجر. ونتيجة التحاليل لن تظهر قبل الحادية عشرة مساءً.

أكد لنفسه إمكانية الاتصال التليفونى من القرية. وعاد يفكر فى رغبته فى إخبارها بنفسه. أرجعت ناهد استغراقه فى ذاته إلى التعب، وانشغال لن يفصح عنه إلا حين يجتازه، ويختار الوقت المناسب للكلام، إذا أراده أصلاً. تعودت على أسلوب تفكيره وحياته، فلم تعد تزعجه بأسئلة تعرف أن لا جواب عليها.

قضى عيداً قلقاً، تعجل فيه الوقت لينتهى. التقى بأصدقاء الطفولة فى جلسة استمرت حتى الفجر، بذهن منصرف وضيق لا يعرف له سبباً. لم يشفع للوقت عودة أخيه من بعثة دارسية بعد سنوات، ولا رغبته فى التعرف على تفاصيل رحلته، وما حققه فيها، أو الاطمئنان على ظروف عائلته، التى أصبح- فى السنوات الأخيرة- لا يراها إلا لماماً. ولولا بقية من قدرة على كبح رغباته، لعاد إلى القاهرة بأولاده فى اليوم التالى مباشرة، حين تذكر فجأة أنه لم يسأل ريم إن كانت ستقضى فى القاهرة باقى أيام العطلة أم لا؟ "هل يأتى زوجها لاصطحابها إلى مكان ما؟ هل تذهب إلى أسرتها ؟!"

نوم محموم قلق وضجر. ضاع تركيزه وسط ضغط فوران الداخل، وانطلقت منه نوبة غضب على ابنه الذى يسأله الرد على تليفون، قائلاً إنه لايريد التحدث مع أحد، ثم عاد وأخذ السماعة. تراجع عن جميع قراراته فى الأيام الثلاثة التى قضاها فى قريته. اتفق مع الأولاد على زيارة بيت خاله، ثم ألغاها، وعاد بعد ساعة ليصطحبهم إلى هناك. اتفق على شواء فى حديقة المانجو، ثم ألغاه، وعاد يطالبهم زاعقاً فى المساء بإحضار أدوات الشواء، حتى لايتأخروا. قرر اصطحابهم فى قارب نيلى عند الغروب، وتراجع ظهراً، وعاد عند العصر يرتب تجهيزات القارب. وناهد تراقب من بعيد، وتختفى مع أولادها بعيدًا عنه، دون صوت.

كادت أن تسأله مرات إن كان قد فقد أحد أصدقائه، أو سمع بخبر مزعج، لكنها تراجعت. ثم لاحظت فى الأيام التالية أعراض الحمى الشهيرة للحب، لكنها أبعدتها بشدة عن ذهنها. فزوجها الذى لم يغير عاداته– منذ تزوجا– مازال يبدى الحرص عليها تماماً. تأملته وهو يصلى بخشوع: "لم يفعل شيئاً يغضب الله!". وحين هدأت حالته واعترته السكينة، طردت الفكرة بكاملها من رأسها.

كان قد اتخذ قراراً بأن يكف عن الترقب المجنون لظهور ريم فى شرفتها، أو اقتناص مصادفة نزولها إلى الطريق فى وقت عودته. اكتشف مدى استمتاعه بالعذاب واستعذابه له. خيل إليه فى ليل وحدته، وهو جالس فى الشرفة، أنها تمر أمام زجاج النافذة، تقف لدقائق، يخفي الظلام اتجاه بصرها، لكنه يمتلك شعوراً خفياً أنه موجه نحوه. حاول أن يعرف إن كانت تظهر فى مواعيد ثابتة، لكنه لم يستطع العودة إلى البيت أبداً فى ميعاد محدد، لكى يتأكد من ذلك. فكر أن يطرق بابها بحجة الاطمئنان، ثم استبعد الفكرة، ملقياً إمكانية

نسيانها وانشغاله على سفره القادم الذى سيستغرق شهرين على الأقل.

لم يخبر ناهد بقصة مرض الطفلة، والتقطت ريم المعنى بحس الأنثى، فلم تحادث ناهد فى شئ، حتى رأى طفلتها تلعب مع الأولاد فى الحديقة أمام المنزل. وكان قد عرف من المعمل أن تشخيص الطبيب كان صحيحاً، وأن المرض عارض بسيط . لم يكن فى حاجة إلى الانزواء والوحدة، من أجل الاستغراق فى الداخل، كانت هذه هى عادته طوال العمر، الميل الدائم للعزلة. لكن ريم فجرت داخله سؤالاً عن معنى الحب الحقيقى، وما هو بالضبط الشعور الذى يحمله لناهد. هل أصيب بأزمة منتصف العمر، أسئلة الحساب عن مدى التحقق، والخوف من انقضاء العمر بلا وصول لأهداف كبرى، "لكنى أحب بالفعل، حتى وإن شابت الحياة بعض رتابة. ناهد تبتعد، أشعر بهذا، ابتعاد حزين دون سبب مفهوم. هل أكون قد خذلت توقعاتها منى؟ لا أعتقد. أراها راضية دائماً".

حين يئس من الصدفة، اعترضت طريقه ذات مساء، طالبةً منه خدمةً خاصة. وقبل أن يفيق من إدراك لسعة الصدفة التى جمعتهما فى محل الزهور عند ناصية الشارع، ويبدد ضباب ازدحام المشاعر الذى جعله يتصرف بفرح صبيانى، عاتب نفسه كثيراً عليه، قالت له إن جاره الذى يقطن البيت المجاور يلاحقها، وإنها تريد منه التدخل لمنعه عن هذا السلوك؛ فهى تريد أن تعيش لحالها وابنتها. وقبل أن يسألها عن أى شئ، كانت قد مدت له يدها لتشكره، واستدارت لتنصرف؛ لكنه استوقفها:

– تعاملى مع الدنيا بأمان. لست فى حاجة إلى كل هذا الخوف.

لم يكن يريد أن يقول لها هذا، لكن مطراً ليلياً كان قد بلل مشاعره وتركه يرتجف، فارتدى أكثر أردية الحكمة وقاراً !

المفاجأة التى كانت بانتظاره- عند عودته من السفر- ليست وفاة زوجها فحسب، لكن تدخل ناهد فى شهادة عند البوليس لإثبات تردد الزوج على ريم، حفظاً لحقوقها التى لم يكن لديها وثيقة واحدة لإثباتها.

كانت الحكاية قد بدأت بعد انتشار خبر الوفاة بقليل، إذ فوجئت ناهد ذات صباح بريم تطرق بابها مضطربة. لم تكن معتادةً على زيارتها؛ كانا يلتقيان بالصدفة أثناء الحركة فى المنطقة، بحكم الهدوء وقلة عدد السكان فى الحى. دعتها للدخول، فطلبت منها أن تأتى معها إلى شقتها بسرعة. قالت: وصل ضابط ليثبت حقى فى المكان والزوجية. كان زوجى يطمئننى بأنه قام بتأمين مستقبلى، وأنه حفظ الأوراق فى مكان أمين. لم أسأله مرةً واحدةً أن يعطينى نسخة من هذه الأوراق. اكتفيت بوجوده معى، لم أنتظر منه غير المأوى والستر. قدرت مشاعر خالتى، وانعزلت عن العائلة. وأشاع أبى أنى تزوجت من رجل محافظ لا يحب الزيارات، وأننى سعيدة معه؛ لهذا لم يكن يزورنى أحد. وكلما احتجت إليهم، ذهبت إلى بيتنا لزيارة أبى وأخوتى غير الأشقاء.

رغم الدهشة، تعاطفت ناهد معها، وأسرت للمحقق أن أهل الحى تعرفوا على ريم والرجل المتردد عليها باعتباره زوجها، وتعامل معه البواب والجيران وأصحاب المحلات على هذا الأساس. وتقدمت عاملة فى محل بقالة بشهادة مماثلة، وكذلك فعل ضابطا أمن يحرسان مسئولاً حكومياً فى البيت المجاور. قالت ناهد لمصطفى: لم أجد

جارة واحدة. تماماً، كما كان الحال حين ذهبت للعزاء، وأخبرتنى ريم أنهن عزينها معاً لمدة نصف ساعة انصرفن بعدها، ولم يظهرن مطلقاً بعد ذلك، وأنه لم يعزها رجل واحد من العمارة، رغم وجود أبيها وأخوتها معها.

لم يعلق، فاستطردت: اتصلت بى تليفونياً بعد أيام، وأعطتنى رقم تليفونها، وطلبت ألا أتركها فى وحدتها. انتشرت الأخبار بسرعة بين الجيران، واكتشف الجميع حجم البراءة والغفلة التى تعيشها ريم، بلا شهادة زواج، بلا حق ملكية أو حتى مجرد عقد إيجار للسكن، لا شئ غير قصاصات ورق أظهرتها للجارات، وهى تحكى القصة باكية ببساطة مذهلة، يقول فيها: "زوجتى.. سأمر عليك بعد يومين"، أو "أتركك نائمةً فى رعاية الله". أوراق كان يتركها لها إذا مر ولم يجدها، أو إذا تسلل وهى نائمة، حتى لا يوقظها، بعد أن يتوغل الليل.

وجدته أمامها حين فتحت الباب، دعته للدخول وهى تدارى رغبةً فى الارتماء فى صدره. أغلق الباب، وقبل أن يجلس فى المكان الذى أشارت إليه، احتواها. لم يعرف كيف تكورت بحجمها الضخم لتدخل صدره. مسح دموعها: "كل شئ سيكون على ما يرام"، ولم يبتعد. فلما طال وقوفهما، قبلها فى جبينها قبلةً طويلةً لم يوقظهما منها غير جرس التليفون.

– لم أستطع الحضور من قبل. كبحت رغبتى بإرادة من نار.

= كنت أعرف أننى سأقابل من يوقظ فىَّ رغبتى كامرأة، لكننى كنت أكابر. كنا مثل أخوين، يأتي ليتحدث معى عن مشاكله، يطلعنى على همومه، ولا ينتظر منى حلولاً. أأنس له وأنتظره بشغف، فلم يكن لى فى الدنيا سواه؛ حتى أبى وعائلته، كنت أشعر أننى عبء

وغريبة عنهم. عرفت أنك هذا الرجل، بعد أن ذهبتُ معك إلى الطبيب، لهذا ابتعدت حتى لا أفسد حياتك. لستُ هذا الكائن المخيف للزوجات حولى، كأنى سأخطف رجل إحداهن. أحب ناهد، هى الوحيدة التى تتحدث معى، وتشعرنى بعواطفها.

– ألا نستحق هذه اللحظة؟! ألا أستحق أن تكونى لى، وليحدث ما يحدث بعد ذلك؟ لا تنشغلى الآن بأى شئ خارج هذا المربع الذى يجمعنا.. أرجوك..

العطش وحده لم يكن السبب فى استمتاعهما الخاطف. كانت هذه هى طريقته التى تشبه طريقة الديك: لحظة اندفاع خاطفة تنتهى بانتهاء الفعل. لم تكن تدرك ذلك؛ تصورت أن الخجل وشوقها لرجل وارتباكه هو سر القفزة اللحظية. أرادت النوم فى صدره، لكنه ذكرها بالوقت الذى يكفى بالكاد لتقديم عزاء، ووعدها بتدبير شكل ما للقائها. أوصاها بمراقبة المكان حتى يخرج، دون أن يشعر به أحد الجيران؛ فلم يصادفه أحد أثناء قدومه. ولهذا، يستطيع أن يعود يومًا آخراً بحجة العزاء. وقفت خلف الشرفة حتى اطمأنت لخلو الطريق، وأشارت إليه، فمضى متسللاً. تابعته، وهو يدلف إلى منزله، مذكرةً نفسها باستحالة التحرك بين البيتين دون افتضاح الأمر، أو سماع صوت وصول السيارة مرة، فينفتح باب منزله فجأة..

حين أدركت ناهد ما يجرى فى النهاية، قاومت رغبتها فى مصارحته، ثم أجلت مفاتحته أملاً فى اكتشاف أن هذا من صنع أوهامها، أو التأكد من أنه حقيقى، أو انصرافه عنه. لم تعرف أنها حين شمت رائحة ملابسه الداخلية ذات مرة- معلقةً بأنها تنز بالسمن، متسائلة وهى تضحك عما يأكل هذه الأيام!!- أنها كادت تتعرف على

المرأة الأخرى فى حياته، التى وصفتها ذات يوم معابثةً بـ"صفائح السمنة السايحة"، على حد تعبير "القصرى". لكنها لم تستطع كبح جماح تلصصها، الذى جاء بتنبيه غير مقصود فى معظم الأوقات، ومقصود فى أوقات أخرى؛ إذ بدأت المعلومات تتساقط فى حجرها، دون جهد لاصطيادها؛ ارتباكه حين ترفع سماعة التليفون الداخلية لإدارة رقم، فتجده على الخط مع امرأة تعرف صوتها، لكنها لا تستطيع تحديد من تكون. يخبرها بأنها زوجة صديق تسأله خدمةً، ويتخلى بذلك عن إحدى عاداته الثابتة: ألاّ يبرر شيئاً مهما كان. مكالمات ليلية طويلة، بعد أن كانت علاقته بهذا الجهاز قاصرةً على دقيقة أو دقيقتين. إقبال جسدى غير حقيقى، يثبت فشله إذا ما استجابت؛ وشعورها الدائم بعينيه تراقبانها من بعيد، فإذا سرحتا فوق ظهرها، وشعرت بحرارة رعيهما فوق جسدها، تلتفت فجأة لتجدهما تنزلقانِ فى خجل إلى الناحية الأخرى. تصحو قرب الفجر لتجده جالساً يدخن فى السرير، وهى عادة قطعها منذ سنوات. ارتباك فى الغياب والسفر الذى بات منتظماً، دون معلومات حقيقية عنه. اختفاء فجائى، وسعادة صاخبة فى أوقات، وتعاسة بلا مبرر فى أوقات أخرى، كأنه يتقلب على أقصى درجات الحرارة والبرودة معاً.

ورغم أن الصدفة ساقتها مرتين لتعرف بسفر ريم، فى نفس الفترة، دون أن تربط بينهما، إلا أن الدقة التى تعامل بها مع الموقف أفلتت منه فاتورة فندق لشخصين، وتذاكر ذهاب وعودة، فلقلت قوون استشعارها النائمة، ففتحت له ملفاً من روائح الملابس الغريبة، وزيارات أمه التى لا تتحقق، إلى أن رأته ذات مساء، وهى تغلق النافذة، يدخل العمارة المقابلة، بعد أن أطفأ أنوار السيارة؛ "هى إذن صاحبة هذه الرائحة الغريبة، المنبعثة من ملابسه وجسده". انسحبت

بهدوء، وانتظرته في سريرها، تفكر: كيف ستتصرف.

حياها، مصطحباً جرائد اليوم التالي إلى الحمام، بعد أن أخبرها أنه لا يحتاج لعشاء. بعدها رصدت جدوله، متحلية بقوة هائلة على ضبط النفس.

وحين رأته يتسلل إلي العمارة المقابلة، ارتدت ملابسها على عجل. اختارت زياً بسيطاً، وحذاء خفيفاً، وعطراً فاقعاً، وربطت شعرها بإيشارب طويل ملون. اطمأنت في المرآة على هيئة امرأة جميلة ومرحة، ثم حملت علبة شيكولاته وطرقت الباب. فتحت لها ريم، وهي ترتدي روباً من الحرير ينم عن الجسد العاري داخله، واعتذرت بأنها كانت على وشك الاستحمام. تجاهلت ناهد الملاحظة، وجلست طالبة فنجاناً من الشاي، بدلال. لم تكن قد رسمت خطة معينة: هل هي مجرد اللعب بأعصابهما، أم ضبطهما معاً؟ كانت تظن أن ريم لن تفتح الباب، وتكشف وجوده لأي طارق. لابد أنه يختبئ الآن في غرفة النوم، وسيواجه وجودها من الداخل رغم أنفه. مر الخاطر برأسها، حين سمعت ريم تستأذنها في إكمال ملابسها، وتركتها في الصالة تتحسس– بكل جزء من كيانها– وجوده: عرفت أين جلس، وأين شرب الشاي، بل أين قبلها. كادت أن تطفر من عينيها الدموع، لكنها تماسكت وألقت على وجهها وشاحاً من ابتسامة مزيفة.

أخبرتها ريم أن محامي عائلة الزوج جاء، وطالبها بكتابة تنازل عن كافة حقوقها، في مقابل امتلاكها لعقد الشقة التي ستسجل باسمها على الفور، ثم التعهد بعدم إعلان هذا الزواج بناء على رغبة المرحوم ذاته. وأضافت أنها وافقت، لكنها فوجئت بأن ابن زوجها

الأكبر، الذى يكبرها بخمس سنوات، قد حضر مع المحامى توقيع هذه الأوراق وتسجيلها فى الشهر العقارى، مما يشير إلى وجود ثروة كبيرة أخفيت عنها، وأجبرت- بهذا التعاقد- على التنازل عن نصيبها فيها . قالت ناهد مطرقة الرأس:

- ربما يحاولون تجنب الفضيحة.

= على الأقل، لم أعد في الشارع. لى بيت الآن.

لم تستطع ناهد الاحتمال أكثر من هذا، واستأذنت فى الانصراف حزينة، وهى تعلم أنها أفسدت الليلة عليهما. فكرت فى انتظاره فى الشرفة، وقطع الطريق على نزوله إلى الطريق، لتزيد من حجم توترهما معاً، لكنها اكتفت بهذا القدر. أعجبتها اللعبة السوداء، كما أسمتها بعد ذلك، وتدخلت بمهارة فى إفشال كل مخططات لقاءاتهما. إذا أخبرها أنه فى طريقه إلى زيارة العائلة، وجدها على باب البيت تسبقه إلى السيارة؛ فإذا تعلل بمشوار قريب قبل ذهابه، تخبره أنها لن تتضايق من انتظاره. إذا قرر السفر، تحصل على أجازة وترسل الولد والبنت إلى أمها، قائلة إنها فى حاجة إلى الانفراد به. أقلقه الشك، فارتبكت مواعيده، وتوترت أعصابه، وهى تستقبله هادئةً متهللة، فاتحةً ذراعيها له. شغلته بسهرات مع الاصدقاء، ترتبها ثم تبلغها له. واستمتعت بالقفز فوق الحواجز، حتى ملت اللعبة، فانتظرته على باب البيت لحظة عبوره الشارع من عند ريم، وقالت

- لِمَ أدفعك إلى التعاسة، لأنك لا تستطيع أن تراها؟.. هى لك فى كل وقت..

انصرفت لإعداد عشاء تعرف أنه لن يتذوق منه شيئا. ذهوله

دمر قدرته على الرد عليها، فراح يغمغم بكلمات حادة، مندفعاً ناحيتها، حتى شعرت بحرارة كتفه تكاد تطوقها. وتجاهلت اقترابه المنذر من جسدها. استكملت إعداد الطعام، واستدارت لتوقفه بنظرة واحدة صارمة، انصرف بعدها دون كلام إلى غرفة النوم. راح يخلع ملابسه، فلاحظ علبة التذكارات السوداء، ليعرف أن المواجهة لا مفر منها.

في اليوم التالى، قالت بهدوء: أريد القصة كلها.

– ما حدث قد حدث. اقبليه .. أو ارفضيه.

– أريد الأسباب .. حتى أختار الرفض أو القبول.

– لا.

لاذ بالصمت المعتاد. كانت في حاجة إلى أى جواب إلاَّ الصمت. طار صوابها، وهى تتحسس أرواح كائنات تختنق حولها، كائنات من صبر طويل وتكيف مع الممكن غزلتها بمرارة. تذكرت إهداره لحقها في المشاركة الجسدية، وتركه بيتهما لأهله دون مقاومة تذكر، وعبوره لكل مشكلة تاركاً إياها لها لتحلها، أو تصطدم بها، لا يهم.

– لن تهرب من المواجهة مدى الحياة. هذه المرة، لن يحل لك الزمن المشكلة. أريد الحقيقة.

رفض. حايلته. استخدمت كل الصبر الممكن لإقناعه أنها تريد المعرفة، ليس فضولاً ولكن اقتراباً من عالمه؛ تريد أن تعرفه بالفعل، حتى تستطيع أن تتخطى هذه العقبة التى لا تشك فى أن دوافعها كانت ضرورية، بمعنى ما، وإلا فلماذا كانت!! الكلمة الوحيدة الفالتة من

بين شفتيه كانت: فيها شيء مثير، لا أعرف كيف، شيء همجي، ربما، غير محسوب، فيها استفزاز ما!

ثم قطع حديثه في الموضوع إلى الأبد، رغم أن ناهد هجرته، ورفضت الحديث عن إمكانيه عودة العلاقة الزوجية، طالما أنه لا يخبرها بما تريد. قضى أسوأ أيام حياته، لا يفكر إلا في مشاعر الكراهية الشديدة لهذه المرأة الجافة، التي لا تعترف بانقضاء الموضوع وانتهائه. لم يفكر في عذابها لحظة واحدة؛ خدعه تماسكها، ألقى عليها نفسياً تبعة حرمانه من هذه العاطفة المشبوبة التي كانت تبتعث نشوةً رائعةً في حياته، لكنه انتبه لحبه الشديد لها، وهي ترد على تعليق إحدى الجارات عن سلوك ريم، قائلة:

- هي امرأة مسكينة وحيدة، تلاعبت بها الأقدار. ليت الناس يتركونها تلملم جراحها. امرأة وحيدة من الطبيعي أن تبحث عن رجل.

تذكر أن أحزانها تأتي دائماً على مهل، ترتشفها قطرةً قطرة، تحايل حزنها بهدوء حتى تتمكن من تليين عريكته، وتؤجل ردود أفعاله؛ وهو ما يجعل حزنها مراً عميقاً، في صمت. لم تكن ناهد بهذا القدر من التحكم في النفس، حين عرفها في صباها الباكر؛ على العكس، كانت تمرح كيفما شاءت، وتبكي لحظة الألم، كل ما فيها صاهل. لكن الوقت دفع انفعالاتها إلى الداخل، فلم تعد إلى مرحها القديم. وفي نفس الوقت، لم تكف عن إعلان عواطفها للجميع حولها. راح- تحت وطأة تأنيب الضمير، الذي ظهر عليه فجأة- يتصور طريقاً إليها، دون أن يخطو نحوها خطوةً واحدة. وانتهى- في نهاية حيرته- إلى أن الزمن كفيل بإذابة المشكلة، ونسيان ناهد لها. فلما

مرت شهور ثلاثة، دون أن يستطيع الاقتراب منها، قال لها مثل طفل صغير طال عقابه:

- ماذا فعلت، لكى تنبذينى بهذا الشكل؟ غلطة، وانتهت.

جاء ضعفها الداخلى من سؤال سيطر على عقلها عن وجود حقيقة واحدة ثابتة فى الحياة. هل هناك ما يمكن الاطمئنان إلى وجوده الفعلى؟ لماذا تعيش معه؟ هى تعرف أن الحب ليس هو الرابطة بينهما، على الأقل بالمعنى الذى كانت تأمله مع زوجها. حبه لها هو سر قبولها لمبدأ التكيف الذى أعلنته على حياتها ، فلماذا يدفع هو ثمن خطأ قرارها بالارتباط به، طالما أنها وافقت من البداية؟

استرجعت علاقتها الخاصة به، وابتسمت بمرارة، إذا لم يكن قادراً على إسعادى، فكيف يسعد غيرى؟ وكادت أن تذهب إلى ريم، وتسألها إن كان يستطيع أن يوصل إليها عواطف بالفعل؟ وهل يختلف تعامله معها، باعتبارها ليست زوجة؟ هل له صورة أخرى، لا تعرفها؛ صورة كانت فى حاجة إلى نوع آخر من النساء، لكى تتفجر؟ ربما، ولمَ لا. تمنت أن تنظر إليهما من ثقب الباب لتعرفه بالفعل، ولتصدق أنه قادر على هذا.

فِى الصباح، اكتشفت أن وجهها مبذور ببثورٍ صغيرة، وأن أجزاء كثيرة من جسمها قد تغطت تماما بما يشبه وبراً خشناً من الإبر الدقيقة. قال عنها الطبيب إنها بسبب التوتر العصبى، ونصحها براحة طويلة.

وخزتها المرآة، فتشرنقت بِالعزلة، وأطلت مِن عينها دموع لا تنهمر، زادت مصطفى لا عطفاً عليها، بل حنقاً دفعه إلى غضب

صبيانى: "لا ينقصنى إلا الإحساس بالذنب من أجل تشويهها أيضاً"..
راية من العذاب رفعها جسمها مرفرفةً، دون أنٍ تنطق بحرف واحد.
فى إحدى الليالى، وهو عائد إلى البيت الذى لم تسمع فيه كلمة غضب
واحدة، أو شعر الطفلان أو العائلة بما يدور فيه، تذكر أنه لم يعتذر
عن فعلته، فدخل إليها، وأزاح الكتاب من يدها:

- ناهد .. آسف

حين احتواها ، لم تبعد يده..

رغبــة

صرخت تحت رحي العجز والرغبة: أريد أن أكـــون نفســي. أريد الفرار روحاً وجسداً. سألت نفسى عشرات المرات من قبلٍ: ماذا تنتظرين؟ رأيت ابنتى تنمو أمامى فى بطء يلتهم العمر، فصمتُ مــرةً ومرات، وأنا أعي أن ما أسكت عليه، وما أقمعه، سينفجر فى داخلـى يوماً.

لم تبشر الليلة بأى تغيير. كل المعتاد متوفر بإفراط: ابنتى فــى غرفتها الداخلية نائمة تحيطها عرائس ودببة، تمعن فـــى أحلامــها. صمت وسكينة يحطان علىَّ الليلة. أشاهد فيلماً فى التليفزيــون وهــو غارق فى نوم عميق، يصحو فزعاً، ينزرع أمـــامى دون مقدمــات، ويصحبنى إلى غرفتنا. أذهب دون كلمة، وأنا أعرف النتيجة مقدمــاً. جسدى يطقطق من الرغبة ليتسع كشجرة تنامى لحاؤها الخشن حتــي تشقق من فرط العافية والوجد.. ها أنذا مهيأة لك. تدخلنـــي ســاهماً بطيئاً، تمنع نفسك من أن تقذف برغبتك كلها فى وجهى، دفعة واحـدة وتمضى. تكظم أحاسيسك التى تنفلت بسرعة كرمية جولف مصوبـــة إلى هدفها، تخترق المسافة قبل أن يراهــا أحــد، وتسـكن الحفــرة. ترهقنى محاولاتك لترويض حركتــك، فتحــاصرنى خيبـــة تنســال

لتستجمع كل ما مر بى من أحاسيس، فى لقاءاتى بك. أسـترحمك أن تعود إلى إيقاعك المعتاد، وأن تنطلق سريعاً، غير عابئ بى، وتنـهى ما بدأت.

ـ لا، سأنتظرك.

تطفر دموعى رغم تجلدى المصنوع، وأروح أصطاد عصـافير الرغبة، ألقى شباكى فوقها، أجرجر عطشى، وأنا أراقب ميلاد نجمـة النار تشق طريق الخروج إلى السديم. يتحرك جسـدك فـى بـطء، وتنزف صبرك على بابى، وأنا أشعر أنك لا تستطيع الحركـة بـهذا الإيقاع الذى لا يرضيك، ولا يرضينى. أسـمع رنينـاً متعاكسـاً لا ينسجم، لا يمتزج، لا يتحول إلى نغم. تولد النجمة ضعيفةً، تموت قبل أن تسطع. أسى ينهض من مرقده، يتثاءب. أنأى عنه، وأصرخ فيـه. يتساقط بعيداً، وأنت تعيد الإمساك بجسدى بقـوة، خـائف أن تلتحـم شفتاك بما تبحث عنه شفتاى، فينفلت مارد رغبتك، ولا تستطيع كبـح جماحه. أعود ألملم الخطى، وأبدأ من جديد، علنى أكتشف ومضـات الدرب، وهم التيه. تتجمع الأحاسيس كلها فى غيمة تنشـج غناءهـا، تحتاج إلى لمسة واحدة فى مكانها كى تهطل. لا أستطيع أن أخـبرك، وأنا أستشعر انتظارك. أقرأ الإشارات البعيدة، وأسمع لحن الانطـلاق يدق فى جسدى.. أصدق، أهرول، أصعد لاهثةً، أشعل كل الشـموع، تلسعنى نيران الرغبات الكسيرة، تواصل العزف على وتر الشـوق. تأمل فى الاشتعال، تضم الأنين إلى الأنين، وتسحقه، يثور النهر فـى الأعماق، ويقترب الفيضان. تنز الحركة الخافتة لك بـالملل. يضـل جسدى الطريق إلى التقاط الإشارة، أسـمع أصـوات ارتطـام فـى عظامى، وأشم رائحة شياط، وينبلج الظلام عن حائط يشبه تل الرمل، أهوى إلى جرف، أسمع قرقعة حرث عجلات لطريق غـير ممـهد،

وجسدك يحتشد كله فى ثوان، ليواصل طعنات سريعةً لاهثة، يعقبها سكون ما بعد مرور القطار بتتابع فوق الفلنكات. أزدرد ريقى، وأنا أحاول فتح عينيَّ عن عرق ملحى يذكرنى بالغرق. يتراجع استغراقى، وينهال ركام يغلق ممرات كانت مفتوحة منذ لحظة، دفنت تحتها أعضاء ما تزال تنبض، يلوح أمل مع تحرش أخير تحاوله، فتتشبث بى كى أنتظر.. إيقاع مختلف يأتي بالصدفة، رغم الارتخاء الذى يمتد، ينفتح صدرى فجأة عن هواء يخرج مندفعاً، بعد أن اقتنصت الرئة بعضه، فاختنق فى الحنجرة وتكسر صوته- آه.. ه .. حط فوق غيمة راحت تذبل، وهى تمسك حروف الرغبة: راء. غين. باء. إشارات ما تزال تحاول المرور، فيدمرها رماد الصحو.

- حاولى

أستجمع إرادتى، مثل ريح تحلم أن تدور فى بؤرة إعصار، تأخذها الطرقات والمنافى، تبددها فتتعثر فى أغصان الشجر، وتثير غباراً لا عاصفة، تجرجر خيبةً تتسع كلما كنست أمامها عثرة، تنوح حولها سحب الإدراك، وتستريح أوهام الصمت.

تعزف لحناً أخيراً بالمفردات الممكنة، فينسحق جسدى تحت وطأة المحاولة. وهج يأتى من الخارج، والجسم العطشانٍ ينفتح فى انتظار ما يملأه، يمد حبل الوهم، يصطاد ذكريات يقينيةً عن إمكانية الامتلاء، كأنه انزلاق سريع لا يمكن التحكم فيه، فى حين أنه صعود لاهث، والضربات الضعيفة لا تشبه شيئاً. تزيد الاشتعال ولا توصل إلى فيضان، وهج فارغ يخل باتزانى فى منطقة أقرب إلى الصفر، قبل الانقلاب إلى السالب، غياهب مظلمة مثل سديم يميزه ضوء، ينز بقطرات ضعيفة تخرق السواد فيبدو مثقباً، لكنه ثقيل. أدور ثم

أتدحرج فى وهم. أطوى الأركان، أحاول استجلاب صورة من الذاكرة أخال أنها تحدث لى. اشتعال يأتى من الرأس. عقلى منتبه، تزيده كل ضربة انتباهاً ولا تدخله فى بؤرة الشعور بالخفة، بانعدام الوزن.

أستحلفه أن يشارك بالغياب: "كفَى، أفسح المجال كى يلتقط جسمى الشرر".

مارشات تعلو بصخب مصنوع. يدرك العقل خروج عضوه من مكانه تماماً، ينقطع الهارمونى، وتنفرط وحدات العزف، تنفصل أجزاء جسمى وأشعر بها أعضاءً مستقلةً تدور فى دوائر لا تتصل. مع كل مساحة فراغ يقطعها عقلى يخز الصحو بضوء يمس خيمة الظلام المحتوية للعقل والجسم معاً. تفزع شرايينى كتيبةُ توتر. تسمع أصداء نواحها فى الروح فأزداد تشبثاً بجسدك، ويزداد السحق وسط مطر كان خافتاً منذ قليل، تزداد برودته كلما وعى العقل مفردات الغرفة، ويبدو الأمر كله كأنه لم يعد ذكراً بل امرأة. ورغم كل المحاولات التى تزداد عصبيةً أقبض على فراغ، وأدرك: لا فائدة.

أستدير إلى الحائط صامتة. لا أعرف ما الذى انطفأ داخلى، أهى مجرد رغبات الجسد، أم رغبة الحياة ذاتها.. أسأل: لماذا تبكين؟ أى أمل تتطلعين إليه ؟! ومثل كل الأيام أنقسم على ذاتى، وأصبح ذاتين شرستين، كل منهما تقطع الطريق فى الاتجاه المعاكس.

أتلفت حولى خائفة، وأنا أسمع تنفسه الهادئ المستريح، وهو مستغرق فى النوم، والليل يهرب أمام أسئلتى. والمارد الذى تتضح معالمه كل يوم يحيط بى، مثل أخطبوط له آلاف الأيادى، يمسك بكل أحاسيسى ويهرسها، ليحيلها إلى جمرات مشتعلة لا يمكن إخفاؤها.

- إن خيانة النفس لهى أحط أنواع الخيانة.

= إنكار الذات ليس خيانة.

- كيف يَصدُق خائن لنفسه مع غيره؟

= أعيتنى الوسائل.

- بماذا تسمين الاستسلام والخضوع للفشل؟

أطوى الليالى عبثاً، أحايل أرقى. تخبرنى مرآتى فى الصباح بمرارة السنين التى تعيد بناء خريطة وجهى. وأقضى نهارى ضائقة بكل ما هو طاف لا يسبح، بكل الموجود لأنه موجود، وعليه أن يستمر هكذا، لا هو عابر للنهر، ولا هو عائد من حيث أتى ، حتى يعتليه كائن آخر يمد جذوره إلى القاع ، ويغطيه ، ثم يمتطيه تماماً.. لا أريد أن أكون مطية.

أتأمله من بعيد، يتكلم، يتصرف، يتخذ قرارات فى هدوء أعصاب، وثقة، وكبرياء. أحاول أن أعرف من هو؟ كيف يكون نفس الرجل الذى يستدير إلى الحائط حتى لا تلمس أصابعى بالصدفة مناطق محددة من جسده، باعتبارها محرمات؟ لم أعِ- فى أى وقت من حياتى- أن لجسدى حرمةً خاصة ، أراه جزءاً من تكوين وهبه الله لى بصورة طبيعية، ولا أفهم سر الغموض المحيط به، أو سر هذا التستر لإخفائه. ورغم هذا الانفتاح على الجسد، لم أتعلم شيئاً، ولم أعرف جسدى معرفة حقيقية. فالمعرفة لا تأتى دون أن يفجرها أحد.

أشعر بالمسافة الهائلة التى تزداد بيننا اتساعاً كل يوم. فى بداية زواجنا، لم أستطع أن أفسر لنفسى سر القلق الذى أحسه، ولا كيفية

طرح السؤال. أشعر أن جسدى فى حاجة إلـــى معاملـــة أخـــرى، لا أعرف ما هي. أنتظرها، ولا تأتى. أخجل من التعبير عما لا أعــرف كينونته تماماً. ترددت كثيراً حتى جاءت ليلة سألت:

- أحتشد لشيء لا يأتى. أخرج من تحتـــك فارغـــة، عطشـــى، منتظرة، أبحث عن ارتواء لا أعرف كيف أصفــــه. أدركــــه إدراكـــاً ناقصاً. أعرف أن بداخلى طاقةً تريد أن تتفجر بصورة ما، لكننـــى لا أعرف كيف. كأن هناك حاجزاً يحول دون بلوغها.

أدركَ ما أردت، لكنه لم يخبرنى بالمعنى الذى عرفته بعد وقـــت ليس بالطويل، وعلى فترات وعى تتقدم ببطء. قال متهرباً من شرحى المفاجئ لحالتى:

- بعد أيام ستصلين وحدك لمبتغاك!

لم يدرك- أو ربما أدرك- ساعتها أننى مازلت على براءة عـــدم المعرفة، والتشكل. صدقته، دون أن أحدس بالمعنى. وعرفـــت بعـــد سنوات أن هذه الليلة قد سنت القانون الخاص لهذه العلاقة إلى الأبـــد: ستصلين وحدك لمبتغاك، وحدك. كسر الحلقة التى تصورتها تربطنـــا وتوحدنا، دون أن يقلقه حتى حرج.

هل يختلف موقف الرجل مع امرأته عن موقفه العام فى الحيـــاة؟ هكذا سندخل إلى التفسير الجنسى للتاريخ !! بعبـــارة أخـــرى، هـــل يختلف موقفه فى علاقته الخاصة بى عن موقفه العام من الحياة، مـــن العمل، من الدخول فى صراع لكسب قضية ؟! إنه نفس الإنسان الذى إذا احتدم النقاش للوصول إلى نقطة يجب أن يتخذ فيها قراراً قاطعـــاً، انتظر أن يتمسك أحد الموجودين بوجهة نظره؛ وإذا اضطر لاتخـــاذ

القرار، فر فى نفس اللحظة إلى الزمن كى يقوم بواجبه فى التسوية. متى استطاع المواجهة، هو الهارب الدائم من مواجهة أسئلة مصيرية؟

يا الله ، ماذا فعلت بنفسى ؟!

دعـوة

لم أعرف امرأةً غيرها، منذ تزوجنا. منحنى الزواج أسوأ ما فيه، والعزوبية أسوأ ما فيها؛ فلا أنا تزوجت زواجاً تقليدياً أمدنى ببيت مريح وأطفال، ولا بقيت أعزب أختار من الحياة ما أريد وأتنقل بحرية دون قيد.

جاء انفجارى هذه المرة بسبب رفضها الالتزام برعاية شريف، فى فترة سفرى. كانت ولادته قد جاءت رغم إرادتها؛ إذ كانت تريد تأجيل الحمل عدة سنوات إلى أن تستقر فى مصر تماماً، وتأتى بأسرتها من نابولى، ولم أعارض. لكنها حملت فجأةً، ورفضت أنا مبدأ الإجهاض، وطمأنتها بقدر طاقتى أننا سنتجاوز المصاعب. تعاونت معها فى تربيته، تعلمت إرضاعه صناعياً، بعد أن فشلت فى إقناعها بتغيير جدولها، والتوقف مؤقتاً عن السفر مع رحلات الشركة. قالت إن العمل عمل، ولا يتغير بحكم الظروف، بل الظروف هى التى تتغير بسببه. هكذا، وجدت نفسى مسئولاً بالكامل عن رضيع.

وصلتني دعوة عاجلة من المغرب. هي المرة الأولى التي أدعى إليها، رغم معرفتي بكتابها وصداقتي معهم، منذ زمن طويل. أحلم بزيارة الدار البيضاء، والرباط، وجبال أطلس، وفاس، ومقابلة أصدقائي محمد شكري والأشعري والميلودي شغموم وبن سالم حميش وعبد الحميد عقار وغيرهم. كثيراً ما التقينا في الخليج، في الأردن، وحتى في مصر؛ لكنها المرة الأولى التي نلتقي في بلدهم. فكرت في ترتيب زيارة لمراكش الحمراء، ورؤية ساحة الفناء، ولقاء غواتسيلو الكاتب والمناضل الأسباني الشهير، الذي اتخذها موطناً. رحت أزف إليها النبأ سعيداً باشتراكي في ندوة دولية، قلقاً من ضيق الوقت. لم تمهلني حتى أكمل لها موضوع الندوة. قالت : أنا مرتبطة برحلة في نفس التوقيت، وعليك البقاء مع شريف.

- شريف معي في كل رحلاتك. أبدلي الجدول مع أحد زملائك.

= أنت تعلم جدولي مقدماً، والدعوات المحترمة تأتي في مواعيد مناسبة، وقبل وقت كاف، ليهيئ المدعو ظروفه.

- هذه دعوة لها ظروف خاصة.

= مستحيل.

سافرت هي إلى الأقصر بعد معركة، واستخرجت تصريحاً بغياب شريف من المدرسة، ثم اصطحبته إلى أمي في القرية، وأنا أعلم أنها ستتصرف رغم كبر سنها. هدوءها أشعرني أكثر بجريمة ماجي. لماذا لم أجد مثل هذه الراحة عند امرأتي. أسلمت نفسي للرحلة، وتحاشيت ما يذكرني بها، دون جدوى. رحت أتأملها عن بعد، وأسأل نفسي: كيف أحببتها، ولماذا؟ هل كنت مخدوعاً إلى هذه

الدرجة؟ أم أنها امرأة أخرى، تبدلت مع الزمن؟ تتهمنى بأنني سبب عدم انتظامها في تدريب البيانو، رغم أننى لم أمنعها أبداً- تقول منعتنى مسئولياتك- أتأمل هذه المسئوليات، فلا أجد لى بيتاً، بل فندقاً يأوينا معاً، يقدم وجباته ثلاثة أيام فى الأسبوع، فى مقابل قيامى بالخدمة الأيام الثلاثة التالية؛ ثم يوم راحة، حر، على النزلاء اختيار مكان الطعام فى الخارج.

فضلت الاهتمام بالسياحة على العزف على البيانو، فى ظروف احتراق الأوبرا، ووجود فرقة موسيقية رسمية وحيدة، اعتبرتها متخلفة. وراحت تمنى نفسها بتغير الأحوال مع بناء أوبرا جديدة، تعرف أنها تحتاج إلى أعوام، قبل أن تظهر للنور. كان هذا اختيارها، فلماذا؟ ألقيت بالأسئلة إلى السحاب، قبل أن نهبط فى مطار مراكش. مبنى صغير جميل من طابق واحد، سرعان ما شدنى إلى بؤرة التقاء الحضارات. طراز عربى أندلسى بديع، حوائط من فسيفساء ذات طابع خاص، قالوا لى اسمه "زليج". حميمية اللقاء بالأصدقاء، وعادة دربت نفسى طويلاً عليها للاستمتاع بالرحلات، هى ترك الأزمنة والأمكنة الأخرى خلفى، أدخلتنى بسرعة إلى عالم مراكش الساحر، وحوارات المؤتمر الساخنة.

فى مساء اليوم التالى، تقدمت منى فتاة نحيلة، رقيقة الملامح، سمراء تشبه أية فتاة مصرية فى شوارع القاهرة، وسألتنى إن كان يمكنها مقابلتى فى الغد، لتدير معى حواراً حول بحث تجريه عن الرواية العربية الحديثة. قلت: مسافر فى الصباح الباكر إلى فاس.

علا وجهها شحوب واضح، ثم سألتنى: ماذا ستفعل الآن؟

قلت، وأنا مشفق عليها من هذا التغيير الذى ألقيته على حاجتها

لمواد بحثية: سأذهب مع أصدقاء إلى ساحة الفناء. رأيتها صباح الأمس، وأخبروني أنها أكثر سحرا في المساء. تعالى معنا.

دخلنا إلى كتاب ألف ليلة وليلة. قابلنا جحا بالعشرات، وقف كل منهم مرتديا طرطوره الشهير، كأن الزمان ما مر من هنا. ساحة لاستعراض الثراء الفاحش، والفقر المدقع. أمسكت يدها بخصرى بقوة، وتشبثت أنا بكفها الأخرى، حتى لا نتوه وسط الزحام. ليل مورق بأضواء ملونة خارجة من مصابيح العربات التى تتحلق حول الساحة الواسعة. رقصات بربرية على إيقاع بدائى لصاجات متعددة الأجزاء، متشابكة معاً، خليط بين التصميم المصرى والأسبانى. يدورون وهم يطوحون الرأس بزعبوط مقلم بألوان فاقعة. يغنون بكلمات لم أفهمها، مست نبع الحواس الأفريقية فى بدنى: قراداتية وحواه. ثعابين كوبرا مسالمة، أحاطوها برقبتى، وهم يضحكون، عرافون ولاعبو الثلاث ورقات، موشوشات للودع، معالجون شعبيون، وبائعو أعشاب طبية. قالت لى بديعة إن نجمات هوليوود يأتين خصيصاً للحصول عليها، للاحتفاظ ببشرة شابة، وصحة قوية؛ إذ اشتهر البربر بسر الشباب. عالم واسع يشبه الموالد الكبيرة. تجمعات للسياح تدور حول كل عرض، فى بقع منفصلة، رغم الازدحام والالتحام، كأن الساحة كلها خلية حية لحيوان خرافى، تتحرك أجزاؤه فى رعونة لا نهائية.

تساءلت: كيف حولت يا مراكش ساحة الفناء، التى أفنت الجيوش، إلى ساحة للفرح؟ وكم آلفت من بشر وقعوا فى أسر هواك؟! التصقت بجسدى، وشعرت بها تطوق ظهرى، كلما رأت انبهارى بشخصية من شخصيات الساحة. ثم ألقت برأسها مداعبةً فى حضنى، كأننا عاشقان منذ حكت شهرزاد. راقصتها مع الراقصين،

ورحت أدور من حلقة إلى حلقة، حتى ألفينا أنفسنا خـــارج الدائـــرة، وزخات المطر تفرق الجمع. ألقى كل لاعب شخصيته إلى الجـــراب، وارتدى أخرى فى ثوان، وانفضت الساحة فجأةً من البشر كمـــا لـــو كانت خاليةً منذ الأزل. غطيت عربات المكسرات الحلـــوة، وظـــهر اللون الأحمر الذى يشبه الدم يسيل فى الطرقات، بعد أن اختلط مـــاء المطر بتربة الأرض الغنية بالحديد.

انفلتنا إلى السوق المسقوف بأشياء مهترئة. متاهة من الشـــوارع تفضى إلى أزقة تضيق وتضيق، حتى تتفتح عـــن ســـاحة صغـــيرة، تتوالد منها شوارع تتلوى، مثقلة ببضائع مكدسة فـــى أكـــوام، يقـــف وراءها الباعة يحايلونك بخفة دم أن تأتى إليـــهم. أســـكرتنى رائحـــة العطارة الأفريقية والآسيوية، وسرى فى حلقى طعم خاص، ذكرنـــى بشذى شهوة امرأة تحب.. صحبتنى إلى باب غرفتى، وتقدمتنى إلـــى الداخل، وجلست تصب شراباً لى ولها، فيما رحت أغتسل بماء دافئ، أحببت بخاره المتصاعد إلى أنفى. مغمض العينين، شـــعرت بيديـــها تلفان حولى فوطة كبيرة، وجسدها يدفعنى إلى كنبة تتوسط الغرفـــة، وتعطينى الهاتف.

- اطلب الطعام.

نفذت كأننى اعتدت طلباتها، وتركت مشاعرى حرةً لاســـترخاء يدغدغ أعصابى، وأنا أراها جالسةً إلى قدمىَّ تدلكهما، وتنتقل بأصابع مدربة إلى ساقىَّ حتى احتوتنى تماماً. نصف غائب، أرقب الوقـــت، وأسترق السمع لوقع الأقدام على البساط خارج الغرفة، فـــى انتظـــار النادل، وهى مستغرقة، تمتص لذتها على مهل. أحاول أن أبلل شـــفتىَّ بالكلمات، دون جدوى. مؤجج الرغبة، ممزع القدرة. أريد أن أســـبح

إليها فى عرشها الذى يفترش جزيرةً طافيةً تحركها الريح. لا أواجـه ما يمنعنى من الغوص. هل هى الخمر؟ لم أشـرب مـا يسـكرنى. حاولت حتى عثرت عليها، وخرجت محترقاً من درب لم أسافر فيـه من قبل، وغفوت فى وهج انبثق من صدرها، ليس كمثله شىء!!

رن جرس الهاتف، وسمعت عامل الاستقبال:

- من فضلك، ممنوع استقبال ضيوف فى الغرف.

لم تنتظر. قفزت إلى ملابسها قائلة:

- لا تأسف على شيء؛ فى الغد أرحل معك إلى فاس.

ودعتها، وكيانى الذى أصابه صحو مفاجئ مازال راغباً فيـها.. كل هذه اللهفة، لماذا؟ تلفت حولى، أمسكت بشذاها، ونعست.

تنقلت معى فى المدن، تحكى عن الأمكنة قليلاً، وعـن أبطـال رواياتى كثيراً، وعن إعجابها القديم بى. أخبرتنى أنها اختارت لبحثها أقرب موضوع يمكنها من لقائى، وأنها ستأتى إلى القاهرة قريباً:

- ستكون فى انتظارى. أليس كذلك؟

لم تعرف أنها كسرت نظاماً صارماً كنت قد الـتزمت بـه مـع ماجى؛ لم أعرف امرأةً غيرها منذ زواجنا. وكنا قد اتفقنا إذا تعـرض أحدنا لنزوة أن يخبر الآخر. قررت ألا أخبرها، حين اجتزت عتبـة البيت. عرفت أن ما حدث مع بديعة سيحدث مع غيرها، وأن الحـاجز الذى تحطم لا يمكن إعادته لسابق عهده. لم أشعر بذنب، أو بتـأنيب ضمير؛ بل شعرت- كما قال لى أحد الأصدقـاء، ذات مـرة، أننـى متزوج أكثر من اللازم.

ألقيت تحية المساء، ردت باقتضاب. لم أهتم. دخلت إلى غرفة شريف، ووضعت فيها هديته، في مكان يكتشفه لحظة دخوله. وحسبت الساعات الباقية إلى الصباح، حتى أسافر إلى قريتي لأعود به. شعرت ساعتها أنني رجعت إلى مصر، وإلى من ينتظرني حقاً.

صبـــاح

كنت أرقبه بعينين ذاهلتين، دامعتين، من خلف زجـــاج غرفــة الرعاية المركزة، والأجهزة تضخ الأكسوجين إلى رئتيـــه، وتســجل حركة القلب، فى حين استسلم لها براحة تامة، مسدلاً جفنيــه. انبثــق طائر الموت يريد أن يحسو منه الحياة، فرد جناحيه فـــاحتلا فضـــاء الغرفة، فأشار أبى بيده لأدخل، رغم تحذير الأطبـــاء. أزاح كمامــة الأكسوجين ليحدثنى، وأنا أرجوه ألا يفعل.

– لماذا تبكين؟

لم أستطع النطق، وكل خلية فى كيانى تهتز.

– أنا سعيد برحلة حياتى. عشت عشرة أضعاف مـــا عـــاش أى إنسان. استمتعت بكل ثانية، وحققت ما أريد. ليتـــك تتعلميـــن كيــف تتمسكين بها، وتجنين ثمارها.

ضغط بيده على ساعدى بقوة آلمتنى، فهربت الدموع من وجهى.

– كل لحظة هبةٌ من الخالق، عيشيها، احذرى أن أراك باكية.

خرجت وأنا أعرف أنه سيهزم الجلطة المفاجئة بقوته الروحية، وهزمها، وفى المرة التالية هزمته. لم أعرف وأنا أودعه- صامتةً- أن رحيله سيلعب الدور الأكبر فى حياتى. لاحقنى السؤال الذى يداهم الناس فى منتصف العمر: ماذا حققت، وماذا أريد؟ لم أكن قد وصلت إلى الأربعين بعد، لكننى كنت قد شخت قبل الأوان. رغم أن كل من رآنى أضحك صدق الخديعة.

تابعت- بصفاء روحى، ودون لحظة أسف واحدة- كل ما فعلته بنفسى، وسألتها: لماذا يقرر إنسان ما أن يمشى فى الاتجاه المعاكس لهدفه، رغم وعيه بأنه يقتل فى نفسه جذوة الحياة، ويتشبث بكل المفروض عليه، بل ويخلق أسباب الدفاع عنه، ثم يطلق على هذا الفعل "التكيف" ؟

كانت الإجابة هى تفاصيل حياتى التى صنعتها بكامل الوعى والإرادة، وبقلب بارد أيضاً؛ رغم أننى لم أشعر يوماً بالانقسام على نفسى، أو حتى بثورة أو برثاء. وربما يكون كل ما شعرت به هو أننى كنت أربت على قلبى المطحون، إذا انفطر من الألم، وأقول له ببساطة: أنا أفهم!!

رحيل أبى أفرج عن المارد الذى ظننت طويلاً أننى أغلقت عليه القمقم، وألقيت بمفتاحه إلى عرض المحيط. ظهر أمامى، والظهر يسيل قائلاً:

- لم يعد التكيف ممكناً بعد اليوم. إرادتك الحقيقية ولا شىء آخر. لا حساب على ماض.

قراراتى فاجأت كل من حولى، اعتبروها ضد المنطق والعقل،

بل ضد الطبيعة. وما عرفوه عنى طوال الحياة، لـــم يكــن التغييـر فجائياً، كما توهم زوجى، فقد عزفت مارشاته منـــذ زمــن، وعلــت موسيقاه حتى وصلت الذروة.

يا الله.. لم أكن أراه تلك الليلة للمرة الأولى على هذا النحو، ولـم يغير تصرفه معى، على العكس، لكننى كنت أخرى دون أن يــدرك. حين تحرش بى، سمحت لرغبتى أن تتصاعد، وألقيت بها لحظـــة أن تركنى فى قمة اشتعالى مع انطفائه وانتهائه. ابتعدت، وأنــــا أخـبره بأننى كنت صندوقاً للفضلات طوال العمر. ورحت أصرخ بصـــوت مخنوق:

– ثقب. مجرد ثقب .

اتسعت الفجوة بيننا حتى ابتلعتنى، والكلمات تتلوى فى حلقى قبل أن تموت مختنقة. أزحته عنى فلم يفهم، وتساءل فى بــراءة مــازلت أحسده عليها:

= ماذا حدث؟

لو كان أدرك لهانت اللحظة. ربما تولّدت لحظات أخـــرى مـــن الاستسلام. لكن عدم إدراكه قطع الخيط، وعجل بانفجارى:

– لن أكون لك بعد اليــوم، فى كل مرة، تعدنى أن تكون معــى، لكنك تنســانى لحظة أن تدخلنى. هناك طبيـــب عضــوى، نفســى، صديق. أقولها لك من أجلك، لا من أجل أن ينصلح الحال بيننا. لقـــد استمرأت انتظارى لرحمتك، ورضائى بقسمتى، وهو ما لن يكون بعد الآن.

بكيت سنوات العمر الطويلة. بكيت الفشل، والجــوع العــاطفى،

والوحدة. بكيت احتراق الداخل، وفزع المعرفة من الالتفات للخلف.

- يا الله .. كل هذه السنوات مرت؟

اندفع يكفكف دموعى، ويتكلم. والكلمات تتجمع، وتعلو سحابةً لا معنى لها، لا تهطل ولا تتقشع. تماسكت فى نسيج شفاف، وحجبته عنى، حتى أدركت أننى أكلم نفسى، ولا سبيل لأى فهم.

جاء الصباح لى بطائرة طارت بى إلى أوروبا، إلى أثينا. لملمت كتبى، وأغلقت الأبواب على نار هائلة، وارتديت ابتسامةً ونفساً قلت إنها صافية.. كأننى كنت على موعد مع الصحو، نور أبيض بلا غيم، والطائرة تهبط بمحاذاة البحر. هل أنت ذات البحر الذى لعبت عند آخر دفقات موجاته، على حافة قارة أخرى؟ هل أنت من عرفتنى صبية وشابة؟ أمازلت تعرفنى؟ لو أستطيع القفز من وسط السحاب إليك، لفعلت. لا أعرف من أين جاءنى قناع ساخر، تلبسنى، فأحببت أن أنظر إلى الدنيا من أطرف ما فيها، لكنه سرعان ما تشقق تحت مطارق الأسئلة: كيف نراوغ ونهرب من أنفسنا؟ لا محل لك الآن، تركتك خلفى فى القاهرة الرصاصية، وأنا أقبض بكف وقلب مرتعش على كلمات بين دفتى كتاب، تبوح لى بما تخفى عن الآخرين؛ وكأنٍ مؤلفه حين خطه- قبل أن أراه بسنوات طويلة- كان يستودعنى سراً سيأتى أوان اكتشافى له.

ثلاثة

فَهــم

لن تستطيع مواصلة هذا الانفصال عن زوجها. هـــي ضعيفـة إزاءه، وهو يمتلك حقوقاً فيها يدركها تمامــاً. إن كــان قــد رضـخ لرغبتها، فهو يمرر ثورة يعرف أنها قصيرة، وكثيراً ما تحدث بيـــن الأزواج. سيعتبرها غضباً عابراً، وسيعيد المحاولة إلـــى أن ينجـح. التاريخ الطويل الذى يجمعهما يثبت قدرتـــه علـى استمالتها، أمــا تصوراتها عن حسم الموقف نهائياً، بسبب دخولها المستشـفى، فـهو تصور رومانسى بالفعل.

لا أشك فيما قالته، ليس أمامى غير التصديق، رغــم صعوبـة الأمر؛ لكنني فى النهاية أختلف معها فى تقديـــر الموقـف. معجـبٌ بشجاعتها، وبحسن إدراكه للأزمة، وتمريره لها. يبدو أننى لم أقـــدر حجم حبه لها.. ما الذى يجعل رجلاً يقبل وضعاً كهذا؟ فى الموضـوع شيء ما غامض، لا أعرف مصدره. فهل تخفى ناهد عنى شـيئاً، أم أن هذه هى حدود القصة بالفعل؟ فى داخلها حزن مرتبط بعلاقتها به، لا تفصح عنه، تراوغ، فلا أستطيع الإمساك بحدث واحد. هـــل هـو

الخجل؟ أم التدريب الطويل على السكوت عن الخاص. أقدر موقفها، لكنى لست رومانسياً إلى هذا الحد. أعرف أن ارتباطى بها لن يزيد على سنة، أو ربما سنتين، وينتهي كالعادة بالملل. لعن الله نتيجته فى اللامبالاة، فهى نهاية الحياة، وليس الموت.. أحبها كما لم أحب غيرها أبداً، لكن حذرى الطبيعي يمنعنى من الاشتراك فى تصورات واسعة عن المستقبل، أراها تنزلق إليها، رغم أننى على وشك طلاق ماجى الذى تأجل مرات، بسبب دخول ناهد حياتى. تستمع بصبر للمشاكل التى تفجرها ماجى، وترشدنى إلى الحلول بهدوء وهى تمتص غضبى. بعد وقت، لاحظت أن المعارك الدائرة في البيت هى من طرف واحد؛ لم أعد فى حاجة للرد، عندى واحة أستظل بها، وأمرر الوقت هناك بالاستغراق فى العمل، مطمئناً بدرجة ما على المستقبل، على غير ما اعتدت طوال حياتى.

الغريب هو الذعر الذى يصيب ناهد إذا ما ذكرتُ الطلاق؛ ذعر يدفعنى للشك فى جديتها للارتباط بى. أتأمل كيف تحكى عن بيتنا، عن العالم الذى سنجوبه معاً، عن الحياة التى ستوفرها لى لأكتب أجمل رواياتى، ثم لا تهدأ كأن جناً قد مسها، إذا عزمت على ترك البيت، ولو بمجرد التفكير؟ تدور حولى حتى تخرجنى من حالة الغضب، ثم تقتنص وعداً بتأجيل أى تصرف، تحلل ما حكيته لها، توضح خطأ تصرفى فى مقابل ردود أفعال ماجى، تستحلفنى التنازل، ثم تعيدنى إليها، وقد ضاع نصف التوتر أو ما يزيد. تعلق بعد فترة "لن أطلب منك طلاقها، أبداً، ستستهلك العلاقة نفسها دونى، فلماذا أكون طرفًا فى إنهائها؟ يكفى وجودى فى حياتك كعامل ضاغط". أؤكد لها أن المعارك كانت دائرة منذ الأيام الأولى لزواجنا، وأن علاقتي بها هى نتيجة طبيعية لما كابدته على مر السنين ...

أقرأ فى عينى ناهد سؤالاً أتجنب الإجابة عليه. أعلق أحياناً على علاقتى الخاصة بماجى بأنها علاقة منقطعة منذ زمن طويل، ممنياً النفس بذلك. وتتحدث ناهد عن ارتباط غير مشروط.. فى المستقبل. متى هذا المستقبل؟ لا تحدد. إذا ما انفصلت عن ماجى، فستطلب الطلاق على الفور. المفارقة تكمن فى رغبة ماجى التى تسير فوق خط متعرج: تريدنى بشغف، ثم تنسانى تماماً، وترفض رغباتى، بل تهرب منها. انقطعت حالة الشبق والجنون التى كانت فى بداية زواجنا، وتحول احتياجها للقائى إلى التحام يتم على فترات متباعدة. لا تسأل نفسها أبداً عن رغباتى، فإذا نبهتها، تتذكر ثم تنسى بعد قليل. الابتعاد فترة يعيدها إلى شبقها القديم لأيام، ثم تعاود الملل. لا أفهم سر التناقض الذى أصبح- بمرور الوقت- واقعاً..

أسأل ناهد ذات مرة: هل يمكن لاثنين أن يعيشا معاً، وكل ما يربطهما هو قدرة كل منهما على تسميم حياة الأخر؟ تقول: نعم، لأن ما يجمعهما هو نوع ما من الحب؟ = الحب؟ - الاستفزاز هنا ليس كراهية، بل رغبة فى الإثارة، رغبة مفعمة بالحياة.. تنظر نحوي بعينين متفهمتين، وتستطرد: نعم.. يا حبيبى، أنت لا تستطيع فراقها، وهى لا تستطيع فراقك.. وأنا أحبك بعالمك كله، بها وبشريف. لا أعرف إن كنت قادراً على إدراك هذا؟!

أتأملها، دون قدرة على الرد. هل مطلوب مني أن أقبل عالمها الآخر أيضاً، وأن أحبه؟ مستحيل!

مــراودة

مازالت تقلب أوراق رواية عمر "**متاهة**"، تنفرد بــها فــى ليــل الحديقة وسط السكون، تقرأها كأنها ترتشف شراباً معتقاً قطرة قطرة.

راح يراقبها من بعيد، محاولاً ألا تنتبه. يشعر بارتباكــها حيــن تكتشف أنه يتأملها، فيضيق بالشعور الذى يهوى به فجأةً إلــى أرض الواقع. "لم أر ناهد بهذا الجمال من قبل، استدار كــل عضــو فيــها، وامتلأت ببعض الكيلوات، كأنها تحولت من عذراء لأنثــى مكتملــة، واكتسب لونها بهجة الاشتعال. هل يعقل أن تأتى ذروة جمال المــرأة فى الأربعينات، أم أن حرمانى منها يجعلنى أضيف ما ليس موجــوداً فيها؟ لا: بريق عينيها الصافيتين، بضاضة جســـدها الفــائر الثــائر أثارنى بشدة، وهى تجرب قرطاً من الماس فى أذنيها، قبل الخـــروج إلى عرس شقيقتى. انقطعَت منذ زمن عن تبديل ملابسها أمــامى. وإذا اضطرت إلى ذلك، تدارى جسدها فى خجل يشعرنى بغربتى عنها".

– هل أساعدك فى إغلاق سوستة الفستان؟

= أرجوك.

مد يده وأزاح شعرها. ثم طبع قبلةً فوق كتفها العاري. شعر بارتجاف جسدها، فاستثار. طوق ظهرها بذراعيه، استسلمت صامتة، فلم يعرف إن كانت مستجيبةً أم لا.. انسلت من بين يديه مبتسمةً دون صخب، وراحت تعيد قرطها إلى أذنيها، ثم صاحت وهى تتأبط ساعده:

- أنا جاهزة؟

شاغبت كل من فى الحفل، ورقصت معه طويلاً "أعرف أنها تحب شقيقتى، وأنها سعيدة بزفافها، لكنها مشرقة إشراقاً خاصاً هذه الليلة. فيها ما يثير شوقى لها، ويبعث الحمم فى العواطف التى خلتها أصبحت رماداً. انتظارى لها يقتلنى، أحاول أن أنساه، لكنه يتفجر أمامى حين نتحرك وسط الناس فى بهجة، وأراهم يحسدوننا على سعادتنا؛ إذ أصدق ما تمنحه لى من مشاعر. كيف تكون لطيفةً إلى هذا الحد، وتحافظ فى ذات الوقت على المسافة التى حددتها بحسم بيننا؟

لقد أصبحت مثل زهرة تحتشد بكل طاقتها، قبل أن تنتهى حياتها القصيرة، منفرطة العافية، فجة الأنوثة. أعانى من فجور ثدييها اللذين انتشيا بابتعادى عنهما. كأنهما ارتويا فجأةً من بئر آخر، واستدارا فى تحد صارخ لى.

لم تعد محافظةً فى ثيابها كما اعتادت. تحررت قليلاً لتبرز مفاتنها. هل تعوض حرمانها من الرجل بالتظاهر بأنها مشبعة متخمة بالحب؟ وكيف يفيض جسدها بالشهوة على هذا النحو؟ لِمَ أشم رائحة رغبتها الآن، وكنت أعانى من هروبها المستمر من قبل؟ وكيف حصنت نفسها ضد صرخات الجسد على هذا النحو؟

"أريدك، لا شئ يعوضنى عن فقدانك"، راح يردد لنفسه حين عادا إلى المنزل بعد الحفل. أسرعت هي بتبديل ثيابها قبل أن يدلف إلى حجرة النوم، وارتدت قميصاً بسيطاً زادها جمالاً. رأى فيها مهرةً بشعرها المهوش وماكياجها اللامع الذى راحت تزيله بالكريم أمام المرآة. توهج وجهها بحمرة قانية أضفت على لونها الخمرى شباباً أعادها سنوات إلى الوراء، فتذكر تورد وجهها عند بلوغها نشوتها. حاول أن يضمها، سألته إن كان فى حاجة إلى طعام. نفى وهو يزداد التصاقاً بها. قالت إن الحفل أرهقها، وراحت تحكى قصص العائلة ونوادر الفرح، متجاهلةً ما كان يحاول استدراجها له، ثم قالت مباغته.

- تصبح على خير.

قبل أن يجيب، رآها تستدير إلى الحائط، وتأخذ وضع النوم مغمضةً عينيها. "أعانى من قدرتها هذه على القَطع، من سخونة مشاعرى، وإصرارها على الرفض. أردت أن أفيقها لأقول لها إننى أريدها الآن وفوراً. مددت كفى كي أسحبها من شعرها خارج السرير، وأجعلها تكف عن هذا التجاهل، بل أضربها إذا لزم الأمر، فسمعت صوت تنفسها المضطرب. لا تستطيع أن تخدعنى، إنها تتظاهر بالنوم، وتعانى مثلما أعانى. مازلت أحبها، وأعرف أنها تحبنى، فلماذا العناد؟ بل أكرهها. أكرهها بكل ما أوتيت من قوة على حبها ذات يوم. لم يعد أمامى غير الخروج من الحجرة، بعد أن تحول السرير إلى ساحة تغلى بالغضب المكتوم".

حفـــل

تعبت من متابعة موظفى الجمعية التعاونية التى اشـــتريت منـــها الشقة لكى استخدمها كمقر لمكتبى الصحفى. خدعونى بحلول لم تتـــم، واكتشفت حجم السرقات التى تمت فى الجمعية. وعرفت من امـــرأة- تسكن مع أطفالها وحيدة فى العمارة المجاورة- أن أحد كبار القـــوم- يرعى المشروع، ويمنع بنفوذه كل محاولات الحل، وأنه يرسل إليـــها بلطجيةً لإرهابها حين تعترض، لأنها ترصد كـــل مـــا يحـــدث فـــى المشروع بسبب وجودها الدائمِ فيه. اختفت ذات يوم. ولمـــا ســـألت، قالت لى العروس إن مجموعةً منِ الرجال اقتحموا بيتها، وإنها هربت بأطفالها إلى أن يهدأ الموقف قليلاً مع موظفـــى الجمعيـــة. حـــاولت الوصول إلى معلومات محددة؛ قالوا إن فرق الأسعار بين المقـــاولين جعل المشروع يتوقف عن الاكتمال، رغم أن الأعضاء دفعـــوا ثمـــن الشقق بالكامل، ولا تستطيع الجمعية أن تفسخ التعاقدات معـــهم، ولا تستطيع الإنفاق على اكتمال الأبنية، في نفس الوقت.

فاجأنى العروسان بخبر أقاما بسببه احتفالاً دعيانا إليه. لم نكـــن

نريد التورط معهما فى أى شىء يكشف عن حقيقة علاقتنا..

- دخلت الكهرباء .

هكذا صرخا، حين سمعا المفتاح يدور فى باب شقتنا. احتضنانا ودفعانا دفعاً إلى صالة شقتهما، ثم الحمام. ورأينا غسالة "فول أوتوماتيك" تتربع فى الركن تحت غطاء من الدانتيل الأبيض المزركش بورود فاقعة ..

- أخيراً لدينا الكهرباء.. وطفل..

قالت العروس ضاحكةً إنهما ينتظران أول مولود، بعد أن تأكدا من إمكانيات الحياة الطبيعية، وأنهما فى الطريق لشراء موتور ليضخ الماء الضعيف فى المواسير الآن.

هـــروب

يطفئ أنوار السيارة، ويجلس ليدخن سيجاره علـــى مـــهل فـــى انتظارى. أحاول جاهدة أن أتخلص من الحديث مع زميل قابلنى أمـــلم باب استراحة البعثة، أراد مناقشة موضوع يحتاج إلى وقـــت. أعـــده باستكمال الحوار فى الغد، بسبب موعد طارئ. أهرب قبل أن يـــدرك أننى لن أصعد إلى سيارتى. أمشى بجوار عمر حتى يفهم أن المنطقـــة ليست آمنة. أنحنى مع الطريق، ثم أدخل أحد المحلات لأشترى مـــا يصادفنى. يشغلنى سؤال: كم واحداً من هؤلاء الواقفين أمامى، فـــى الحيز الضيق، عرف الحب الحقيقى؟ وهل هناك إمكانية لاختبار كونه حقيقياً؟ كم تجربة مرت بكل منهم؟

أتطلع إلى البؤس الزاحف إلى الوجوه، وأمد خط التـــأمل، وأنـــا أعرف أن الحب يغير الملامح، يكسوها بهجةً وقوة، تحدياً واعترافـــاً بروعة الحياة. نظراتى الضائعة فى السؤال تقلق امرأةً ظنـــت أنـــى أرقبها. حين يسألني البائع عن النقود، أنتبه له ولها، أعطيه مـــا أراد، وتدخل المرأة فعلياً فى دائرة وعيى: من أنتِ؟ هل حققتِ مـــا عجـــز

غيرك عن تحقيقه؟ هل عرفتِ ما قدموه لــك، أم كسـرتِ الحـاجز، واخترتِ ما أردت؟ عند الحلاق تثرثر النساء، وكذلك فى المترو؛ كـم واحدة منهن أسرت للأخرى بأن شغفاً برجلٍ مس قلبها، وأنها تطلعت إلى اقتحام دائرة الممنوع، كم؟ أعود مسرعةً إلى عمـــر. وقبــل أن أغلق باب السيارة خلفى، يكون قد ركض بنا فى الطريق. ننفجر فـــى الضحك، مثل أطفال يلعبون "الاستغماية" بدلاً من أن أنفجر بالبكاء. لا أريد أن أعكر لحظتى الوحيدة الممكنة. تتسع الرؤية أمـــامى، أتكــئ عليها، رغم انقباض القلب الذى يعلن تمرده على ما يحــدث. وتفتــح الدنيا أبواباً جديدة، حين ألمح فى عينيه حجم الشوق الهائل للعنـــاق. نثرثر فى أخبار العالم الخارجى، كما نسميه، لأننا لا نسمح له لحظــة انفرادنا فى واحتنا بأن يطرق الباب.

يدهشنى إصرارى الدائم على أن يأتى لاصطحابى، بعد انتـــهاء وردياتى الليلية. فى مقدورى أن أستقل سيارة العمـــل أو ســيارتى، وأتجنب لحظة خروج الزملاء الذين يعرفونـــه جيــداً. ورغــم كــل الاحتياطات، فإن الصدفة كثيراً ما تفسد البهجة، حين أجد أمامي أحــد الزملاء واقفاً ليصافحه. أتعلل بأسباب متلعثمة، وينظر نحوى كـــى لا أبرر شيئاً، ويتهمنى بلفت نظر الناس بالخوف. نعطى ظهرنا للمدينة، وننطلق إلى كورنيش النيل إلى المعادى. أطالبه مرات بالتوقف أمـــام مرسى المراكب، والنزول إلى النيل، لكنه لا يستجيب. فـــى إحــدى الليالى، بعد أن شاهدنا عرضاً لفريق روسى شهير للباليـــه، تمشــينا، واكتشفنا طريقاً هادئاً فى الجزيرة المتسربلة بـــالصمت والخضـــرة. توسلت إليه أن نكمل اكتشاف الطريق على الأقدام. أمسكت بســاعده، والتصقت بجسده صائمةً عن الكلام. كلما حاول استدراجى ضاحكــاً، هززت رأسى، مشيرةً بيدى إلى أننى محلقة فى عالم آخر. لم يعــرف

أبداً حجم ما أعانى من عدم استطاعتي المشى بجواره، وأنـــا أتنفـس بعمق، وأخرج من صدرى كل الأسئلة دون أن أنتظـــر مــن الدنيــا إجابات!!

جسـد

- أحببت جسدك كما لم أحب جسداً غيره. علاقتى بـه تتجـاوز فعل الحب، وهو ما لَم يحدث مع أى امرأة = لأنك تحبنى - أحببـت ماجى، لكنى لم أتأمل جسدها، وعرفت أجساداً جميلةً فـى ذاتـها، لا الحب ولا الجمال هما السبب، لكنه شىء آخـر لا أسـتطيع تحديـده يربطنى بجسدك، وأتابعه بعشق فى كل وقت = أنـت الآن أنضـج، وأكثر معرفة بالحياة، منتبه لأحاسيس لم تكن لتنتبه إليها فـى مطلـع الشباب، ومع نساء أخريات - التأمل العميـق وارد، وعـدم عبـور اللحظة وارد أيضاً؛ لكن السبب الرئيسى ربما يكون من شعورى بأنـه بقدر رغبتى فى امتلاكك، واتجاهى ناحيتك، بقدر ما تبيحيـن نفسـك بالكامل لى دون حسابات. أشعر بامتلاكى له، وقدرتى على التعـامل معه، بالضبط كما أريد = ربما يعطيك لمسه إحساسًا مغايرًا، فأحببتـه - لا يمكن مقارنة ملامسته بملامسة أجساد أخرى، لأن التلامس مـع الأخرى كان ينتهى لحظة أن يتلاشى فعل الحب. نتحول أنا وهى إلى اثنين مستقلين، تفصلنا مسافة لا مرئية، وهو ما لم يتم بيننـا. لحظـة الالتحام متصلة، حتى وأنت تتحركين بعيداً عن متناول يدى. صنـع

العُرى الذى نحرص عليه ملمسًا آخرًا بصريًّا؛ لم تعد العيــن مجــرد أداة للرؤية، تبدلت وتحولت إلى أداة للمس، كما تفعـــل يــدى أو أى عضو آخر. العلاقة هنا ليست مع عضو واحد، بل هى علاقة شاملة، تختلط فيها الأعضاء والحواس = أليس مردود اللمس مختلفاً من جسم لآخر، أقصد اختلاف شعورك باللمس باختلاف الجسد، حتى لو كــان يقوم بنفس الآلية؟ - فى الحدود العامة المشتركة بين أكثر من امــرأة، تكاد تكون الأحاسيس واحدة. أعرف مردودها بمجرد ثبات التجربــة، وتحولها إلى ممارسة فعل الحب بانتظام. يبدأ إيقاع معين، ثم يتصاعد بطريقة معينة غايتها الوصول للنشوة. بعدها يتم الانفصال الفـــورى، وينقطع الإحساس بالجسد. لا يوجد داخل هذا الزمن أى تحـــولات أو أحاسيس جديدة غير متوقعة: تحرك غريزى حتى النهاية، خال مـــن الارتفاع والانخفاض، من السرعة والـــهدوء، وبالتـــالى تنتــج كــل الضربات الداخلية ردود فعل متوقعة وثابتة. معك لم تعد الميكانيكيـــة موجودة ، أو على الأصح غيرت من آلية حركتها. لم يعد الانتشـــاء النهائى غاية، ليس الهدف الرئيسى؛ بل هى رحلة فيـــها تعرجـــات، انحناءات، صعود وهبوط، تأخذ وقتها، نتشبع بـــها معـــاً، نستكشــف خلالها ما يطرأ على رغبات كل منا. يأتى أحدنا بحركة تبعث الحمى فى الآخر، أو تغرقه معه فى لجة فائرة، أو يجن بتعبـــيرك الأثـــير. زلزال يفتت كل المشاعر الآمنة، لا شكل له، ميزته أنه بـــاطنى فـــى عمق الأعماق، أشك فى إمكانيـــة رؤيتـــه مـــن الخـــارج، أو حتـــى ملاحظته؛ دفين يفتح دروب بهجة حارة ومرتجفة. =أعـــرف هـــذا، لكنى أيضاً أعرف أنه لا يتم بين كل جسدين. لكل جسد خصوصيـــة، احتياج لواحد بعينه، حتى يشعر هذا الشعور مع كل لمسة وضربـــة. لهذا، فرغم إدراك ماجى لتفاصيل رحلة فعل الحب، اختلفت النتيجـــة؛

ربما بسبب اختلاف الحساسية. من المحتمل أنها كانت فى حاجة إلـى تلامس من نوع آخر، لم لا؟ - بينى وبينك خصوصية تمتلكـها كـل طعنة، وأيضاً الاستجابة لها. مع امرأة أخرى، حتى مع وجود الحب، كل الضربات لها إحساس عام واحد، يتزايد فى اتجاه واحد، معك كـل واحدة تلمس معنى، تمتلك صفات أحسها حتى قبل أن تصـل إليـك؛ تختلف فى القوة، فى الطريقة، فى الزاوية، فى تلقيكِ أنتِ لـها، فـى استعدادك لامتصاصها، فى ذوبانها أو تلاشـيها. أشـعر بانفتـاحك أمامها، وتشربك لها، قبل أن تطلقى سراحها من أجل ضربة أخـرى. هنا كينونة لكل واحدة، منفصلة، شبه مستقلة، ولها شخصية =أعتقـد أن زمانها يلعب دوراً فى تحديد شكلها أيضاً، ولغتـها الإشـارية - قانون التحول والوثبات المفاجئة فى الزمن حفظ للهفة حقوقها = نعم، من البطء إلى الانزلاق، إلى عنف يرتج من هوله الجسد - أصبحـت رغبتى دائمة فى رؤية جسدك وتحولاته، ليست الداخلية وحدها، بـل الخارجية أيضاً = كنت أخاف من تأملاتنا الكثيرة، مناقشاتنا، أراهـا تكشف غموضاً محبباً، يعطى لفعل الحب سحره، لكن الوجه الآخـر لحوارنا جعلنا نفتح مناطق تنقلنا إلى مرحلة أخرى - تثيرنى النقلـة المذهلة التى تحدث لعينيك، من الصحو الكامل وأنت جالسة بجـانبى، إلى الغياب، فى أقل من الثانية. لحظة أن أغشاك، يتوه السـواد فـى البياض، ويغرق فى لجة تمتصه إلى الداخل رغم ثبات السطح الـذى تبدو شاشته صافيةً مسترخيةً لقدر بعيد، تنتظره وتستسـلم لنفـاذه = أنت تستطيع الرؤية بوضوح، لكنى لا أمتلك القوة لأرى مـا يحـدث لعينيك. لا أملك تركيزًا خارجياً. أدرك مـا يحـدث لـك بـالحس، وبالحدس أعرف أن ما يحدث لعينيَّ هو اختصار لما يتم فى جسـدى كله - إذا كان هذا يحدث لـهما، فمـاذا يحـدث لبـاقى الجسـم؟ =

الانسحاب يولد رؤيا داخلية لحركة الجسدين معاً، يلتئم الانفصال، وأشعر أن الأعضاء تنتمى كلها لجسدى، فتأخذ يدك إشاراتها من عقلى، وأرى الضربات ومساراها، وإلى أية نقطة تنتهى، لتفجر داخلى شعوراً بحركة سلك حر فاقد السيطرة على قوته الداخلية، يتلوى فيضرب الشرر فى مسار متعرج، لا يمكن التنبؤ بموطن لسعاته؛ أراها على شاشة عينىَّ اللتين غامت وأغلقتا نصف ستائرهما، وأضاءتا نوراً أسود دافئاً فى الخارج، وفتحت لكل الألوان نافذة الداخل، الذى يموج بحركة قانونها هو الطيش، تلامس أحاسيس متناقضة، فينطلق الماس الكهربى عكس الاتجاه المتوقع. أتتبعه بخوف لذيذ، محاولةً التنبؤ بمكانه؛ أتشبع بترقرقه على حافة اللحظات، قبل أن يتلاشى، وأستعد له ساعة أن يولد، ويعثر جسدى على نغماته فى مكان آخر - التحقق ليس روحياً فحسب، هو جسدى أيضاً =إنسان واحد يمكن للمرء أن يتحقق معه. ورغم رعب فكرة الفقد، إلا أنها الحقيقة كما رأيتها، وأنا صغيرة، لا أدرك أبعادها تماماً، وكما أراها الآن بعد كل هذا العمر. هل قلت لك إن طعناتك تمس روحى بحذر؟ نعم، يمكن لهذا الحس المادى أن يصل إلى روحى، هنا فى المكان الذى تنفجر فيه كل شرارات الإحساس بين ضلوعى، بل هنا ناحية القلب، أو هنا عند التقاء الرقبة بصدرى وسط هذا المثلث، أين روحى؟ هى عند مكان الطعنة، حيث يجب أن تكون!!

عبـــور

منقسمة بين عالمين، أحاول أن أتوازن، أن أكون صادقةً فى كـل منهما. أدرب نفسى على نسيان عالمى الأول حين أعبر عتبته، حتـى أستمتع بالولوج كليةً فى عالمى الجديد، الذى ينمو يوماً بعـد يـوم، ليصبح هو الحياة.

أدركت أننى فى حاجة إلى تدريب عقلى، كى يلغـى تفـاصيل البيت والأمومة ومسئوليات الأبناء والعائلة؛ إذ أن مجرد التذكر يفسـد إحساسى بكينونتى، وحقيقة وجودى وماهيته، ويجعلنى مثل عصفـور صغير جداً فى شرك كبير جداً. لم يفهم عمر لماذا أنتعش فى المـدن الأخرى، ما الذى يحدث لى حين أخلع ردائى الذى ما عدت أحتملـه، وأنطلق لأصبح كليةً له، كأننى ما وقفت يومـاً علـى أرض سـوى أرضه، وما عرفت عالماً آخر غير عالمه؛ كأننى صفحة بيضـاء، لا أعرف حساب الساعات. أحب أطفالى لأنهم أطفالى، دون أن أواجـه بسؤال عن الاختيار: الحب أم هم، أنا أم احتياجاتهم؟ أصـدق أننـى سأبقى فى هذه الحالة، وهذه المدينة للأبد. لهذا، فاجأه انفجـارى ذات

يوم فى مطار أسيوط.

كنا قد مررنا بقرية درنكة، حيث كان الدمار يوماً. لا أعرف ماذا حدث لى حين عبرنا إجراءات الدخول إلى ساحة الطائرة. لحظة أن انتظمنا فى الطابور، أمسكت به وأنا أبكى، علا صوتى وأنا أستحلفه أن نعود إلى الخلف ونؤجل الرحلة. احتضننى برفق، وهو يدفعنى- بحنو شديد- إلى المشى خطوات أخرى، حتى لا أعطل السير. وأشار بحزن إلى أننا سنلفت النظر.

- للمرة الأولى فى حياتى، لا يهمنى رأى الناس، لا أريد العودة. فلنبق أياماً أخرى، أرجوك.

قال باستسلام : مهما بقينا، علينا أن نعود.. سنحل المشكلة قريباً .. لا تخشى شيئاً. ازددت التصاقاً به، وهو صامت. لكن جسده الذى بدا قوياً من الخارج راح يرتجف، ووصلتنى ذبذبات اللوعة.

- كنت أظنك أقوى من هذا بكثير.

= أحب ضعفى معك، لأنه يشعرنى بإنسانيتى، وبأننى امرأة.

احتضننى بقوة أكبر، ودفعنى كطفل صغير إلى مقعدى. قام عنى بكل شىء؛ ربط حزامى وعدل من وضع ساقىَّ، ووضع حقيبتى فى الخزانة. استسلمت لصدره، ورحت أغوص بين ضلوعه. لم أعرف من استولى على عقلى، النوم أم الغياب. تلقينى خلسات الصحو إلى بؤرة السؤال: ما أشد تشابهنا، أنا والمدينة التى اجتاحها طوفان التغيير القادم على جناح الدمار. هل شرط النمو والتجدد اقتلاع الجذور الإجبارى؟ ألا يمكن للحياة أن تجدد نفسها بالتبدل، البطىء، المدروس؟ وكيف يكون التبدل البطىء المدروس ممكناً معى؟ إننى لو

خُيرت ثانيةً، ما اخترت إلا نفس الطريق الذى سرت فيه، وما فعلت إلا ترسيخ عبوديتى للعالم الذى أنشأته يوماً، بإدراك كامل. لم يكن اختياراً وحيداً تم ذات مرة وانتهى، بل كان اختياراً متجدداً فى محطات الحياة. كانت مها في الرابعة من عمرها حين قررت بالفعل الانفصال عن مصطفى يائسةً تماماً من إمكانية تفاعل حقيقى، وبدلاً من أن أبلغه برغبتى وأناقش معه التفاصيل، قررت أن أستجيب لطلب ابنتى الملح فى الحصول على أخ لها. كانت تتوسل لى قائلةً "عصافيرى زهئت يا ماما" (تقصد أن العصافير التى تعشش فى بطنها وتغنى لها حتى تنقر الطعام من أصابعى تعانى الوحدة).. ويأتى يوسف إلى الحياة كى يجبرنى بوعى شديد على أن أهيء له ولأخته بيتاً ثابتاً لا تطيح به العواصف. ما أشد قسوتى على نفسى، وعلى رغباتى.

كنتُ فى حاجة لمن يجذبنى- رغمًا عنى- ويدافع عنى ضد ناهد الأخرى، مهما سخرت من آلامى واحتقرتها. كنت محتاجةً إلى شخص قادر على فهم داخلى الحقيقى، دون أقنعة، يطيح بقدرتى على وأد رغباتى، يطالب بالجوهر، بالأصل، ويخرجه إلى الضوء دون أن يكسر المحارة. لم أكن بحاجة إلاّ إلى مُحب يفهم دوافعى، يفهم أمومتى وحرصى على مصطفى، كى يصل لى؛ يصلح المرآة، يسوى تحدبها، حتى لا تكبر مناطق على حساب أخرى، يعيدها إلى طبيعتها، فتتكشف لى الحقيقة كما هى، وليس كما أخاف أن تكون.

لم يكن مطار أسيوط هو خط العبور الوحيد الذى رفضت أن أجتازه انفجاراً، بعد أن تحولت أيامى إلى سلسلة من الانسلاخات، وأنا أعبر البرزخ بين العالمين. أحاول أن أهيئ نفسى لما سألاقيه من أسئلة وبشر. تتتابع علامات الطريق فى المسافة بين المعادى والهرم،

تذكرنى بطبول الحرب، لتعلن بقوة عن اقتراب اللحظة. أسمع هدير الميلاد- هل للموت هدير أيضاً ؟ أحاول أن أزيح عن جسدى رغبته فى الاستسلام للدفء الذى كان غارقاً فيه منذ قليل. أصم أذنىَّ عن توسلاته، كى يغفو محتفظاً بإدراكه للحظة انبثاق الروح وتسيدها العالم، كأنى أستعجل البرودة لتعلن حقيقة وجودى، وتعيدنى إلى الحاضر الشرعى المطلوب. ينسحب اللهب المشع فوق خدى، وتخفت حرارة أطرافى تدريجياً، والعلامات على الطريق تشير إلى المتبقى من الوقت والمسافة. أخترع قضيةً أُسلم عقلى لها، أوقظ أوردته، أدفعه لتذكر برنامج عمل قادم أرتب له حتى أغرق فيه، أنجح تارةً وأخفق تارةً، وأنا أتضرع إلى الله- وقلبى يعانى فلفصات الخروج من القفص- أن يعيننى على اجتياز العتبة، وأتحول إلى فراشة تدفع ثمن التحول والانسلاخ. أتذكر- دفعةً واحدة- كل المخلوقات التى كُتب عليها النضج فى أطوار مختلفة، وكيف تدفع الثمن مرةً واحدة فى العمر، وأدفعه أنا كل يوم. أرى البيت قادماً نحوى بسرعة، ربما لا يستطيع أن يتفادى الاصطدام بى. أعتصم بعالم لا وجود له، أصدق وجوده، أو ألغى كل الوجود الحقيقى والمتخيل، وأغنى فى محاولة الرفرفة والطيران إلى سماء ما، جنة أونار. ترتجف روحى، ويشرد عقلى، فأتصور أنى خدعته، وأنه نظم أروقته مع المغنى الذى يلتاع من الحب أو الهجر. وحين أضع المفتاح فى الباب، أكتشف أننى كنت أخدع نفسى طول الوقت، فأقابل المكان والبشر بالصمت، وأنسى تماماً العالم الذى جئت منه، والعالم الذى سبحت فيه فى فراغ العبور، وأفاجأ بهم كأننى أراهم وأدرك وجودهم للمرة الأولى.

لم يستطع عقلى الاعتياد، ولم تقبل روحى سياج القفص، وفاجأتني الحياة ذات مرة، حين اشتريت شريط موسيقى بيزنطية

بالصدفة من أحد المتاحف، أنها تستطيع أن تتسلل إلى قلبى، وتغلفه وتغرقنى معها فى غموض الكون، والتبتل إلى المجهول. أصبحت الموسيقى مثل مُسكر قادر على مساعدتى على اجتياز آلام العبور، فأتخطى عتبة البيت شبه غائبة، وتنسينى أننى آتية من عالم أحبه وأريده إلى عالم أحبه ولا أريده.

أخـــلاق

تجنبت مصطفى كثيراً إلى أن تجبرني الظروف على مواجهتـــه رغماً عنى. كنت فى حاجة إلى معلومات عن اكتشـــاف جديـــد فـــى منطقة الأهرامات للقرية التى سكنها العمال أثناء بناء الأهرام. سمعت بالتفاصيل فقررت تغطية الحدث، وأردت الاستعانة بنـــاهد لتســـهيل مهمتى. اتصلت بها، فأجابنى مصطفى وأعطاها السماعة. اتفقنا علـــى اللقاء فى إحدى كافتيريات المدينة. وانشغلت- حتى وصولها- بـــهذا الإحساس بالأمان لدى مصطفى، وكيف يمكننى خيانـــة هـــذه الثقـــة البديهية العمياء؟ كيف يمكننى كسرها، أو الاستمرار فى كسرها فـــى مواجهته وجهاً لوجه، كأن شيئاً لا يحدث. فاجأتنى ناهد قائلـــة إنـــه أوصلها بسيارته. قمعت داخلى فكرة أنها بعد نصف ســـاعة ســـوف تكون عارية لى، وأنه سيذهب إلى مكانٍ ما لانتظارها، والعودة بـــها بعد لقائنا. لقد أوصلها لى، وسيأتى لاصطحابها، دون أن يـــدرى أى شيء. ترى من الذى يحتمل مثل هذه الخديعة الفادحة؟ هو لا يـدرى، لكننى وهى ندرى ونصر عليه؛ فما هى حدود الصواب والخطأ؟ مـــن منا المخطئ؟ ومن المصيب؟ ومن أين تأتى هذه الطمأنينة المطلقة فى

الكون والبشر لديه؟ وكيف أسمح لنفسى باختراقها على هذا النحو؟

قلت لنفسى إن جهله رحمة. فمن الذى يحتمل المعرفة فى هـــذه الحالة؟ من الذى يستطيع دفع ثمنها.

لم يكن يدرى أنها بكت فى مطار أسيوط، لا تريد العودة، وأنـــها تشبثت بحضنى طوال الرحلة، دون أن تجف دموعها؛ حتـــى أننـــى كنت مرعوباً من فكرة استقباله لها والدموع فـــي عينيـــها. وحينمـــا وجدناه فى انتظارنا، كنت كأننى مُغمّى علىَّ من الأسئلة المعلقة فـــي رأسي بلا أجوبةٍ، والأوضاع التى بلا حل، وكيف يمكن انتزاعها منى دفعةً واحدةً هكذا، إلى الناحية الأخرى، رغم معرفتـــى بانفصالـــهما داخل نفس البيت. ما جدوى هذه الحالة كلها لـــه، أو لـــى، أو لـــها؟ تمثيلية عبثية، أو أقرب إلى ذلك، لا نستطيع الخروج منها أو كسرها. لن يتصورٍ أبداً، ولن أنسى أنه يلتقيها وهى ما تزال مبتلةً مِنـــى، وأن هناك خطأً ما- ليس صغيراً- فى استمرار هذا الوضـــع المســـتحيل علينا، لكنه الخادع حتى النخاع له. كيف يمكـــن أن يتوحـــد الوجـــه والقناع؟ أو تنخلع جميع الأقنعة، فيرى كلٌ منا الآخر على حقيقته بـــلا أوهام؟ من يستطيع ذلك؟

لكن البديل، هذا البديل المستمر الذى كنت أظنه اســـتثنائياً، أليـــم أليم كالسم البطىء. لاشك أنه يُعزى نفسه بمجرد الاســـتمرارية فـــى العلاقة بينهما، حتى لو كانت آيلةً للسقوط. لا يدرى أنها قد ســـقطت فعلاً منذ سنوات. لا يريد أن يصدق ذلك، ولا يريد أن يـــراه. كـــان سينقذنى برؤيته، أو أن رؤيته كانت ستصبح خلاصاً من تلك الأســـئلة العصية داخلى.

ما أكثر ما يبدو معها سعيداً، وهو ما شـــككنى- فـــى بعـــض

الأحيان– فى صدق نقلها لحقيقة العلاقة بينهما. أقول لنفسى: ليست تلك حالة رجل بلا علاقة مع امرأته لمدة سنوات؛ هذه الحميمية العفوية، وهذا الحرص الرحيم على سكناتها ولفتاتها، وهذا الدفء الذى لا تشوبه شائبة، كيف يتوافق مع كل ما تحكيه لى؟ هكذا تصبح كل مرة أراهما فيها معاً غابةً من الأسئلة الشائكة، عنه وعنها وعن علاقتنا، ومدى حقى فى هدم مثل هذه الألفة؟ من الذى منحنى هذا الحق؟ وكيف اغتصبته لنفسى؟ فى المرة القادمة، سأقول لها: إننى لا أستطيع الاستمرار، لم أعد أحتمل، حتى لو كان الثمن هو العودة إلى الخواء القديم والبؤس القديم، وصحرائى المجدبة.

لست أدرى ..

لعنـــة

– لا تتحركى قبل أن تتطهرى. كل خطوة، تلعنك فيها الملائكـــة ألف لعنة .. محرم عليك أن ترفضى له طلباً لجسدك، تحريم الشـــرك بالله.

لم أفهم هذا التناقض: كيف يكون اتصالنا الجسدى– هـــذا الـــذى يباركه الرب، إلى حد أن رفضه له قوة الشرك– ينتهى عنـــد حـــدود إطلاق مائه؟ ولماذا تلعن الملائكة خطواتٍ، بعـــد أن نفـــذت مشـــيئة الرب؟ أريد النوم فى سريرى، مستمتعةً بهذا الدفـء الداخلى. لا أريـــد لدُش الماء أن يبدده فى ثوانٍ.

عصر أحد الأيام، تتبعتنى امرأة غاضبة، وسألتنى: لقد خرجـــت إلى الشارع بعد العصر مباشـــرة، دون اســـتحمام. عقـــدت الدهشـــة لسانى، ولم أستطع أن أسألها، ما شأنها؟ صرخَت: ستجلبين الخـــراب على البيت، ومن فيه! استجمعت تركيزى بصعوبة كى أقول لها:

– ما أدراك أن شيئاً قد وقع ؟

مصمصت شفتيها، وأكملت، كأنها لم تسمع سؤالى:

- قلت لك .. لا خطوة دون طهارة.

لم أعتد الشكوى، ولم أتفوه بكلمة. لكنى بدأت ألاحظ موافقته على الفكرة، وهو ينزلق من السرير إلى البانيو؛ فلا تقطع قدماه أكثر من أمتار الردهة لينفذ تعاليم الأجداد. لم أشعر داخلياً بأية رغبة فى الحرص على هذا الطقس. حتى حينما كنت أقابل الدُش البارد فى الفجر، كان شغفى به شغفاً للماء وتنبيهه لروحى وجسدي، مثلما اعتدت طوال طفولتى وصباى، ولم أتصوره أبداً يزيل رجساً عنى، رغم أننى أردد الشهادتين بآلية أضافها الزواج ..

رجس.. استطعت إدراك المعنى الذى يريدون توصيله لى، بعد أن أصبحت امرأة. حين مات والد مصطفى ذات صباح، طلب الرجال ماء ساخناً ينقل إلى غرفة المتوفى. قمت لأعده، لأن الجميع كانوا مشغولين بالحزن. ركضت ورائى امرأة، قالت:

- لا تعده إلا فتاة بكر.

قلت : لماذا ؟

اقتربت هامسةً، تحاول أن تمد كفها فوق فمى، وتشير لى أن أخفض صوتى: لأن طهارتها مضمونة.

سحبتنى من يدى، مثل طفل نزق، وأخرجتنى من المكان، وهى مشفقة على جهلى الذى فاق حدود تصوراتهن.

باءت بالفشل كل محاولاتهن لإقناعى أن شيئاً ما قد تغير فىَّ، وأن عالماً جديداً له شروطه قد دخلته، حين أصبحت امرأة. ظلت

نظرتى لجسدى كما هى بلا رهبة، لا تستر مزيفًا، ولا تعنى الأعضاء إلا وظيفتها، ولا يعنى جسدى الآخرين فى شىء، كما أن أجساد الآخرين لا تعنينى. ولم أستطع أن أبدى خجلاً مصطنعاً؛ ذلك أنى لم أفهم كيف يكون جسدى شهياً لأحد، أو تكون فتنته فتنةً عامة. فقد كنت أتصور - ولزمن طويل - أن كل اشتهاء إنما يأتى من الداخل، من رغبة إنسان ما فى آخر بعينه، ونسيت تماماً أن جدى القديم كان يشتهى كل النساء، وأن جدتى القديمة كانت لكل رجل ترغبه.

كنت فى حاجة إلى أن أقطع كل هذا العمر، لكى أعرف معنًى آخر معك، معنى امتصاص أحاسيسنا على مهل، متعة الدفء بعد السعير، وهذه الطمأنينة التى تلفنا معاً، حين يختلط عسلنا ويسيل، ويعبث بأجسادنا مثل فرشاة رسام ماهر تصبغ أرواحنا بألوانها وشذاها؛ يمتد الطقس حتى يشبع هذا الذى يقبع داخلى، ويريدك بنهم، ويقبع داخلك، ويريدنى دون أن يرتوى.

غضـــب

لا نعرف وجع الوحشة قدر ما نعرفه إذا التقينـــا، بعـــد موعـــد اضطررنا لإلغائه. نتشابك دون أن نترك للوعى إدراك وامتصـــاص المشاعر على مهل. نتداخل، ننبسط فى ديمومة بلا قدرة لنـــا علـــى التوقف، حتى ليتأمل كل منا وجه الآخر، أو نمنـــح أنفســنا فرصـــة لنعرف ماذا حدث لنا حتى التقينا.

غبت عن موعدنا لأننى اصطحبت ماجى إلـــى طبيــب نســاء. وحين هدأنا، لاحظت قلق ناهد على ماجى، فطمأنتـــها أن الأمـــر لا يتعدى مشاكل السن، ورغبة الطبيب فى تغيير مانع الحمل، وخشـــية ماجى من تجربة نوع جديد لا تعرفه. نظرت نحوى نظـــرة طويلـــة صامتة، تغير فيها لونها إلى لون قاتم، كمن لوحته الشـــمس فجـــأة. انتظرت منى رد فعل لم أفهمه، وحين طال الصمت، سألتها باســـماً: أين سؤالك؟

- سمعتك تتهكم كثيراً على زملاء يعيشـــون حيـــاة مزدوجـــة: زوجة وعشيقة؛ امرأة تكفل وضعاً اجتماعياً لائقـــاً، بيتـــاً وأطفـــالاً،

مضمونة التصرف التقليدى، ثم عشيقة يحققون معها ما لا تحققه الزوجة لهم: الحب، والتفاهم، والحوار. وتضيف ساخراً: الغريب أنهم لا يستطيعون ترك الزوجة، واختيار امرأة أخرى؛ والأغرب أن بعضهم يتفاخر بحب زوجته، وعدم استغنائه عن الأخرى. سمعت هذا منك عشرات المرات، ولم أسألك أن تقدم لى صورة للعلاقة الخاصة مع ماجى، لكنك تطوعت بإخبارى أنها علاقة متقطعة. شهور طويلة من الانفصال، والعودة لأسابيع لا تستطيع الصمود فيها بمزاج رائق طبيعى؛ وأنك لم تعد بقادر على هذا التراوح، وبتعبيرك: ربما نلتقى فى السنة مرة أو مرتين. سؤالى هو: لماذا؟ لماذا هذا الكذب المجانى؟ وما ضرورته؟ أعرف أنك زوج، وأن ظروفنا حتمت هذا الوضع الشاذ. وحين أخبرتنى بانهيار العلاقة بينكما، قلت لك: لن أطالبك بطلاقها. تصرف كما تفترض علاقتكما معاً. أريد أن أعيش معك الحقيقة وحدها. نحن ندفع ثمن وضع اخترناه معاً بوعى. لا أريد زيفاً فى حياتى، وإلا فما ضرورة ما فعلناه؟ = لم نكن نعرف بعضنا بما يكفى، لنتطرق لهذا الموضوع – كم سنة تحتاج لتعرفنى؟ = أقصد ردود الأفعال؛ لا أحب رؤية هذه الدموع فى عينيك. عشت حياة صاخبة فيها من الغضب أكثر مما فيها من الهدوء. لا أريد صداماً لأى سبب. كنت أتجنب المناطق الوعرة خوفاً من تفجر مشكلة بيننا – لكنى لم أطالبك = الأمر أعمق من هذا بكثير، قلت لك يوماً أنك ستضطرين لتنقية الأشواك منى، حتى أعود صافياً لك. لم تكن حياتى سهلة – تدافع عن نفسك ضد فعل لم أقم به، تطلق أشواك قنفذ مذعور يدعى الشجاعة = أخلع أسلحتى على عتبتك، فلا تظلمينى – لقد جرحتنى. لن تدرك أبداً ما تغير فىَّ اليوم. كنت ستفضل أى شيء على دفعى لهذا الثمن، بلا مبرر واحد.

ألقيت رأسى فى حضنها، ورحت أضغط جسمى، أريد الاختباء ودموعها تغسل جبهتى، أريد رحمتها من هذا الألم ولا أستطيع. لم أثق يوماً فى أنها ستفهم هذا الازدواج، ولم أصدق فى هذه اللحظة أننا بالفعل قادران على إقامة حياة حقيقية عارية. حادثتها دون صوت، وتمنيت أن تصلها كلماتى، "لا أستطيع أن أكون كليةً لك، يدحرجنى الحنين لأغرق فى هذا الحب، يتصيدنى الشك: ماذا لو أننى مخطئ، وأنك قادرة على طعنى فى لحظة ظل، وتركتنىٍ، أو أنِ حبك لم يكن كما تتوهمين الآن. علمتنى الحياة أن أترك مساحةً، نسبةً لغدر الأيام حتى لا تفتك بىِ، وأنت بسذاجتك سويتنى رجلك الأبدى. كيف؟ لو كنت التقيتِ رجلاً آخر لكان قد استغل سذاجتك ليتسلى بك، أو يعاشرك لأيام، لشهور، ثم يتركك تتخبطين. أعرف وعورة هذا الأمر عليك، وأشفق من بساطتك، وأخاف- إذ وضعتنى بين شقى الرحى- أن أصدقك، فيصبح عالمى بيد غيرى، أو الظروف، وأهبك نفسى بالكامل، وأستمتع بنعمة عدم المعرفة، أو يبقى فى عقلى جزء يقظ تاركاً مساحة للحذر.

مـــرارة

صحوت ذات يوم على فكرة مذهلة: كيف كنت أطيق أى شـــئ يتعلق بمصطفى؟ كيف تحولت رائحة جسده إلى عبء يضيـــق بـــه صدرى، وأمست لمساته جحيماً؟ كنت أشبه بمن يروض طفلاً نزقـــاً، لكى يتعامل بتهذيب فى البداية أمام الكبار، ثم الآخرين، ثـــم أقرانـــه. أروضه ليقبل فكرة أننى آخر، لم يعد له. أنسل بهدوء مـــن عـــاداتى التى تراكمت على مدار خمسة عشر عاماً، أرتب احتياجاتـــه بآليـــة، ماذا سيرتدى؟ متى سيأكل؟ مواعيده، جدول الأبناء. أنظمـــها خـــارج ذاتى دون أن أتورط فيها، حتى تأتى اللحظة التى أخشاها كـــل يـــوم رغم انفصالنا؛ الدخول إلى سريرى.

لم أستطع حتى الآن أن أطلب منه جلب سرير آخـــر، حتـــى لا يلاحظ أحد من العائلة ما نحن مقدمان عليه. أريد قـــرارات ســـرية سريعةً لا تسمح للغير بالتدخل، ولا تشغل طفلىَّ قبل وقوعها. لـــهذا قبلت مشاركته الفراش، كأن شيئًا لم يحـــدث. اعتـــاد النـــوم قبلـــى بساعات؛ إذ أحتاج إلى الليل كى أكمل أبحاثى بعيداً عن الصخب، ثـــم

تواجهنى اللحظة التى أحتاج فيها للتحكم فى هدوء أعصابى حتى لا أوقظه.

أعتلى الفراش، وأحتضن حافته، ليصبح نصف جسدى خارجه؛ حتى إذا ما دخلت نسيج السكون بسلام، زحفت ليستلقى نصفى الآخر على المرتبة. فإذا نجحت فى عدم قلقلته- بعد أن نام لساعات متصلة كاد أن يشبع فيها- تبدأ رحلتى للسيطرة على أنفاسى التى تعلو، مرادفة لدقات قلبى المتسارعة خوفاً، أسمعها تتأرجح بين حوائط الغرفة. أكتمها دون جدوى، وأنعس نصف واعية، تاركة قرون استشعارى ترقب حركة يديه التى تأتينى وهو نائم، بحكم العادة، فتقبض على جسدى دون وعى. لا أستطيع الفلفصة حتى لا أوقظه، وتزداد نبضات قلبى دقاً فى معدتى، عاصرة إياها بعنف. أدخل فى استكانة إرادية، ناسية تمردات جسدى، حتى أطمئن لانتظام استغراقه فى السبات، فأستدير مبعدة يده، أو حتى يرهقنى الصحو فأنام.

تسبقه زفرات من لهب، قبل أن يلقى إلينا بتحيته مكتومة الغضب. أعرف أننى على وشك الدخول فى منظومة توتر، يعلم الله متى تنتهى. أجهز له الطعام، وأجلس أمامه حتى يفرغ، دون أن يبادلنى كلمة، أو يرد على سؤال واحد عن أحواله. يكتفى بهزة من رأسه، وهو يمضغ لقيماته بصعوبة. أنسحب إلى غرفة مكتبى، وهو إلى سريره. أعرف أننى سأراه قبل مرور ربع ساعة. أنتظره بقلب مرتجف، دون أن أعى حرفاً واحداً مما أقرأ.

أحتمى "بسليم حسن"، أضع كفى فوق مجلدات "مصر القديمة". ينساب كل ما علمنى إياه فى بدنى، دون أن أقرأ الأوراق. أعطى عينىَّ لـ"كلير لالويت" ونصوصه المقدسة، و"بيير مونتيه" و"الحياة

اليومية"، و"أرجى كمبا" وتشريحه للحضارة، إلى أن تقع عينى علـــى كتب "هنرى برستد". أترك له عقلى، وأفتح "فجر الضمير" عند أيـــة صفحة، وأقرأ الكلمات التى أكاد أحفظها عن ظهر قلب: "أما الآلهـــة فقد هجرت هذه الأرض. وإذا دعا الناس إلهاً لإنقـــاذهم، لـــم يجـب دعوته، وكذلك إذا استعطف الناس أربابهم لم تجب قط، فكانت قلوبهم فى أجسامهم عليها أقفالها".

يمر أمامى. يتوقف أمام طاولة الجرائد والمجلات يقلب فيها، ثـم يحمل بعضها- وهو يطقطق- دون كلمة. أتابع حركة أقدامـــه حتـــى المكان الذى يختاره. ينفجر غضباً فى ابنته التى تسأله إن كان يريـــد كوباً من الشاى. أقفز من مكانى، وأبعدها برفق قائلة لـــها: إن أباهـــا متعب من العمل. أربت فوق كتفه، منتظرة إخبارى بشـــيء أعـــرف مقدماً عدم وجوده. لا ينطق، أترك المكان دون قدرة علـــى العـــودة لعملى. أرد على الهاتف الذى يبدو لى فى هذه اللحظـــة إنقـــاذاً مـــن السماء، وأنا أتابع حركته تقطع البيت دون هدف. أخطئ فى إجاباتى، ترتبك الضمائر فى لغتى الأم، ويصبح هو هى وأنتَ أنتِ، ثم تتـــآكل الحروف فوق أسنانى قبل أن تعبرها. يصبح من المستحيل مواصلـــة الكلام مع المتحدث الذى يفاجئه ارتباكى. أفتح التليفزيون، وأســـتغرق فى مشاهدته غير واعية بما يعرض. يأتى صامتاً ليجلس بجـــوارى، يقلب القنوات بحثاً عن شيء ما، ويجهز كوب الشاى الذى رفضه من ابنته. وبعد ساعة من الدخان الذى ينشره دون صوت فـــى الغرفـــة، يغادر المكان إلى سريره. أضمن أياماً ثلاثةً على الأقل لـــن يحـــاول فيها لمسى. أعرف أنه لن ينام إلا لماماً، أرقد بجواره منتبهة لزفـرات صحوه الحارقة، التى تطرد ملاك النوم من جفونى. أسمع نداء الفجـر بعد ساعات سوداء، وأشعر بخطواته فـــى الصالـــة ودقـــات المـــاء،

فأستسلم للنوم!

تخزنى عيناه فى الظلام، رغم حرصه على عدم التقلب. أنتبه لجسده المحتشد الذى يقاوم الرغبة فى صمت. أغلق جفونى على صحوى المفاجئ. أستجلب الهدوء إلى أعضائى التى تصاب بتشنجات خوف داخلية. أحايلها على النوم، والحاشية والمرآة والدولاب، وحتى المصباح المنطفئ، تشع آلاماً. أرغب فى التربيت عليه، ولا أستطيع. أعرف أنه يعرف باستيقاظى، رغم أننى لم أهتز؛ مازال الحبل السرى ممدوداً بيننا، رغم هذا الانفصال.

أسأل نفسى فى حيرة: من صنع هذا الموقف؟ لقد دفعت الثمن ألف مرة، فلماذا لا يحاول- حتى مجرد محاولة- إدراك تضحيتى، وعدم قدرتى؟

أشعر بيده وهى تقترب بوعى من كتفى الأقرب له، بعد أن استدار جسدى للناحية الأخرى حتى لا أصبح معرضةً له. تتفتح جفونى على مصراعيها، مبتهلةً إلى الله أن يكتفى بهذا، وأنا أحس سخونة جسده قبل أن يلتصق بى. يحتضننى بقوة دون كلمة، وتمتد أصابعه إلى أعضائى تبعث صحواً لا يتم. أستكين كأنى لستُ طرفاً فى المشهد. بعد محاولات خائبة هنا وهناك، يتراجع إلى الطرف الآخر من السرير، وأسمع نحيب جسده المستعر.

أتمنى لو كان لى جسد آخر، غير هذا الذى تهرأ تحت وطأة التعذيب. يفجعنى ألمه، دون قدرة على أن أنفتح له. أطلب من الله أن يرزقه بامرأة أخرى، أن ينفطم عنى، أنتهز كل فرصة لأسرب له هذه الفكرة التى يرفضها قائلاً: إنه يعرف احتياجاته.

أصحو- ذات ليلة- على جسده يحاول اختراق ثيابى. وقبل أن أفيق، يكون قد قذف برغبته المكبوتة لشهور، قبل أن يبلغ المكان الذى اعتاد- لسنوات طويلة- أن يلقى فيه بشهوته المنفردة.

انقسام

اضطرت ناهد للمبيت طوال الأسبوع فى الاستراحة مع البعثة، حاولتُ استدراجها للمبيت معي يوماً واحداً، لكنها كانت تقفز على فخاخى بمهارة. وحين ضيقت الخناق عليها وأنا فى شدة اللهفة للقائها، قالت لى وكأنها تعامل طفلاً طال نزقه:

أحبك: لكنك تعلم مدى مسئوليتى. الحُلى التى وجدناها متناثرةً أثناء الحفر سرت أخبارها مثل النار فى القرى المجاورة. والفلاحون يتصورون أن العمال عثروا على كنز، وأنه مباح لمن يجده أولاً. الحراسة بسيطة، والعساكر لا يمتلكون الوعى بأن الثروة المكتشفة قيمتها تتجاوز كثيراً قيمة الذهب والأحجار المرصع بها. هى مسئوليتى وحدى، ويجب أن أشرف بنفسى على حمايتها.

قضينا معاً النهار حتى السادسة مساءً. ذهبت إلى موعد فى مقهى "زهرة البستان". وما إن جلسنا والتقى الأصدقاء، حتى جاءت ماجى. وجدتها أمامى قبل أن يجف البلل فوق جسدى، أو تختفى رائحتها منى. استشعرت خطوط حرارتنا معاً فوق وجهى، وارتبكت

داخلياً بعنف، رغم السيطرة على الشكل الخارجى. كنت أشـبه بمـن ضبط متلبساً بفعل فاضح، رغم أنها لا تعرف شيئاً.

استغرقتنى الأسئلة بقية الليل: كيف لا تجـزم امـرأة، زوجـها منصرف العقل والجسد عنها، بوجود امرأة أخرى فى حياته، رغـم شكوكها، وموات الحب بينهما، وجسده الذى ينضح برائحة حبيبتـه؟ كيف لا يصلها هذا، وهى تغسل ثيابه، وتشاركه فراشه، وتفتح عينيها فى الصباح على وجوده المتجهم؟ كيف لا تلاحظ انغلاقه على ذاتـه، وعدم قبوله اقتراب أحد منه، قبل أن يشرب قهوته، ويدخن سـيجارة، ويكمل طقوس حمامه، وينزع عنه أكفان نومه، رويداً رويداً؟ كيف؟!

سـهم

احتفلنا بصدور رواية جديدة لعمر. أطلقنا فرحتنا إلى السماء بصخب شديد. لا أشعر بفرحة تماثل فرحتى بكتاب له، أعرف كم يتعب فى التحضير والكتابة، أحس به يستقطر نفسه فى العمل ليخرج صافياً، شديد الكثافة، ويتركه وهو على حافة الانهيار. أحوم حوله، وأنا أموت من الرغبة فى معرفة ما يكتب. يعطينى فصولاً أحياناً، ويضن أحياناً. يقول: لست معتاداً على هذا؛ وأفضل أن أنتهى منه أولاً. لكنه تحت إلحاحى يتركنى أتتبع النمو.

قرر عمر شراء ثلاجة ومنضدة بمكافأة الرواية، وأردت شراء سرير. كنا ننام فوق حشية من الإسفنج على الأرض، ونسميها "الجهاز"، ونقول ضاحكين إنها أكثر صحية.

رفض عمر، لأنه يريد غرفة نوم كاملة حين تسمح الظروف. قلت: سينفعنا السرير فى المستقبل، سنضعه فى الغرفة الأخرى للأولاد. سأعيد تصميم البيت ليناسب بقاء الأطفال الثلاثة معنا.

– أية أطفال؟

= شريف ومها ويوسف. شريف ويوسف فى غرفة، ومها نضع لها كنبة ستوديو فى غرفة الطعام.

– لن يعيش الأولاد معنا. ماجى لن تقبل ابتعاد شريف عنها، فهو الوحيد من عائلتها فى مصر كما تعلمين، ولن تفرط فيه. مها ويوسف لم يعودا في حاجة إليك. يستطيعان الحياة مع والدهما.

= لكنى أُم أيضاً، ولا أستطيع البعد عن ابنىَّ.

– من قال إنك ستبتعدين. ابقَى معهما فى بيت جدتهما يومين فى الأسبوع، وزوريهما يوماً آخر. سندبر هذا معاً، وسيعتادان الحياة بهذا الشكل بسرعة. ليسا طفلين.

= مها فى سنوات حاسمة دراسياً. لا أريدها أن تواجه طلاق أبويها، وزواج أمها، وربما أبيها أيضاً، والثانوية العامة فى وقت واحد. لابد من إشرافى على جدول المدرسين، وإتاحة الفرصة لها لتحقيق حلمها فى دخول كلية الصيدلة، ومصطفى لا يعود إلى البيت بانتظام.

– لا أستطيع أن أعيش وسط جدول دراسى ونظام يشغلك ويشغل البيت الذى أكتب فيه. والمكان بعيد عن مدارسهما. ناهد.. أنا هارب إليك. يكفينى ضجيج ماجى طوال العمر. لقد رتبت حياتى على الانفراد بك لأبدأ مشاريعى المؤجلة. أخطط لملحمة روائية تحتاج كل وقتى وانتباهى لسنوات، ولا أستطيع البدء فيها إلا بعد الانفصال عن ماجى والحياة معك منعزلاً هنا. بل إننى أفكر فى الحصول على تفرغ من الجريدة، والسفر معك إلى مدينة ساحلية ننقطع فيها سوياً للكتابة. أنتهى من مشروعى، وتنتهين من أبحاثك.

أحلم برعايتك لى، ولا يوجد فى حلمى هذا الشكل الذى تفترضينه.

= لكنك لم ترفض من قبل أن يعيش الأولاد معنا. كنت أحدثك عن أحلامى فى تأثيث غرفة الأولاد، وأقول لك إن يوسف وشريف متناسبان فى العمر، وأن مها سرعان ما ستتركنا بالزواج، فلم أسمعك مرةً واحدةً تعترض. فما الذى غير تفكيرك فجأة.

- لم أغير شيئاً. كان هذا حلمك أنتِ، وصورةً فى ذهنك أنت.

= تريد تأجيل الطلاق إذن؟

- من قال هذا؟

= لأنى لن أترك طفلىَّ فى هذه السن دون رعاية.

- ترعاهما جدتهما.

= أعد التفكير أرجوك. أنت تذبحنى بينكما. ولن أختار الابتعاد عن ابنىَّ، ولن أتركك الآن.

- لا تؤجلى الطلاق. لكن لا تجعلى الاستثناء قاعدة، لأنه استثناء. وقد تنقلب الأوضاع فى أية لحظة بسبب صدفة سخيفة عابرة.

= أعرف خطورة وضعنا، وأعانى منه. أخفى عليك آلامى حتى لا أضيف أعباءً عليك، لكننى ممزعة تحت رحى التوازن بين العالمين. حياتنا بهذا الشكل لم تخطر لى على بال، لكنها جاءت كحل مؤقت حتى يجتاز الأولاد مرحلة احتياجهم الشديد لنا.

- لا تجعلينى أنتظر طويلاً. لا فائدة من شيء يأتى بعد الأوان. لقد رفض سارتر جائزة نوبل قائلاً "إنها لم تأت حين كنت فى حاجة

إليها، ولست فى حاجة إليها الآن".

= ما باليد حيلة، ولعلك تغير رأيك فى وقت آخر.

- لا. أعرف أن طفليك سيظلان طفلين فى نظرك مدى الحياة، وعليك أن تعرفى احتياجاتك الحقيقية الآن، ولن أعترض على قرارك، والشكل الذى تختارين لعلاقتنا؛ فأنا أريدك فى أى وضع.

= أنت لم تترك لى الاختيار.

أربعة

أسـئلة

شكلت علاقة ناهد بمصطفى علامة استفهام طويلة. ظاهر الأمـر يوحى بامرأة مستقرة فى زواجها، راضية، حريصة على وضع اسـم الزوج والأولاد فى الحديث مع الآخر، تحملهم معها أينما ارتحلـت. لكنها- من ناحية أخرى- لا تتحدث عن طبيعة العلاقة، وتكتفى بتلـك الإشارات الموحية. وعلى الآخر أن يفترض دلالة هـذه الإشـارات. كانت تقترب منى حثيثاً، دون أن تنطق بكلمة، إلى أن وجدت نفسـها فى حضنى، تقول لى: "أحبك"، بلا تفسير لعلاقتـها بذلـك الرجـل الآخر.

فى الفترة الأولى، وأنا أتأمل اطمئنانها، كنت محتاراً: هل أقترب اقتراب صديق، أم أنها ستفتح الأبواب على ما هو أبعد من ذلـك؟ لا إشارات، لا تلميحات، لكنها تقترب وتقترب، وتمضى معـى عشـر ساعات من الكلام، وعلى وجهها إمارات السعادة والاكتفاء؛ ثم تذهب إلى البيت لتحتل التليفون لساعات أخرى معى، لنكتشف أننا أوشـكنا على أن نقضى اليوم كله معاً. فأين الزوج فى كل ذلك؟ إنه الشـخص

الغائب فى الخلفية البعيدة، إلا فى كلمات قليلة، أقرب إلى الوصف الظاهرى. وحديث يشوبه الاحترام والتقدير له. لكننى سأنسى هذا الوضع برمته، وهذه الأسئلة المعلقة، حينما تلتقى شفاهنا لأول مرة، دون ترتيب مسبق لشئ. لم يعد مهما؛ فقد اكتشفت علاقتهما إذن فى هذه القبلة الأولى. أما التفاصيل، فستأتى بعد ذلك فى أشكال متقاطعة، متقطعة، وفي جغرافيات وأزمان مختلفة. وسيصبح الحديث عن هذه العلاقة حديثاً لا يجلب سوى النكد لها، لأتأرجح بين رغبتين، رغبة المعرفة، ورغبة عدم النبش فى الماضى الأليم.

فى المرة الأولى التى رأيتهما فيها معاً، بدا لى أنه لا يناسبها، على الأقل من حيث الشكل؛ فسمرته الترابية وملامحه ليست جميلة. وحينما اقتربت لأصافحهما، تمنيت لو لم أتعرف عليه.. ورغم أنى لم أقابله إلا مرات قليلة، جاءت بالصدفة، فقد انتبهت فى إحدى المرات إلى أنها تتحدث معه بألفة. ولاحظت أن أيديهما تتحركان معًا بحرية أشعرتنى بالغربة بينهما. فأين مكانى؟ هذان الاثنان متآلفان، فما الذى يدخلنى بينهما؟ وهل دخولى هذا أخلاقى؟ لم أرغب فى رؤيته أبداً بعد ذلك، أو رؤيتهما معاً، أو أوطد علاقتى به، حتى لا تكون هناك أية مسئولية أخلاقية تجاهه؛ فلو كنت قد وطدت علاقتى به، لكانت علاقتنا انفجرت.

سنة كاملة وأنا أظن أن علاقتها به طبيعية، وأتقبلها، وأطردها خارج رأسى. سنة كاملة، وهي تحدثنى عن ماض رومانسى قبل الزواج، ولا اقتراب من علاقتها الخاصة به التى تصورتها بديهية!

رفـــض

فتحت عينيها على خربشات أصابعه، ثم أغمضتهما بدلال، وهي تبتسم. لفتها رغبة عارمة في التقوقع داخل صدره، تستحلب متعة هادئة نشعت بها روحها، بعد أن أرهقا جسديهما في صدام عنيف. التفت على جسمها مثل حلزون مطمئن، وراحت تتلوى ببطء تحت مداعبة أصابعه، وتزداد التصاقاً به، دون أن تفك وضعها الجنيني. هشته بنعومة محاولة إبعاد كفه عن صحصحة أوردتها النائمة. لكنه أعاد المحاولات، وقبلها برقة علت تدريجياً، فانسلت من بين يديه، وتقلبت إلى الناحية الأخرى، مسلمة له ظهرها العاري. أعادها إلى وضعها الأول، استحلفته أن يتركها قليلاً، بابتسامة غائمة في النعاس، ثم وقعت مترنحة في دروب النوم، وهي تتابع بصعوبة حركة ابتعاده إلى حافة المرتبة، وتدرك بالكاد سحبه لغليونه وإشعاله.

تعالى إحساسها بأنه مطأطأ الرأس، يرفعه كل حين بمرارة، لينفث الدخان الذي فح بأسى قلقل رغبتها في الاستسلام اللذيذ لغموض اللحظة. تلاعبت بلورة صحو بانتباهها، وكشفت لها الفوران

الذى يغلفه السكون. لم تفهم السـبب، وهـى تغـالب السـقوط فـى اللاشيء. جرجرت اليقظة، وألقت بجسدها فوق ظـهره، واحتضنتـه بقوة لا تناسب خمول أصابعها المفككة، وأسلمت خدها لكتفه العارى.

- لا تفعلى هذا.. مرةً أخرى.

انتبهت للهجته الحاسمة، المشوبة بالغضب.

= ماذا فعلت؟

- لا ترفضينى مرة أخرى.

= كيف أرفضك، وأنت كل الحياة؟ استسلمت قليـلاً للاسـتمتاع على مهل. متعبة لكن سعيدة، أتشرب إحساسى وأنا غارقة فى حبك.

- تهربت من رغبتى.

= من علمنى تأمل المشاعر، بدلاً من عبورها؟

- ناهد.. استمعى لى جيداً: أسأل نفسى كثيراً، هل رغبتك هـى رغبة حقيقية بى، أم أنها مجرد رغبة لإرضائى؟ أسـتعيد مـا مـر بحياتك قبل أن نلتقى، ونفورك من علاقتك به، فيدهشـنى التنـاقض. هل تعيدين ما احتملته طوال العمر؟

= الظرف مختلف. اخترتك بإرادتى، ومسـتمرة معـك بسـبب رغبتى فيك. سرية العلاقة ألغت ضغط المجتمع عليها، فلماذا أحتمـل ما لا طاقة لى به. لا استمرار بيننا مـن أجـل أطفـال، أو شـكل اجتماعى، أو أية مصالح مشتركة. فعلنا هو الفعـل الـذى أحببنـاه وأردناه. الزمن ليس فى صالحنا يا عمر، ولا وقت لدى لفشل آخـر؛ لا وقت إلا للحقيقة وحدها، وما نريده فعلاً. لن أقبل أنصاف الأشـياء،

كما أخبرتك من قبل. لم تكن أنت السبب فى التحول فى حياتى، بـــل عهد بينى وبين أبى قطعته ليلة رحيله: لن أكون إلا نفسى، ولن أقبـل ألواناً باهتة، ولا مواقف مائعة، ولا قهر حتى لو كـــان قــهر حبــى لأطفالى.. توقعت من الزمن أن يمضى دون أن ألتقى برجل يحققنـــى كما أردت، أكون معه نفسى. وكنت سأقبل بهذه الصفقة مع الحيـــاة، بالتحقق فى أشياء أخرى، لكنها أرادت أن تقول لى: إنـــك تســتحقين عرامتى بإصرارك. لهذا قابلتك. الصدفة وحدها ما كانت لتصنع هــذا الحب، لكنها رغبة كلينا التى كانت قد نضجت بالفعل. لا يقـــع فـــى الحب غافل عنه أو لا مبال، بل إنسان مهيأ تماماً له. هل تذكر أغنيـة فيروز "أنا عندى حنين ما بعرف لمين"؟ هذه امرأة على وشك الوقوع فى الحب، أرسلت لها الدنيا موجةً من الحنين، ليكون كل مـــا فيــها منتظراً للقادم. ولهذا ستعرفه على الفور، وستحبه لا مـــن لحظـــة أن رأته، بل من لحظة أن شعرت بهذا الحنين للمجهول. وســـتقول لـــه صادقة: إنها تعرفه منذ زمن بعيد.

- أنا فى حاجة إلى تصديق هذا. أكدى لى مشـــاعرك، ردديـــها مرات، ما عاد فى العمر بقية لجرح، لا أريد رفضاً ثانيـــاً، لا أريـــد إعادة هذه التجربة مرة أخرى.

= لم تخبرنى أبداً بهذا الذى يعذبك. وخشيت أن أتلمس العلاقـــة الخاصة بينكما، لأننى لن أحتمل عواقب الحديث عنـــها، لا أريـــد أن تقتحم صورتكما معاً خيالى.. ضع رأسك فى صدرى، وقل ما تشاء.

- استخدمت ماجى رغبتى المتقدة فيها للضغط علىَّ، اســتخدمتها ببراعة ابنة باب الشعرية، لكن الفرق جوهرى بينـــهما. ابنـــة البلـــد تساوم بدلال لتحصل على طلبات صغيرة، تعرف أنها لو لم تحصـــل

عليها لن ترفضه، ستعطيه نفس المتعة، وتخبره أنها ستنتظر أن يحققها لها فى الغد. وهو يعلم أن قواعد اللعبة تقتضى أن يصدق كل منهما دور الآخر، يصدق غضبها إذا تباطأ فى تنفيذ طلباتها، ويصدق فرحها بحصولها على طلبها، وتصدق هى أنه يقبل مبدأ المساومة، فتغالى أحياناً، وتتساهل أحياناً. هذا جزء من طقس الغزل، من رقصة الطيور. هل تعرفين كائناً لا يمارس مناورات الغزل؟ وقف حبى لها حاجزاً بينى وبين الفهم.

تصورت أن ما يحدث بيننا مجرد لعبة، وقدرت اختلاف البيئة والثقافة، وتكوين الشخصية الذى يضفى على تصرفاتها تحديداً جافاً أحياناً. لكن العشرة كشفت لى أننا لا نذوب معاً، لا نتحول إلى كائن واحد، نحن اثنان دائماً، والأشياء التى كنت أتصورها بعيدةً عن بعضها، اتضح أنها تكمل بعضها. لم أربط بين تجمد أفكارها عن التحرر النسوى والمساواة، وعزلها المشاعر عن القضية برمتها، وفصلها الدقيق لمادياتنا، وقدرتها على استخدام الجنس كعامل ضاغط لابتزازى، رغم أن الصورة واضحة لى تماماً الآن. فقد اعتبرت علاقتنا الطبيعية أحد أسلحتها فى المعارك معى. وبدلاً من أن تتحول رغبتنا معاً إلى وسيلة لإعادة الاقتراب الحميم، تحولت إلى أحد أسباب انفجارى. لاعبتنى بمهارة، تستدرجنى، حتى إذا تهيأت فتحت موضوعات شائكة تطالبنى برد فورى عليها. قبل أن أفهم مسار لعبتها، كنت أطالبها بتأجيل المناقشة قليلاً، وأستمر فى الانزلاق فى الشرك، تاركاً الانتباه خلفى. أغويها، فأجدها أكثر يقظة: عقل منتبه، وتحفز يسرى نحوى، فيخرجنى من حالة الود التى كانت تدثرنى فى تلك اللحظة. ومع الوقت، لاحظت آلية التعامل معى، وتعرفت على ملامحها، واتخذت ساتراً للحماية. تركت لعقلى نصف صحو. ومع

هذا، فكثيراً ما وقعتُ فى المصيدة، لأننى كنت راغباً فيـــها بـــالفعل. أحبها، وجسدى يطالبنى بمتعته معها، ولا أرى سبباً واحداً لكى أكبـــح نفسى. كم مرة اندلعت العاصفة فى لحظة لســـبب تافــه، أو لقضيـــة ثقافية محضة، كان يمكن تأجيل نقاشها لوقت آخر. شكسبير.. هل هو شاعر انجليزى حقيقى أم أسطورة؟ هل هو شاعر واحد أم مجموعـــة شعراء كتبوا تحت نفس الاسم؟ = لكنها قضية طريفـــة لـــم تحســـم، طرحها بعض الباحثين، ولم تثبت صحتها. - إذا قلت هذا، لا تنتـــهى الليلة على خير. لابد أن تترك الغرفة لتـــأتى إلـــى الســـرير بـــآراء الباحثين. ولا مانع، بعد شهرين، من أن أجد فى البريد كتاباً جديـــداً، أو حتى أبحاثاً مصورةً من كتب مختلفة، أو صحفاً تعضد رأيها، لكى تثبت لى أنها كانت على حق، ثم تفتح الموضوع من جديد. تـــتركنى حين تشعر برغبتى فى ضمها، وتمضى إلى عالم آخر لكى تؤكد لـــى أننى فى حاجة إليها. فعلت هذا بنعومة وحرص ضللنى فـــترة، ثـــم بشراسة، كانت تبقينى أياماً لا أستطيع مجرد التحدث إليها.. بيـــت لا تسمع فيه كلمة "صباح الخير" لأيام. حتى إذا تصافينا، وجـــدت بيـــن يدى امرأةً نهمةً للجنس، تمارسه بشبق مرات عديـــدة، تنســـينى مـــا حدث. أعود لأصدق حبها لى، وأقنع نفسى بأننى واهم، وأن مفـــردات لعبتها لها دلالات أخرى. حالة تعويض غريبة، يفتـــح جســـدها كـــل شرفاته لى، ويعطينى متعةً صافيةً رائعة.

تقبل على عزف البيانو، وتنطلق دقاتها فى مهارة معجزة، تتمايل عليه وهى متحكمة متسلطة، فيعطيها ويعطيها. يخيم على البيت منـــاخ فيه اقتناص للبهجة، وتحد للمعوقات. نجاح ومرح، تســـتقبل النـــاس وتتصالح معهم، تنسى نقائصهم، وتقبل على الخروج معى، تقرأ مـــا أكتب دون ضغائن، وتحب شخصيات رواياتى، حتى تحيـــن لحظـــة

انفجار لا أعرف كيف بدأت، ولماذا، تتهمنى فيها بأننى خطأ حياتها الفادح.

سلسلة من الانفعالات تعودت أن أتلقاها بالصمت، بعد أن أعيتنى الحيل كى أوقفها عند مستوى نستطيع فيه استعادة سعادتنا، حتى أدركت أنها تمر بدورة عصبية لها مواصفات محددة. إذا بدأ الغضب فلابد أنه واصل للقمة، نحر فى الأعصاب لا تملك فرملة إيقافه. شهور من العزلة أرحم من تحرش يومى. لا عائلة تلجأ إليها، ولا أصدقاء حقيقيين. حتمية بقائنا معاً أرست قواعد يعرفها كلانا فى حالة الصدام. يلتزم كل منا بالحياد والسكون، ونغرق فى طلاق صامت، تتصور فيه أن امتناعها الجسدى سيدفعنى للتنازل، أو كما تتوهم يجعلنى مساوياً لها، لأنها تتصور أن المساواة تكمن فى الفصل والقوة، وليس الاندماج والتآلف.

ربما كان هذا الذى تعطينه هو أحد أسباب حبى لك، هذه الرحمة والحميمية. لم أجد فيك تشنجًا لتعصب أعمى للمساواة. = حين يعطى بعضى لبعضى شيئاً لا يحتاج منه لرد، وأنا جزء منك فكيف أنتظر المقابل؟ لست فى حاجة لإعلان التساوى، فهى رغبة بين اثنين يقيس كل منهما حجم ما حصل عليه، وهو ما يقيم حاجزاً، لأنها تفترض طوال الوقت الانفصال، بينما نحن كائن واحد. عمر، أريدك دائماً، رغبتك فىَّ هى حب لى، تعطينى فيها شيئاً غالياً من نفسك، لا المتعة وحدها بل الامتزاج. فعل الحب متعة مارستها دون عواطف، بحكم حاجة الجسد، والظروف التى وجدت نفسى فيها؛ لكن ما يحدث بيننا له مواصفات أخرى، ليتنى أستطيع أن أوجد له اسماً آخر يفصله عما يحدث للآخرين. لن أكون ماجى أبداً، واترك لى فرصة طبيعية للتعب، للغضب، للسكون، للرغبة فى الانفراد والعزلة عنك. هذا

طبيعى، وليس بالضرورة أن تكون أنت السبب المباشر فى ذلك، فأنا أتحرك، وأنفعل، وأمرض. هذا ليس ضدك. - قولى لى إنك تريديننى قبل أن تتخطى عتبة الباب، بعد غياب ولو ساعات. =سأعلق فى رقبتى شارة تضيء باللون الأحمر، تقول أنا راغبة فيك للأبد - أريدك الآن = لا.

عشـــوائيات

ساعدت على كشف بعض الحقائق الخاصة بموضوع الجمعيـــة التعاونية للبناء بالمعادى. واضطرت الجمعية- فى النهاية- إلى عقـد اجتماع طارئ قرر فيه مجلس إدارتها تمويل المشروع ذاتيا، وإكمـال البناء بأسعار أخرى يتحملها الأعضاء. بدا أن هناك بعض الأمل لحل المشكلة، لم تكن عمارتنا ينقصها سوى دخول المرافق، إذ اعتـــبرت إدارة محافظة القاهرة أن المكان عشوائى، رغم أن هذه الإدارة نفسـها هى التى باعت شقق المشروع، وانتظرت أن تدفع الجمعيـــة أمـوالا محددة لإنشاء المرافق، لم تستطع الجمعية بوضعها الحـــالى دفعـها. لكن جهودى مع العريس أثمرت اتفاقا يقضى بأن يدفع كل مشـــترك مبلغا يزيد عن ثمن عداد الكهرباء ليغطى التكلفة، ونجحنا بذلك فـــى حل مشكلة الكهرباء. لكن مرفق المياه رفض هذا الحـــل، قـائلا إن علينا أن نجمع الأموال من الأعضاء كلهم، أو على الأقل مـــن كـل عمارة. اكتشفت ساعتها أن كل عمارة تضم خمسين وحدة لا أعـرف أصحابها، ورفض موظف الجمعية إعطائى كشفا بالأسماء، رغم أنـى أخبرته أنى لن أكلف الجمعية أية نقود أو جهد. لم أفهم سر التعنـــت،

لكن حين بدأتُ حملتى فى الجريدة، قدموا لى الأسماء على مضض وغيظ. وبدأت مع العريس رحلة اتصالات كشفت لى الكثير مما لا أعرفه عن معاناة المصريين، مهما ادعيت أنى أعرف مئات الحالات من البؤس والتضحيات وراء هذه الأبواب التى أغلقت عنوةً في وجه أصحابها. وشهدت العمارة سلسلة من حالات البيع الغامضة المتصلة، كلما توصلنا إلى بائع اكتشفنا أنه باعها إلى آخر..

بدا الأمر عبثياً، إلى أن وجدت أحدهم يطرق باب مكتبى ذات يوم، ويطلب منى أن أنقل ملكية الشقة إلى مكان آخر فى المشروع. ورغم حاجتى الشديدة للمكتب لأكمل إصدار الترخيص، ورغم أن المكان الآخر الذى سأنتقل إليه أكثر عماراً، إلا أننى تمسكت بالبقاء ومتابعة ما يحدث. كنت أكتب روايتى الجديدة، فأجلت عملى الصحفى مؤقتاً، فضلاً عن أننى كنت قد أحببت الشقة، واحة الحب التى أهدت لى أجمل أحداث العمر.

كنت قد نقلت- مع الوقت- معظم احتياجاتى إلى الشقة، كى أعمل هناك كلما سنحت الفرصة. لم أستطع التأقلم أبداً على الوجود فيها بمفردى. كنت أنتظر ناهد كى تنتهى من عملها، حتى نذهب معاً.. اليوم، لحقت بى بعد أن أنهت جولة تفتيش طويلة، ووصلت منهكة قلت:

- خذى حماماً دافئاً، وقسطاً من النوم، إلى أن أنهى عملى ..

نفذَت الشق الأول من اقتراحى، ولم تستطع أن تكمل الشق الثانى: "استخسرتِ ضياع الوقت فى النوم"، رغم أنى حاولت إقناعها أن النوم لذيذ جداً فى وجودنا معاً..

خرجت مرتاحةً بعد الماء الساخن: "تترجم مقالاً ؟"

قلت: أترجم مقالاً لروبرت فيسك بعنوان *"ما هو السر الرهيب الذى يحاولون إخفاءه؟"*. صحفى بريطانى يكتب فى جريدة "الاندبندنت" التى تعتبر من أكثر الصحف البريطانية انتشاراً. وقد زار العراق عدة مرات، وكتب مقالات عاصفةً عن مشاهداته فى مستشفيات البصرة.

= انتهيت ؟

- نعم، فهو مقال هام، ومرعب حقا:

"وصف لورد "جيلبرت" ما ورد فى مقالى الذى نشر فى صحيفة "الاندبندنت" حول احتمال وجود علاقة بين قذائف اليورانيوم المنضب التى استعملتها قوات التحالف فى حرب الخليج، وتزايد حالات السرطان فى العراق بأنه "لوى متعمد للحقائق". فكما يرى سيادته أن جزئيات الرؤوس الحربية المصفحة باليورانيوم المنضب، التى استخدمت لقصف الدبابات، صغيرة، وتتحلل بسرعة، وتتبعثر بفعل المناخ، ويصبح من الصعب اكتشافها حتى بأكثر المعدات تعقيدا..!

ولكن خلال الأشهر القليلة الماضية، تسلمت وثائق وشواهد تؤكد ما جاء فى مقالى. دعونا نبدأ برسالة موجهة من "بارى بارثوكيو" مدير التطوير فى هيئة الطاقة الذرية البريطانية، إلى مسئول رسمى "حصلت على نسخة منها" حول مخاطر التلوث المحتمل فى الكويت من الذخيرة المشبعة باليورانيوم المنضب. ويؤكد فى هذه الرسالة أن المخاطر التى تتسبب فى انتشار الإشعاعات من مخلفات هذه الأسلحة "قليلة، بالمقارنة بتلك المستعملة فى الحرب". لكنها يمكن أن تصبح

مشكلة مزمنة، للعسكريين والمدنيين على السواء.

والوثيقة المعنونة "محدودة وسرية" تقول إن الدبابات الأمريكية أطلقت ٥٠٠٠ قذيفة يورانيوم منضب، وأطلقت الطائرات الأمريكية الآلاف، في حين أن الدبابات البريطانية أطلقت عددا أقل.. ذخيرة الدبابات وحدها تتجاوز ٥٠,٠٠٠ رطل من اليورانيوم المنضب، واللجنة الدولية للحماية من الإشعاع تتوقع حوالى ٥٠٠,٠٠٠ حالة وفاة بسبب الإشعاعات. (سينتشر اليورانيوم المنضب حول ميدان المعركة، والمركبات التى تشكل هدفا، ولن يكون من الحكمة أن يقترب الناس من كميات كبيرة من اليورانيوم المنضب لفترات طويلة، وسيكون من الخطر على سكان المنطقة أن يجمعوا هذا المعدن الثقيل ويحتفظوا به). لا حاجة إلى القول أن أحدا لم يكلف نفسه أن يقترح تنظيف المناطق فى جنوب العراق، حيث يموت المئات من الأطفال.. لماذا؟ ولماذا لا تريح الحكومة البريطانية ضميرها، وتروى لنا ما حدث؟

إليكم الدليل فى رسالة تحمل تاريخ ١٩٩١/٣/١ من ضابط أمريكى برتبة كبيرة فى مختبر لوس آلاموس القومى إلى الميجور لارسون، فى فرع البحوث والتحاليل قال فيها: "هناك اهتمام مستمر فيما يتعلق بتأثير اليورانيوم المنضب على البيئة. لذلك، إذا لم يتصد أحد لأهمية استعماله فى ساحة العمليات، فإن هذه الذخيرة قد تصبح غير مقبولة سياسيا، ويجب رفعها من السلاح.. أما إذا أثبتت قذائف اليورانيوم المنضب فاعليتها خلال العمليات العسكرية الأخيرة، فنستطيع عندئذ أن نؤكد وجودها المستقبلى، إلى أن يتم تطوير سلاح أفضل".

إذن.. تلك هي القضية. ورغم التقصير اللغوي للكاتب، فالرسالة بوضوح هي: أن المخاطر الصحية لليورانيوم المنضب مقبولة إلى أن نخترع- نحن الذين في الغرب- سلاحا أكثر تدميرا يحل محله. وهكذا.. فعشرات الآلاف من جنود حرب الخليج ١٩٩١، الذين يعانون أعراض أمراض غير معروفة، وآلاف المدنيين العراقيين، ومن بينهم الأطفال الذين ولدوا بعد انتهاء الحرب بفترة طويلة، يعانون الآن أمراض سرطان غير مبررة.. لا أستطيع إلا أن أعيد ما كتبته من قبل: "إن شيئا مرعبا قد حدث في نهاية حرب الخليج أخفيت حقيقته عنا. وقد قال لي ضابط سابق في حرب الخليج هو "توني دوف" ليلة أمس إن كثيرا مما حدث في حرب الخليج، ونطلق عليه الآن وصف انتصارات، ستتضح في يوم من الأيام أنها "كانت جرائم".. وربما، لهذا السبب، لا يريد المسئولون أن تتسرب حكاية اليورانيوم المنضب.

وما هو بالضبط هذا السر الرهيب الذي لا يريدون أن نعرفه؟ هل هو- كما قال البروفيسور "مالكولم هوبر" أستاذ الكيمياء الطبية في جامعة سندرلاند- قصف المعامل والمختبرات الكيميائية، والبيولوجية، والنووية، التي يحظر قصفها؟ أم هو سلاح اليورانيوم المنضب".

بقلم: روبرت فيسك

ترجمة عمر مأمون

– خذى أيضا هذا الكتاب، ستجدين فيه ما يوضح لك خطورة اليورانيوم المنضب، عنوانه *اليورانيوم المنضب معدن العار*"، صدر عن مركز العمل الدولى International Action Center فى نيويورك عام ١٩٩٧. وهو يتضمن مقالات متخصصة لنخبة من الباحثين والمتخصصين، وشهادات لجنود شاركوا فى العدوان على العراق. وقد صدر هذا الكتاب بالإنجليزية فى إطار مشروع للتعريف بمخاطر اليورانيوم المنضب، وكيفية قيام البنتاجون بتعريض الجنود والمدنيين للإشعاع، باستخدام أسلحة تحتوى على هذا المعدن خلال حرب الخليج ١٩٩١.

تركز مقالات الكتاب على التعريف بمخاطره، وتأثيراته على البيئة والصحة العامة، وكيفية العمل– ضمن نطاق دولى– لحظر استخدامه. ومن ناحية ثانية، يثبت الكتاب– بشكل وثائقى– أن وزارة الدفاع الأمريكية هى التى عرضت الجنود والمدنيين العراقيين، وكذلك الجنود الأمريكيين لإشعاعات اليورانيوم المنضب، خلال عدوانها على العراق. أنوى عرضه فى الجريدة، وكلى أمل أن ينشر..

= مشكلة شائكة، ما يعانيه العراق الآن؛ يصعب تصديقه والسكوت عليه..

تليفـون

أتربص باللحظات. أقتنص واحدةً تخلو لى، وتدفعنى الحاجة للاختباء بين ذراعيك، أهش الزحمة، والطلبات، ورغبات الآخرين. أعرف أنك تجلس الآن أمام الكومبيوتر تدق الحروف، تتلامس مع شخصياتك وشريف والصمت. أريد الاختفاء داخلك؛ أجلت التقاط الهاتف مرات حتى تمكنت منى المشاعر – فحملته إلى ركن آمن ساكن. وحين وصلنى صوتك، تدفقت فى مسارات كثيرة أنقل أشواقى التى لا تحتمل. مرت كلماتك الجافة وسط حرارة اندفاعى، فلم ألتفت إلى وجودك فى عالم آخر، ثم تنبهت إلى كلماتى التى تواجه مصدات جامدة، ثم ترتد. حايلتها، فقد كانت رغبتى بك أكبر من إدراكى لما يحدث. وحين وصلتنى اللهجة الساخرة، تحاول تخفيف الموقف الذى لا أفهمه، كنت قد سقطت فى مشاعر الضياع، والثوانى تتداعى بجفاف، والخط يغلق بكلمات رسمية وتمنيات طيبة.

تلقفتنى متاهة الغربة. وتساءلت إن كنتَ نفس الشخص الذى يكون لى حين يكون لى حقاً، أم أن المفردات التى أتعامل معها هى

مفردات الوهم. أراجع فى ذهنى معنى الازدحـــام الـــذى تحـــاول أن توصله لى بالرمز، وأعرف أن الوقت ليس مناسباً للحوار. أتجـــاوز، وأقفز فوق الفجوات التى تتفتح نتيجةً هذا الوضع الغريب بيننا، لكنـــى اليوم لم أفهم. لم تكن الظروف صعبةً تماماً، لكى ترد بكلمة مناســبة، ولو بالإيحاء؛ لم أفهم سر الجفاء.

استسلمت إلى نوم قلق، خرجت منه أكثر جوعاً له. وصحــــوت لأدور فى فلك لا طعم له ولا لون، حتى جاءنى صوتك متكسراً مـــن أثر النوم: "صباح الخير، أوحشتنى، لم أستطع أن أحدثك لأنى كنـــت فى حاجة إليك أكثر من حاجتك لى؛ فخفت من الدخول إلى حالـــة لا أستطيع فيها السيطرة على نفسى. كنت قبل أن تحدثينى بدقائق أقمـــع نفسى عن الاتصال، لكى أقول لك تعالى الآن. وحين تمكنـــت مـــن التحكم فى مشاعرى، سمعت صوتك. كدت ألقى بكل ما قمعته إلـــى الطريق، وأخبرك- دون قيود- كم أريدك. وشريف يتحرك أمامى مع صديق، يرسل لى مداعبات ضاحكة، يشاكس ماجى عن بعد.

كدت أقول لهما: لن يهدد هذا أمنكما، لكنى لم أستطع إلا تكبيـــل رغبتي بك، ومنع كلمة واحدة من الصدور، حتى لا ينـــهمر النـــهر مندفعاً فى سيل الشلال الذى لا يستطيع أحد أن يوقفه".

= لو أننى أمامك ســـاعتها، لحملـت رأسـك إلـى صـدرى، واحتضنتك مثل وليد شعر بحرارة الثــدي فنـام، ومـا زال يحلـم بالرضاع. منعت نفسى من الحديث إليك خوفاً أن تستشعر دموعـــى المنهمرة تزاحم الحروف. أعرف قدرتك على التحكـم فـى نفسـك، وأعرف حجم معاناتك، وأرى حروف شفتيك المرتعشـــة برهافـــة لا يراها سواى، لأن الرعشة تبدأ من قلبى. لا عليك، أنا مشتاقة فحسب.

اذهب جهز لنفسك كوباً من الشاى، واغسل وجهك ، ثم عد للحديث معى. فأنا أحب صوتك المتكسر الحميم، لا أحد يسمعه سواى ، أو هكذا أتصور حقوقى..

تهت. لم أعرف إن كنت أبكى نفسى، أم أبكيك! كيف لم أثق فى مشاعرك؟ كيف راودتنى الشكوك؟ لماذا أنتظر دائما أن تهجرنى، وأحلم- بدلا من اختطافك لى- بهجرك لى؟ هل هى أمنية داخلية لا أستطيع الإفصاح عنها، أراها فى أحلام يقظتى؟ ولماذا أستسلم لمثَل هذه الأحلام؟ هل أرغب فى حل يأتى منك.. أن تتركنى؟ وهل أستطيع أن أحيا دونك..؟

كأنى أريد قوةً قاهرةً تحل أزمتى. هل حقاً أريد الحياتين معاً؛ أريد بيتى وأطفالى ومصطفى، وأريد عمر، كما يقول هو؟ مستحيل.. إن خوفى على مصطفى، ورعايتى له، رغم الانفصال، لها ما يبررها إنسانيا؛ لها العشرة والصداقة، لها العجز أيضاً، لها الخوف من المجهول. نعم أخشى المرض، أخشى الكبر، بعد أن أترك من وهبتهم شبابى. لماذا لا أثق فى قدرة عمر على احتمالى، فى الكبر؟ ربما لأنى أعرف جيداً أنه ملول، وإذا حوصر فى لحظة ما بعدم قدرتى، فسيتجه إلى أخرى، ويخفى عنى هذا بمهارة؛ وهو ما سيقتلنى..

كنت أتصور دائماً أن ذكر الحمام لا يستطيع الاستغناء عن وليفته، حتى رأيت فى البرج- ذات يوم- أنثى جميلة منكمشة فى "الخن"، عليها إمارات الذل، وهو- فى جهة أخرى- يداعب أنثى أكثر شباباً. راقبتهما لأيام، حتى وجدتها ميتةً ذات صباح. لم أعرف إن كانت قد مرضت فتركها إلى غيرها, أم أنها ماتت لأنه تركها إلى غيرها.

يقول عمر لا أريد حلاً يجيء في غير وقته، لن أحتاجه، ولن أشعر بسعادة معه. سيكون الأوان قد فات.. كأنه صوت العقل، وأنا صوت الجنون. أعرف كل هذا، وأعرف أكثر. أعرف أن الحياة قد تعقد الظروف، بعد شهر، بعد اثنين. أعرف.. لكنني خائفة!

ربّــة

راقبت سكونه بعد أن فشلت كل محاولاتـــها لاســتفزازه (لكـــى يتعاركا على أمل أن يتصالحا بعدها). تساءلت فى حيرة، كيف لم يعد في حاجة إليها. هل اختلفت احتياجاتهما فجأة، وأصبحت هـــى التـــى تطارده؟ كانت تعرف أنه لا يصبر على جسده كل هذا الوقت؛ تدفعـــه رغبته لفض الخصام. كرهت الهدوء المخيم على غرفـــة المكتـــب، وهي تكظم غيظها من قدرته على إلقاء شؤون علاقتهما خلف ظهره. بدد رنين التليفون حجاب الصمت، فالتقطه، وراح يحدث شخصية لـــم تتمكن ماجى من معرفة هويتها. اندس الشك فى قلبها، وهـــى تتـــابع حديثه فى تفاصيل يومية، تعرف أنه عازف عنها- هى امرأة. لابـــد أنها امرأة- قلبت الأمر فى عقلها بين الوقت الطويل الذى يقضيه فـــى البيت، والعزلة التى يفرضها على نفسه، وتجاهل وجودها، وعبـــور أى صدام، وانكبابه على الأوراق يكتب روايته ليلاً ونـــهاراً، وبيـــن الأيام التى يختفى فيها تماماً؛ لا تجده فى الجريدة، ولا فى أي مكـــان، ثم اتهامه لها بغيرة حمقاء بلا مبرر؛ وتحولت حياته إلـــى صنـــدوق مغلق يعيش فيه وحيداً.

التقطت كتاباً من فوق الطاولة المجاورة لها، وتحسست داخله خطاباً كانت قد تسلمته باسمه بالأمس. راودتها نفسها أن تفضه لتعرف ما فيه، بعد أن شكّت فى غلافه الناعم، والرائحة الأنثوية المنبعثة منه. أخفته حتى تتخذ قراراً بشأنه. نقلت بصرها بينه وبين عمر، الذى قام متخذاً طريقه إلى الخارج، متعللاً بشراء الصحف. قلبته، رأت فوقه ختم المغرب. كم مرة ذهب إلى المغرب هذا العام؟ كانت تعرف أنها لو فتحته، ستستفز زوجها لأبعد مدى. لكنها قلمرت بالغضب فى سبيل المعرفة، وإمساك خيطٍ ما يدل على صدق حدسها فى مواجهة نفيه. مزقت المظروف بسرعة وعصبية، حتى تقطع الطريق على تراجعها. قرأت كلمات الحب المكتوبة بولع أثار جنونها. لم تصبر على إكماله، وبحثت عن اسم صاحبته "بديعة هلال"؛ لم يذكر عمر لها هذا الاسم من قبل. عادت إلى القراءة من حيث توقفت، والدم يندفع إلى ملامحها التى تحولت إلى جمرة نار، كلما توغلت أكثر فى القراءة. أعلنت الفتاة عن حالة شبق جنسى، لم تسمع بها ماجى طوال حياتها بهذه الصورة.

لم تكن قد انتهت من السطرين الأخيرين، حين سمعت صوت المفتاح، وهو يدور فى الباب؛ فرفعت رأسها إليه، والدموع الطافرة من عينيها وأنفها تخنق صراخها الذى وصله، دون أن يفهم أسبابه؛ فجزع قبل أن يدرك أن الأمر فيه امرأة، وهى تسلمه الخطاب- ماذا حدث؟- جاء سؤاله متأخراً، وهى تتهاوى فوق المقعد، تنشج ضياع الحب، وانهيار العلاقة إلى الأبد، وخيانته. ازدادت توتراً، أمام ثباته وهدوئه بعد أن عرف اسم المرأة. وضع الصحف فوق المكتب. مد يده، وأخرج من جيبه علبة السيجار والولاعة. وضعهما فوق المكتب، ثم جلس فوق المقعد المقابل لها، يخلع حذاءه؛ بعد أن أزاح

سترته. وهى تتابعه بعينين فزعتين، راح يقرأ الخطاب حتى النهايـــة، وابتسامة خفيفة تداعب وجهه، اكتملت وهو ينظر إليها:

– أين المشكلة؟

ابتلعت كم الدموع الهائل المنساب فوق وجهها، إذ شعرت بجرح كرامتها، ووقعت فى المنطقة المائعة بين التصميم على رد الإهانـــة والشك الذى راح يستولى عليها؛ بين الاستهانة بها واستلامها لخطـاب موجه لشخص آخر؛ لكنها تأكدت من قبل من صحة الإسم والعنوان– فمن أين واتته هذه الجرأة– تساءلت. استلمت منه الرسالة، وهى على وشك النهوض لتقذفه بأى شئ أمامها.

– أعيدى القراءة. إنه من امرأة تعرفنى ولا أعرفها. لكن المؤكد أنها تتكلم عن نفسها، وليس عنا– اختطفت الخطاب، وراحـــت تعيـد قراءته، وتكتشف المصيدة التى وقعت فيها.

لم تؤكد الكلمات معنى الاكتمال المعرفى، وإن كانت تشى بـــهذا دون تصريح. قرأتها للمرة الثالثة. عرفت فيها مناجاة امرأة تحب، لـم تتحدث عن ذكريات تجمعهما، أو وعود له؛ وإنمـــا تبثـــه عواطفـــها المحمومة، وتنتظر منه أن يكتب لها، لأنـــها لـــم تعـــرف بزياراتـــه للمغرب فى السنوات الأخيرة. ابتلعت الغضب الصارخ فى أعماقـــها، واحتفظت بجذوته تمور هناك– أعرف أن امرأةً فى حياته، لن يكـذب إحساسى أبداً– تابعت انخراطه فى عالمه المغلق: ترتيب أوراقه علـى المكتب، دخوله إلى المطبخ، تحضير الشاى، وســـؤاله الـــذى جـــاء استفزازياً، رغم إرادتها– أصبب لك معى شاياً؟– وإجابتها التى جاءت دون تفكير بالرفض.

لم تستطع أن تحمل جسدها الذى أرهقه التعب، وعبثت به الوساوس، إلى السرير. قاومت أن تبدو منهارةً أمامه، حتى غرق تماماً فى ضوء الشاشة، وانتظمت دقات أصابعه فوق الحروف، فانسحبت دون تحية إلى سريرها. تصفحت مجلة ملتها بسرعة- لا متعة فى شيء. نثر الأرق بياضه البارد فى سقف الحجرة، انكمشت، وتلمست دفئاً فى كتاب أوفيد "فن الهوى"، القابع دائماً بجوار سريرها، وراحت تتحسس الصور المصاحبة للقصائد، وتقرأ ببصرها دون أن تتحول الكلمات- التى حفظتها منذ صباها الباكر- إلى معنى. اكتفت بإيقاع النغم الداخلى للشعر، وكادت أن تغنيه صامتة، ودبيب يلفها بدثار ناعم من الطمأنينة، أرسلتها لها الآلهة.

معجونون هم بكل شرور الناس، ليسوا آلهة، هم بشر حقيقيون على طبيعتهم، لا تحكمهم إلا رغباتهم فى شدتها: قسوة أو حنو- قالت، وهى تستسلم لمداعبة الأطياف، والحنين يحملها ناعسةً فوق بساط نحو المجهول؛ حتى إذا أغمضت عينيها، رأت موجات من دوائر سوداء، لها حروف رصاصية، تنبثق من بؤرة العين، تتلاشى لتبدأ غيرها. تنفتح كوة سحرية عن فضاء؛ تنظر خلفها، فترى حشداً من طيور تهرب من القيظ، تختبئ بين أوراق الشجر العالية. يأتي عمر مرهق الملامح، يتلمس راحةً بعد مشقة، يرخى جسده فوق أرض عشبية مظللة، بعد أن يطمئن على صيده. ملابسه تعرفها ولا تعرفها، والمكان.. أين هو؟ إنها غابة زارتها مع أمها. الماء يترقرق عند النبع، وعمر عطشان لا يقوى جسده على النهوض. تتعرف على بيت جدتها تحت الربوة، ملابس صيد وسهام ملقاة بجواره. تتحرك شفتاه هامستين- ظمآن لك يا "أورا"، ليتك تطفئين حرارة حلقى- تنغلق الكوة بنسيج معتم- أيحب فتاةً يونانية؟- علا وجهها شحوب،

وشعرت بجسدها ينزف- "الدم يبطل الرؤيا" هكذا يقولون.. هذا ليس تراثك، أليس كذلك؟- تعجلت الخطى نحو الغابة لتضبطه متلبساً، تذكرت الشبكة التى صنعها الإله فولكانوس بمهارة ودقة، حتى يوقع فى شراكها زوجته فينوس مع حبيبها مارس. فلما أطبقت عليهما معاً عاريين، نادى الآلهة جميعاً ليروا المشهد، ثم ندم بعد ذلك؛ إذ هرولا- بعد إطلاق سراحهما- إلى مكان آخر ليلتقيا، ويستمتعا بالحب علانية. فلم يعد هناك ما يخشيانه.

ترددت لثوان، لكنها استجمعت شجاعتها، وقهرت المسافة إلى حيث كان. شاهدت أثر ضجعته على العشب، فتخفت خلف شجرة، خائفةً أن تدنو، عاجزة عن أن تنأى، وهى تسمع خطوات عودته. وصل وحيداً يلهث من الحرارة، ويرطب بالماء وجهه ويترنم- لو أن "أورا" تلطف بدنى- انتبهت ماجى للاسم اللاتينى "أورا" إلهة النسيم- يريد نسمة- دبت الحياة فى عروقها التى جففتها الرغبة فى الانتقام، وهرعت ملهوفةً لكى تعتذر له. ند عن أوراق الشجر تحت قدميها حفيف، ظنه عمر صيداً فوثب إلى سلاحه مطلقاً السهم إلى قلبها. استسلم جسدها لقارب المعداوى، يجدف به فى بحر الموت، ووجه عمر الحزين- الذى تغمره الدموع- ينأى، والضوء يختفى كلما توغل القارب فى الظلام، حتى لم تعد ترى عمر أو الشاطئ. وتردد صدى رغبتها فى أفق المجهول- هل يستطيع عمر أن يعبر العالم السفلى، ويعيدنى إلى الحياة؟ رفرفت طيور قاتمة اللون، ساخرة، حول القارب. اكتشفت فيها صديقاته: كاتبات وفنانات، مترجمات عربيات ويونانيات وأجنبيات؛ كلهن عاريات، رأتهن يدفعنها دفعاً إلى الظلام. استجمعت قواها، وراحت تصرخ فى المعداوى أن يعيدها إلى البر- لم تكن غيرةً كاذبة. كان يلتقى بأورا ربة النسيم عند

الفجر. أغوته ربة الفجر، ربة الفجر. ساد الصمـــت، والقــارب- ذو الربان المتسربل بعباءة باهتة اللون- يبحر فى هدوء.

شـــك

لم يعد يستطع تحديد مشاعره نحوها بالضبط؛ هل هى الغيرة، أم القلق؟ أم ماذا ينتظر منها؟ هو يعرف أنه أمام امرأة يصعب إجبارها على شئ. لن يغتصبها بالطبع، ولن يعتبر الموقف الحالى نهاية المطاف. هى- على الأقل- لم تطلب الطلاق حتى الآن. يراوده الشك فيما إذا كانت قد تعرفت على رجل.. فلماذا لا تحاول إذن تطوير الانفصال وإعلانه، والزواج من الآخر. "يدهشنى دفاعها عن الأسرة واستقرارها. أتصور أن كيان الأسرة عندها أهم من سعادتها الشخصية، أو رغباتها. وهى لا تجرؤ على كسر المحرمات، لا تستطيع وهى الزوجة- حتى لو كان زواجاً على الورق- أن تقيم علاقة بآخر. لكنى أشعر أحياناً أنها تدبر لشئ، وكلما ازددت يقيناً، واقتربت من الحقيقة، تقوم بتصرف- ربما كان صغيراً- يبدد الأفكار التى بنيتها.

أخافها حين تلتزم الصمت. حين تبعدنى عن عالمها، فلا أعرف شيئا عن جدولها، أو القضية التى تشغلها، أو المناخ الذى تتحرك فيه.

تعتمد على طبيعة عملها المتغيرة، بين مكاتب هيئة الآثار ومواقع الحفر، ومصاحبتها لإحدى البعثات التى تستمر لسنوات. لم تكن تقبل هذا النوع من الأعمال فى فترة طفولة مها ويوسف، لأن العقد بين هيئة الآثار والبعثة الأجنبية ينص على مصاحبة المفتش للأعضاء بشكل كامل، وهو ما يقتضى عملاً متواصلاً ليلاً ونهاراً. الآن، هى تعمل كأن الحياة عمل فحسب. حققت فى سنوات انفصالنا خطوات واسعة، ورقيت بسرعة، وأسندت إليها مهمات لا تسند إلا لعدد محدود من الأثريين.

لاحظت- فى الأسبوع الماضى- غيابها عن البيت، وتوترها الذى لا تعلن أسبابه. حاولت استدراجها للحديث، فلم تستجب، ثم اكتشفت بكاءها الصامت وحيدة فى الليل، وهروبها من الكلام معى. لم تعد تهتم كثيراً بالصعود إلى الطابق الثانى، حيث غرفتنا مازالت على حالها: سرير واحد، وأدوات واحدة، وزوجان منفصلان منذ سنوات.

اعتادت الدخول إلى مكتبها فى الطابق الأول، ثم الحديقة التى تعيش فيها لساعات طويلة- تقرأ أو تتأمل- إلى أن تنام. هل لديها مكان آخر تنام فيه؟ استراحة البعثة؟ ربما!

عملها يبدأ فى السادسة والنصف صباحاً، وهى تصحو فى الخامسة كى تشرف بنفسها على تدبير طعام اليوم، واحتياجات أفراد الأسرة، ونادراً ما تعود قبل انتصاف الليل، خمسة أيام فى الأسبوع. فكيف تحصل على النوم؟ وتجلس فى الحديقة شاخصة إلى السماء فى ليال كثيرة، لا يقرب النوم جفونها. وحين قررت سؤالها، فوجئت بها فى المنزل عشرة أيام متصلة قبل عودتى من العمل. تعود من الموقع

قبل الظهر، كأنها كانت تعرف أننى سأسألها. تنكب علـــى الأوراق، تنهى مجموعةً من الأبحاث تنشرها فى كبرى المجـــلات الأمريكيـــة والفرنسية. أعرف بالصدفة أنها تدرس الألمانية بشكل منتظم. متى يـا ناهد.. متى؟ هل تحول يومك إلى ثمانية وأربعيـــن ســـاعة؟ أم أنـــك تستهلكين عمرك محمومةً، بالهروب من الواقع الذى جرجرتنا إليه؟

شــفقة

حريص على استمرار الحالة التى أكون عليها، بعـــد خروجـــى منك. رائحتك، وعرقنا المشترك، مذاق جسدك وتأوهاتك وصرخـــاتك الأخيرة، أريد التشبث بها حتى النهاية، أى حتى لقائنا التالى.

هكذا أتخذ أقصى مكان فى الشقة بعد عودتى، فى تلك الشـــرفة المطلة على الفراغ، لأنفرد بنفسى وبك بعيداً عن أية تماسات. ليســت هناك مشكلة بالنسبة لشريف واقتحامه لـــى، لكنـــها هـــى المشـــكلة: اقترابها فى هذه اللحظة، الذى أحاول التخلص منه بأسرع ما يمكـــن، إلى أن تذهب إلى النوم يائسةً، أو شبه ذلك. كأنى أخشى أن تكتشـــفك فىَّ، أو تخرجنى منك. ولا رغبة فى ذلك الحين فى النوم، بل الرغبـــة فى امتداد الليل إلى ما لا نهاية، ليمتد هذا الإحساس طويلاً عميقاً بـــلا قطع، حتى لحظة النوم، منفرداً بك، فوق "الكنبة الاستوديو" فى غرفـــة مكتبى، بلا مزاحمة أو تهديد من أحد. فى الليلة التالية، يمكن للأمـــر أن يكون مختلفاً، أكون قد استطعت الموازنة بين عالمى السرى وهـــذا العالم العلنى، أستطيع الجمع بينهما، والتعامل معهما بعقل..

بالأمس، مثل أيام مشابهة كثيرة، عندما خرجت من الحمام، كنت قد اعتقدت أنها استغرقت فى النوم؛ فالغرفة مطفأة، ولا يوجد سوى قصاصة ضوء تمرق من بابه إلى الممر. كل شيء ساكن، يعطى الإحساس بالأمان. دخلت الغرفة محاذراً من إحداث أى صوت قد يوقظها، وتمددت على السرير. بدأت أهيئ نفسى للنوم: أجيء بك إلى حضنى، وأحس بجسدك ملتصقاً بتضاريسه فى جسدى، مندمجاً فيه. وفيما أروض نفسى للنعاس، أحسست بخطوات أصابعها تتسلل، وتقطع المسافة الفاصلة بين جسدينا: "خذنى إليك". ويكون من الصعب ارتكاب أية فظاظة، مهما كانت الأسباب. تحتضننى وتزداد التصاقاً بى، ثم تحكم التصاقها، كأنها تريد عدم إفلات أية مساحة منى. أتجمد فى مكانى ساكناً، منتبهاً إلى عدم ارتكاب أى حركة قد تنم على تشجيع ما؛ لكنى أحس بتصاعد الاستثارة فى جسدها الذى تتفلت منه الانفعالات تلقائياً، فتمتد يدها تتحسس جسدى، ثم تتسلل إلى ما تحت الثياب. تتمهل فى المواضع التى تعرف أنها مكمن استثارتى، وتهبط بالتدريج البطيء إلى أن يخونها احتمالها، فتفقد السيطرة على نفسها تماماً.

أتفرج عليها من داخلى، وأتأمل الموقف من خارجه، كأن الجسد ليس لى، وأنا مدرك- فى نفس الوقت- أنها قد وصلت إلى نقطة اللاعودة. تراودنى خيالات الليلة السابقة، وجسدك العارى فى حضنى، وشهوتى إليك التى لا تنفد، فلا أدرى ماذا أفعل. لكنها تتكفل هى بالفعل: تخلع عنى ثيابى وتنفصل لحظة لتخلع- على لهفة وعجل- ثيابها، وتنزلق بسرعة إلى السرير مرة ثانية، قبل أن تفلت منها اللحظة. تعيد تحسس جسدى العارى، حتى إذا أحست باستجابته انفجرت برغبة مكبوتة منذ ألف عام.

ينتابنى الإحساس بالشفقة: كيف يمكن التوفيق بين جسدى امرأتين فى آن؟ واحد تريده حتى النهاية، والآخر لا حاجة لك به؟ وكيف يمكن أن تشبع امرأةً من باب الشفقة والرثاء، لا من باب الرغبة؟ أنتبه إلى بداية الارتخاء، فأقرر إنهاء الموقف بسلام معها، وحشد طاقتى لاستكماله. أفتش فى عقلى بسرعة عن أكثر الأوضاع إثارة لى على العموم، وأُسرع من إيقاع الضربات المتوالية. أمد يدى إلى تلك المناطق التى أعرف أنها لا تحتمل إثارتها، لأتمكن من توصيلها إلى الذروة بسرعة؛ أدفعها دفعاً إلى النهاية المنساقة إليها، إلى أن تنفجر صرختها الأخيرة فى الظلمة.. أنسل منها برفق، ألتقط أنفاسى فى السكون، ثم أتسلل إلى الحمام، أزيل فيه آثار ما جرى، لأعود للنوم، كأن شيئاً لم يحدث. لكن الأسئلة تتصاعد: هل يمكن استمرار هذا الوضع، وإلى متى؟ ما ذنبها؟ ما العمل؟ كيف يمكن للمرء أن يعيش مع امرأة يهرب من قُبلتها؟

أتعجب أحياناً من أنني كنت أحب هذه المرأة ذات يوم، وأننى كنت ملهوفاً عليها، منتظراً لحظة عريها، سعيداً بملمس يدها على جسدى. أهى نفس تلك المرأة القديمة، أم امرأة أخرى غريبة لا أعرفها ولا أريدها؟ أنظر إليها، وهى تتحرك فى الشقة، بمنطق الفرجة. ما الذى جمعنى بها؟ أين ذهبت تلك الأرض المشتركة التى كنا نقف عليها ذات يوم؟ وليالى الوهج والحب والشهوة، التى كنا نواصل بها الساعات حتى الصباح؟ تقول لى: "لقد تغيرت"، أتهرب منها، وأقول: "كل شىء يتغير. أنت تبحثين عن ذلك الحب القديم، وأنا قد كبرت عليه، ولم يعد صالحاً لى". أهرب أحياناً أخرى، فأقول "لم أعد أريده، لم يعد يروق لى"، أو "إننى مستريح هكذا بدونه"؛ أحاول أن أرسى أساساً ليأسها منى. لكنها فى تلك الأيام الهادئة بلا

مشاحنات، تميل إلى أن تضرب عرض الحائط بكل ذلـــك، وتنتظـــر اقتراباً منها. كيف يمكن لرجل أن يكتشف- بعد سنوات- أنه لم يعـــد يحتمل رائحة المرأة المتآلف معها، أو التى كان متآلفاً معها ؟

تــدريب

تدخل مفعمةً بالإثارة، تتحدث دون توقف عن اكتشافات البعثـــة الفرنسية– التى تعمل معها– اليوم لهرم صغير فى ســـقارة لإحـــدى حريم الملك بيبى، وهو من ملوك نهاية الدولـــة المصريـــة القديمـــة. وكانوا قد اكتشفوا من قبل مقبرة لأحد موظفى الملك واسمه "وينـــى". سجل فيها شرف تكليفه من الملك بالكشف عما أسماه مؤامرة حريـــم الملك. ويقول النص المكتشف إنه قد نال فخر وثوق الملك "بيبى" بـــه، وتكليفه بالتحقيق. لكن نتيجة التحقيق غير موجودة.

كانت ناهد تأمل أن يكشف لها الهرم الجديد عن تفـــاصيل هـــذه المؤامرة. تأخذها المعلومات التى تتحدث عنها طوال الوقـــت، حتـــى وهى فى سريرنا. أشعر أنها تفضل البقاء مع البعثة أكثر من بقائـــها معى فى مثل هذه الأيام.

انتظرتها اليوم طويلاً، وأنا أحاول أن أكتب. كنت أفكـــر فـــى علاقتنا وما وصلت إليه. أردت أن أكتب عن ناهد قبل لقائنا فوجـــدت مفردات معرفتى بعلاقتها برجلها شحيحةً؛ فلما استقرت فى حضنـــى

سألتها، فتهربت كعادتها. لم أستطع السيطرة على غضبى وأنا أعيد السؤال:

- تريدين روحاً واحدة، دون أن تدفعى ثمن رغبتك هذه. تسألينني كل البوح، ثم تسدلين الستار على نفسك. تهربين من مواجهة الماضى وتضنين بكشفه، تدخلينني فى متاهة من التحليلات والشرح الطويل لمعني واحد، هو أنك تكرهين مشاعرك السابقة. لا أستطيع أن ألمس حدثاً، بل دوامة من الهواء تصلنى لسعة دورانها. وأراك تطحنين الفراغ بين رحى رغبتك وخوفك. كل ما يخرج من قلب الرحى أسباب دون مسببات. ما هو هذا الشىء الرهيب الذى تخشينه، كأنه ما حدث لبشر من قبل؟ سيقوض صمتك طموحك لهذه العلاقة المتفتحة لآخر مدى. ادخلى معى عالمك الخفى، أخبريني كيف كانت لمسته فوق يدك، فوق نهديك؟ كيف أكون أنا طريقاً لمعرفتك بجسدك؟ لماذا تلغين السنوات، كأنها ما كانت؟

= صدقنى، ليس إلغاءً لأحداث تؤلمنى تهرب منها الذاكرة، ولا نفيًا لوقائع حدثت بالفعل. الأمر أكثر تعقيداً من كونه هروباً. علمت جسدى ألا يشعر! لا تنظر لى هذه النظرة، أنت تفتح داخلى باباً أوصدته على الجحيم، فلا تتعجلنى.

- أتعجلك بعد مرور أكثر من ست سنوات على علاقتنا؟

= لم أكن نفسى أبداً، هل تدرك حجم ما عانيت؟

- كيف، وأنا الذى أعرف كيف يكون جسدك متفتحاً لى حتى قبل أن أقترب منه؟

= علمته الغياب، ألاَّ يكون طرفاً فاعلاً فحسباً، بل غير موجود

أصلاً. فما فائدة أن أكون واعيةً فى فعل يسحقنى.. لم أصل إلى هـذا القرار بسهولة، ولم أعرفه فور إدراكى له، بل تعرفت على ملامحه على مهل، دفعت ثمنه سنوات من المرارة والألم، حتى قررت أن أبدأ رحلتى فى تدريبه علىٍ قتل أحاسيسه فى مهدها، تعليمه كيف لا يستجيب، وهو يتوق لهفةً لأن ينفرط.

صمتت وانتظرها. رآها تسرح ببصرها وراء ومضة تتراءت لها. قالت، كأنها تتحدث عن أخرى بكلمات حفظتها عن ظهر قلب:

"مشتعلة مثل جمرة نارٍ تتطلع لصفاء زرقتها، يرنو إليها فيزيد تأججها، يقترب ويصب زيتاً وتزداد الجمرة احمراراً، ويتصاعد لهب تؤطره حواف سوداء تأسر ألقه، تطالب بالمزيد كى ينفرطٍ قلبها؛ هذا الذى لا يكون صفاؤه إلا بالوجد انسكاباً كاملاً، فهدوءاً سعيرياً، فزرقةً شفافة. هكذا هى النار تأكل نفسها لتصفو، والجسد يطالب بمزيد من الاحتراق؛ تعلو حركة عزفه تبحث عن هارمونى لتتوافق مع نغماته وتتفتح. وقبل أن تدرك أن الدوران قد بدأ، وأنها أصبحت داخل إطار منفلت إلى جرف، ينهى قفزته بحصدة منجل واحدة، ويصل إلى ذروته. ينسحب الطنين من الغرفة، وتموت المارشات الصاخبة فى مهدها فجأةً، إلا من أنين انكسار، وشهقة بلا صوت لاتجرؤ على إعلان وجودها. يختفى كل أثر للحرارة، كأن طائر الحب ما مر من هنا أبداً .."

تبتلع ريقها بصعوبة، ويشع من عينيها ضوء غريب، لا هو لامع ولا هو منطفئ. ضوء نافذ يشع حزناً، ويخفت صوتها حتى يضيع فى الفضاء. يحسه أكثر مما يسمعه:

"خُدعت مراتٍ كثيرة، وأوهمت نفسى- فى كل مرة يقترب فيها

من جسدى- أن اشتياقى سيقطع المسافة فى زمن قياسى، حتى لو لم يعجبنى أن يكون الارتواء انهماراً فجائياً، دون مسار فى الزمان والمكان، ودون أن يترك علامات على طريق يقطعه وهو يتهادى ويتقصع، ويُخرج من الجسد كل الدلال الذى يريد أن يغنيه رقصاً وطرباً. يتراكم انتظارى فى شقوق من لهب، تنفلت حتى قبل إدراكى المادى برغبته فى جسدى، تدركها ألسنة النار التى تصطاد أحاسيس احتشاده لملاقاتى، فيدخلنى وأنا منفرطة السعير، ألف ذراعى حول جسده الذى لا أعرف كيف يبدأ بارداً هكذا. ودون أن يدفأ، يكون قد سكب كل أوردة شهوته فى اندفاع جنونى واحد، لا يبقى منه فى الغرفة إلا ذرى رغبته الفارغة من الأمل".

يحيطها بذراعيه دون صوت، يحايلها "كونى أكثر تحديداً لا ترميزاً أرجوك". وتدرك هى بفطرتها ما يريد، لكنها تعرف حجم الحواجز التى عليها اجتيازها أيضاً، ويسمع صوت همسها وهى فى حضنه:

"زحف التردد إلى رغبتى ليلةً وراء ليلة، تعلو حين تتغلب الطبيعة عليها، وتتوه حين يتغلب الكبرياء، إلى أن اكتشفت ذات يوم أننى أخفى على نفسى كم أنا خائفة من اقترابه. حل الخوف محل اشتهائى لرقصة الجسد، وانبثقت آلام الخواء لحظة إدراكى لنظرته، أو لبسمته التى ترتعش فوق ركن شفتيه، كأنه يخشى اكتمال ميلادها. علمت نفسى ألا أشعر بيديه وهما تتحسسان بشرة وجهى، وأن أتجاهلهما وهما ترعيان بين ثدييَّ أو تتزلقان أسفل سرتى. علمت أعصابى الصمود فى وجه طوفان الحس، وألقيت وردات الشبق إلى البئر لكى تجف مع كل المشاعر التى سبق وأغرقتها هناك. دربت أعضائى أن تتصرف إلى إدراك آخر غير هذا الذى يستفزها. وكان

عقلي- مايسترو هذه اللعبة- يقف مثل مارد يلعب دوراً خطيراً، لكنه يعرف كم هو نبيل: يعطى إشارة الفهم، ويصرف كل عضو إلى عمل غير عمله، يبدل الأدوار حتى تنهار قواه. أطالبه بالرحيل وصناعة عالم آخر، مفرداته ليست هذه الغرفة أو هذا الرجل، وهذا السرير؛ مفرداته ربما تكون حرب نيكاراجوا أو اكتشاف منجم فى البلقان. وهو فى حالة أخرى، جزيرة من الأصداف يجدف بى قارب نحوها، ليلقى بى إلى رجل لا أعرف له ملامح، يزيح أوراق الأشجار الكثيفة ليصل إلىَّ، وأنا فى شدة التوق إليه، فلا أعرف متى أكمل زوجى مهمته التى بدأها، إلا حين أدرك عمق تنفسه الذى يعلن لى أنه قد استغرق فى النوم منذ وقت لا أعلم مداه. تلفنى راحة، ربما تسلمنى إلى رجلى الذى فى الحواديت".

تلف جسدها لتحتويه كأنها حلزون، يتقاطعان ويتداخلان. تشعر بجسدها خفيفاً، وتزداد رغبته فى حثها على البوح أكثر، فيمرر أصابعه بين خصلات شعرها المتناثر فوق صدرها العارى، فتروح فى شبه يقظة وشبه نوم:

"مشكلتك.. عقلى الذى دربتُه طويلاً على التشتت، دربته على أن يُركب صورةً فوق صورة، يخترع شخصيات وأماكن وبسمات واسعةً تطل من شاشة كبيرة. امتلكت ترمومتراً لقدرته على الصمود فى جسدى. إذا أشار المقياس لحرارة عالية، فتحت لعقلى نافذةً بعيدة عن المكان، لا علاقة لها بما يحدث لى؛ كل أملى ألا يبدأ عقلى فى الصحو قبل أن ينهى هو قفزته. ساعتها، أسمع هدير قطار تنتظم حركة هصره للفلنكات تحت ثقل حديده، يزفر بخشونة محايدة، لا يلتفت إلى أحد، يتلوى وسط السكون، دون أن يعي حجم ما دكه تحت عجلاته من أوهام؛ فأخرج من تحته محطمةً تماماً.. قادم. ها هو

قادم. ثقيل ..ثقيل . ياإلهى.

لم أعد أعانى من جسدى؛ استطاع أن يرتدى قفازاً من جلد لامع لكنه ميت، بل من رأسى. أعانى من السؤال المدهش الذى أتجنبه، وأنا أعلم أنه قابع داخل عقلى، ويسكن قلبى: ولماذا تقبلين؟ ساعتها أرى القطار، وأسمع قرقعة عظامى، وأشم رائحة الشياط، وتتتابع الأسئلة تتابع المرور فوق الفلنكات: لماذا يقبل الركض وحيداً فى جسدى؟ ألا تعنى له المشاركة شيئاً؟ ألا أحقق له أية متعة بتفاعلى معه؟

يعلو صوت الموسيقى بجانبى، وتحتل الغرفة فتاة شقراء تتلوى، تغنى "باربى.. إنه عالم باربى من البلاستيك". أشعر كم أنا مجرد ظل أسود، وليته من البلاستيك. ومثل سيزيف، أعود أحلم بالاكتمال المستحيل. أحلم وأصدق كلماته التى يحفزنى بها على الاندماج معه: أعود أسير فى نفس الطريق لأصعد الجبل، أشوش على حدسى الذى لم يعد يقبل مجرد الفكرة. أخدعه، ثم يصدمنى أننى لا أستطيع أن ألمس أياً من أعضائه، لا أستطيع أن أداعبه، لأننى إذا فعلت سينفرط، وإذا لم أفعل بقيت جافة كحطب الصيف فى مدفأة بلا نار. فإذا اكتملت خديعة الوهم، حاولت أن أستبعد دفع طائر النشوة إلى الطيران، وأنا عاجزة عن فك دثاره. أهش أفكارى، أستحلفها أن تبتعد وتتركنى. أحتاج أن أكتمل. لمسة واحدة تكفى كى تضيء الشرارات كل دروب الإحساس. ينفلت الطائر عنوة دون أن أعى أننى وصلت إلى شاطئ اللذة وحيدة. وأن لهاثى- الذى يسيل فى الغرفة كصبح ناعم- يروى شجرة البؤس، لا شجرة الحياة. أقبض على فراغ، لا أحد معى، لا بشر، لا مكان. معلقة فى فراغ يسلمنى إلى سقف الغرفة التى لا أشعر أنها لى. تضيق وتضيق حتى تكاد الجدران

تسحقنى بينها. أبحث عنه، أجده قد غاب، لا بالنوم، ولكـــن بالفــهم. حين يضيق بكلماتى ولا يجيب، يغادر الغرفة، أو يغـــادر الوجــود. بصمت أكثر حدة، هارب دائماً من السؤال: ألا يوجد طبيب؟ صديـق؟ كائن ما قد نجد عنده إجابة.

يقول: لا أعرف ماذا يحدث. قد تكون المرة القادمة أفضل حالاً.

يضيق صدرى، فلا أستطيع أن أقترب منه أو أقبلــه. تذكرنـــى أنفاسه بعجزى، تذكرنى قبلته أننى لا أستطيع أن أستغرق فى إحساسٍ ما معه. رويداً، أصبحت أجفل حين يقترب. وراح كل مـــا يخصــه يدفعنى للهرب. اكتشفت فجأةً أننى أنفر من رائحـــة جلــده، عرقــه المنهمر فى عينىَّ لحظة وصوله إلى ذروة نشوته. يحفزنى إحساسى أننى لست امرأةً، بل مجرد أسير فى قفص، فأشم رائحةً بهيميةً تمــلأ رئتىَّ فتضيقان؛ حتى أصبح اقترابه من شفتىَّ عبثاً، فلم أعد أمكنه من هذا أبداً".

يـــوميـــات

معـــاناة

عانيت معك. ساعدنى الحظ أنى جئت إليك بعـــد لقـــاء بنســـاء متحررات، لعبت التعددية معهن دوراً هاماً فى إدراكهن للعلاقة بيـــن المرأة والرجل. دفعتُـــكِ دفعـــاً للخـــروج مـــن وطـــأة المحرمـــات والممنوعات، ذلك العالم القديم والأسلاك الشائكة التى أحطتِ نفســـكِ بها، أثناء اللقاء، حتى تحولت إلى عادة. كنت أجذب الكلمات من فمك لتعبرى عن مشاعرك، كما تفعل كل النساء. أحـــاول تحطيـــم قـــالب الجنس الذى سجنتِ نفسك فيه، قالب السكون الذى حولـــك– دون أن تدرين– إلى وضعية سالبة، مثل التمثال الجميل الذى يرفض الحركة. لم أكن أريد فعلاً له إيقاع رغبتى أو إيقاع رغبتك التى لم أجدها، بـــل إيقاع مشترك لجسدين متكافئين فى الحرية.

جئتنى بلا صوت. فلما خرج- للمرة الأولى- بدت معه مقـاومتك له. كان أشبه بالمواء المكتوم وراء شـــفتيك المضمومتيـــن، اللتيـــن تشبثت بزمهما. وكان أغرب مشهد رأيته حين فتحتُ عينـــىَّ لحظـــة انتشاء ذات مرة، فوجدت فمك مغلقاً على أصواتـــك التـــى تصـــارع للخروج، فيما كان جسدك بأكمله مفتوحًا لى.

سألتك مئات المرات: أريد أن أسمعك تصرخين، حيـــن جـــاءت لحظة قلت فيها وأنت تغيبين عن الوعى: "خائفة أن تصل صرخـــاتى للآخرين". مازال الخوف يعشش داخلك حتى الآن. لا أعـــرف مـــن القائل أن لا شهوة بلا هذيان. اتركى كل قواك الداخليـــة تتصـــارع، لتظهر كما هى، وانسى العالم الخارجى تماماً، فـــأنت عاريـــة بيـــن أحضان حبيبك. فما الذى يأتى بالغير إلى سريرنا؟!

إن كنت وهماً

لا أعرف لماذا حين تبتعد عنى- أمتاراً قليلةً- أشعر كأن القصـــة كلها ما كانت. يوحشنى بعادك حين أستدير، وأقطع الطريق المعـــاكس وحدى؛ فإذا مرت ليلة وليلة، تنقر الهواجس أحشـــائى دون هـــوادة، ويأتينى صوتك عبر التليفون، فتزداد وحشتى، ويختل يقينـــى بـــأنك نفس الرجل الذى أختصر فيه معنى الحياة. ويدمر اشتياقى معرفتـــى بأننا بالفعل موجودان - فى الثالثة صباحاً، حين أكون وحيداً إلا منك، وتضىء المسافة بينى وبين العالم، أشعر باحتياجى إليك، برغبتى فـــى

قول كلمة وحيدة: أحبك، أو ضمك دون صوت، أو حَكـي كـل مـا أزدحم به. أتلفت حولى، لا أجدك إلا فـي خيـالى، ولا أستطيع أن أتصل بك، أو أركب سيارتى لأختطفك إلى الأبد. وأسأل إن كنتِ وهماً. أكتشف- بعد قليل- أنها الكلمة الوحيدة الصحيحة لهذا الحـب، الذى نعلم سوياً كم هو كبير؛ فأنا أتوهم أنك لى حتى أعادل حيـاتى، ليمكننى البقاء متوازناً. وأتوهم أنك ستكونين لى فى المستقبل، وإلـى الأبد، كما أردنا أن نكون، حتى أستطيع احتمال الواقـع، واجترار الأيام. إننا نحلم لأننا لا نقبل الواقع ولا نغيره، ونكتفى بـالوهم. فمـا أحلاها من كلمة، لأنها تعنى أنك موجـودة، وأننـى أحبـك، وأنـك تحبيننى بالفعل، وأنك ستتخطين المسافة يوماً لكـي تسـتقرى بيـن ذراعىَّ إلى الأبد. = يا الله.. كم أنتَ قريب، كيف توحشـنى، وأنـت تسعى فى دمى؟ - ناهد.. أخرجينا من هذا الشـرك، الحيـاة ممتـدة أمامنا، لا تخافى، سأساندك، ليتك تدركين مانخسر.

محتـوى

أنتِ المحتوى !! =كيف أكون المحتوَى والمحتوِى فى آن معـاً، وأنا أحب ضعفى نحوك، وأعشق احتواءك لى حتى أتضاءل، وأكـاد أن أختفى، ثم أتلاشى فى مدارك المغلق علىّ - كيف تختفين داخلـى، وأنا الذى أنفذ فيك، فتضميننى، وتحكمين الأسر، تبثين فـي نفسـى شرارة التحولات، حتى لا أكاد أشعر بأن بعضى اخترق حجابك، بـل

ثقب وعيى بانفصال وجودى عنك، حاضر متبدل، متغير، تائه عن استقبال الصحو. أكون فيك، تلتفين حولى، وتصبحين المحتوى الظاهر والباطن، وأتبادل معك الوعى بالأعضاء، حتى لا أتعرف على بعضى. تصهر اللعبة إدراك الأجزاء، فلا أراها. أغشى ضعفكِ بوداعة، وأحسه كما لم أحسه مع امرأة من قبل. وأراك تعلنين داخلياً احتياجك لحمايتى، وأغتبط أكثر حين أرى تواضع عظمة استقلالك عن الغير.. تبدلين المدارات، تدورين حولى لا حول نفسك، تقتربين وتختصرين الكاف فى هناك لتصبح هنا. أدفن رأسى، فأشعر بدبيب الحليب المتدفق فى فمى من صدر أمى، ترشدنى نارك إلى التوحد فتكونين أنتِ المحتوِى والمحتوَى فى آن معاً.

قناع

أخاف أن اعتاد على ارتداء هذا القناع الزائف. ميكانيزم الانفصام تداخل مع منهجى فى التفكير. أخترع تفاصيل لتحل محل التفاصيل الحقيقية. لم أعد أستطيع أن أفرق بين الصدق والكذب، بين الحقيقة والخداع. سأعتاد هذا الأسلوب فى الحياة؛ فلن يقتصر على ما بينى وبين ماجى، سينسحب يوماً ما عليكِ، وعلى حياتى كلها. أىّ قناعٍ أرتدى الآن؟ لا تجعلى الاستثناء قاعدة، فهذا خطر. لن أقول لكِ أيّ ثمن أدفع حين أدخل بوجه زائف، وأتحدث بلسان زائف. زحف الزيف علىّ وراح يخنقنى، وأنا موزع بين الأقنعة. لا أرى جدوى

من كل هذا الوهم، وكل هذه التمثيلية.

مرآة الحب الكاشفة

تأملت الخطوط الدقيقة التي ترعى في وجهك، وتشع راحة جميلة. ذكرتني بأعمال كبار الفنانين التشكيليين، الذين نحتار في أسباب شغفنا برسمهم للوجوه. واكتشفت أن وجهك جميل، في هذه اللحظة، لأنه يعكس أعماقك، ويبث مشاعرك، دون أن يكتفى بمشاعر اللحظة؛ بل الخفى الكامن من أحاسيسك الحقيقية الصافية. قرأت الخلايا المتقافزة تحت جلدك، التي تشي بروعة ما تحس به الآن. تعلقت نظراتي بهذه الرجفة الناعمة التي ترتعش بالحياة، في عينيك اللتين تخبرانني بلا كلمات: المعنى.

هل تأتى لحظة مثل هذه لبشر، أم أننا ننفرد بها؟ ليتنى أمسك بها إلى الأبد. أتذكر كلماتك لى حين ترانى بعد انتشاء: "أكاد أجزم أن مخلوقاً واحداً لم يركِ كما أراكِ الآن"؛ أغلق عينىَّ على ابتسامة دلال، وأفتحهما على سعادة هى خليط من السكينة والانفجار؛ سكينة تغلف ناراً لا تأكلها، لكنها تحفظها. نعم.. مستحيل أن يكون مخلوق قد رآنى بهذا الشكل من قبل، لأننى لم أكن أبداً هكذا مع غيرك، ولن أكون؛ لأنني– في هذه اللحظة– أدرك معنى التغيير والتجدد، بل التبدل أيضاً. فنحن لسنا نفس الأشخاص في لحظة أخرى؛ ذلك أن معطيات اللحظة مختلفة، ولأننى قبل لحظات لم أكن قد امتلكت

لحظتى هذه. فجأة، تذكرت "مرآة الحب العمياء"، واكتشفت أن من قالها لم يعرف العشق، لأن مرآة الحب كاشفة للداخل المستحيل على الآخرين.

مصيدة

لم أدرك ما يحدث. دخلت حالةً من الترقب، دفعنى إليها عدم يقينى من إمكانية التنبؤ بمساراتك. شيء لم أعهده نبه حواسى وعقلى الذى تعود الغياب، اكتشف أن له دوراً فى اللعبة المحرمة عليه. شعرت بك مرات تحتشدين مدججةً باندفاعات ملتهبة؛ تصورت أنك على وشك الوصول إلى غايتك، لكنك لم تطلقى إشارة بدء الانطلاق؛ بل تخفضين حركة النغمات، وتتكاسلين فى اقتناصها فتمتد وتمتد، ثم تعاودين الاندفاع حتى أكاد أجزم أنها نقطة الوصول، فترمينى بسهم من النعومة يعيدنى إلى تيار أخفت. =تركتكَ اليوم تتعثر فى شباك نصبتها لك، بحكم معرفتى الطويلة بك، حين تريدنى ثانية. أدركت أنَّ رغبتك كثيراً ما تفوق طاقتك. رحت أرصدها بصبر، وأتلمس ملامحها. واستطعت بعد وقت أن أدير الدفة، كل مرة تقع فيها أسير الطمع؛ فأطلق إيقاعاً يناسب قدرتك على الصمود والعزف. لاحظتِ اليوم انتعاشك وتماسكك. علت رغبتى، وغلبنى اشتهائى لك، فكنتُ كلما أوشكت على غايتى منيت نفسى بمتعة ممكنة باقية، وقبلت الرهان. قامرت بالمدة، حتى لو لم أستطع اقتناص النشوة. وتركت

جسدى لتيار المتعة، ورحت أغزل خيوط الرغبة، وأغرق فى إيقاعها إلى أن تتكون شبكة أقطع غزلها، لكى أبدأ معك من جديد - هل أنت نفس المرأة التى حين مددت لها ذراعى ذات يوم، لكى تعيد ترتيب طيات كم القميص، لم تستطع أن تمد أصابعها، وراحت تبتسم فى خجل، وهى تستدير بوجهها إلى الناحية الأخرى، حتى لا تكشف حجم اضطرابها؟ = مازلت أستشعر نفس الخجل، وأستطعم فى حلقى جمال اللحظة، وشوقى للمسك وعدم قدرتى. ما كان أجملها من لحظة.

سيرة روائية

فِى روايتك الجديدة- التى امتزج السرد فيها بسيرتك الذاتية- رحتُ أبحث عما استطعت أن أغيره فيك من جهامة. لم أجدنى قطعت شوطاً بعيداً. رأيتك مصمماً على حالة توحش بدائية، ما فارقتك صغيراً، تختنق من زحام الأخوة؛ أو صبياً ، تفزع إلى الحقول؛ أو شاباً مستقلاً عن العائلة.

رحت أبحث عن أسبابها: هل هى رغبة فى الحياة على فطرتها؟ هل هى انعكاس لآلام الحياة التى عرفتها؟ أم أن من وهبك دنياك كان يدوسك فى طريقه، لكى تنجوا معاً؟ فى السيرة: أباك الذى لم أره أبداً، يستنفر قواه حين يعود إليكم من الصحراء، فى رحلته الشهرية، ليقضى بينكم أياماً أربعة، هى كل ما يستطيع أن يبتعده عن بريمة

البترول. يطلق نفير الرعب في سماء البيت لتتذكروا وجوده، وتمتثلوا للنظام، ثم يدخل إلى فراشه ليولدكم طفلاً آخراً. لم يكن يشبه أبا الروائى المغربى محمد شكرى، الذى حاول أن يوقف بكاء طفله الصغير، فقسم رقبته، وأفزع محمد إلى الأبد؛ فسكن الشوارع. لكنه ترك شوكةً نابتةً تتغذى من جرح أراه فى أعماقك، يظهر لى فجأةً حين أكون غافلةً عنه، حتى أكاد أن أسال: هل حقاً أنا آمنة على نفسى معك؟ وشم ساخن أشم رائحة شياط اللحم فيه، واحتراق الشعر، كأنك فرس أصيل فى مرتع. أصدق أننى أستطيع أن أمنع وصول الألم من هذا الوشم إلي قلبك، تلك الوخزة التى تحركٍ فيك الشهوة للشر، تدفعك دون ترو ناحية أيٍ من كان، وضد أي من كان، حتى وإن كان نفسك. أخال أننى قادرة على مداواتها. وحين أصدق ذلك، أرى السهم يخترق ذراعى، فأبكى صامتةً، أو أصرخ فى البرارى: لن أعود إليك، وأنا أعرف أنى عائدة ،حتى قبل أن تجف دموعى.

غجرية

ذات يوم، حين عدتُ فى منتصف الليل إلى البيت، وكنا قد تعاركنا قبل خروجي، وجدتها نائمةً فى سرير شريف وغرفتى مبعثرة، كأن التتار قد مروا بها. ملابسى فوق الأرض، وأوراقى تغطى السرير. تأملت ملامح الغضب فوق وجهها، وسألت نفسى: كيف يستطيع إنسان أن يُحمّل نومه بالعراك والثورة؟ أدركت ساعتها أنها ليست الغجرية التى بحثت عنها، والتى قدمها لى الأدب ذات يوم. "الغجرية حين تحب، تحب متحررةً من المكان والقوانين، حتى يصبح الحب هو القانون. وعندما تحب رجلاً غريباً تأخذه إلى خيمتها، يصبح رجلها، لكنه بعد فترة يكتشف آخر فى أحضانها فيرتد إلى مدنيته ويقتلها، ليلقنه الجد الدرس: أنه لم يفهم شيئاً طوال الفترة التى قضاها معهم. لقد ظل كما أتى متشبثاً بفكرة الامتلاك المدينى، لا فكرة الحرية فى ذاتها، التى تشبه القانون للغجرى والغجرية". هكذا وجدت عجلات الغجر مهشمةً، ونيرانهم منطفئةً، وجسد زمفيرا الجميل مبعثر الأشلاء. لملمت كل شىء، وبكيت.

دور وحيد

تطلعت إلى حركة يده التى أسندها إلى ظهر المقعد، بعينين بزغتا فى مؤخرة رأسى، وأرسلتا استشعارهما إلى جسدى الذى ارتاح تلك الراحة الهادئة، الناجمة عن تربيت أم فوق وجنة ابنها النائم فى حضنها؛ رغم أن أصابعه لم تلمسنى. علت ضحكاتنا فى المكان، وخيمت سحابة راحت تزيح طبقات من نسيج يرسم ضبابات رصاصية فى صدرى. لم يقترب كثيراً، لكنه اقترب بما يكفى كى يصلنى إشعاع دفئه، المغلف بوعى من يعرف أن لديه شيئاً ثميناً يخشى خدشه. لم أبتعد، ولم أقترب، وظللت على الحافة بين الرغبتين، سعيدة ومكتفية، لولا اشتهاء صغير لأن تمتد كفه، وتنزلق بخفة على شعرى. حملت رغبتي، ومضيت إلى البيت، وأسكنته حلماً جاء عفوياً، لعب فيه دوراً وحيداً: ضمنى إلى صدره، ومضى.

ملامـــح

أضجر من قيادة السيارة فى لحظة الذروة فى القـــاهرة. أقطـــع وناهد الطريق للمدينة من شمالها إلى جنوبها. يرهقني التوتـــر مـــن استمرار الضغط فوق دواسة "الدبرياج"، والعـــرق يـــنز، والقميـــص يلتصق بى ، فأتذكر واحتنا التى نسعى إليها فرحين. لاحظنـــا اليـــوم تناثر أشجار صغيرة أمام بعض العمارات، إذ جذب وجودنـــا ســـكانا آخرين متفرقين. وكلما دخلها ساكن جديـــد، رأينـــا تغـــير أســـوار الشرفات، وأضاءت المصابيح أماكن أخرى فى أبنية المشروع، كمـــا كنا نسميه. وتحولت عمارتنا إلى عمارة الصحفـــى، وأخـــرى إلـــى عمارة الدكتور، وثالثة إلى عمارة البقال. هكذا اكتسب الحى ملامـــح راحت تزداد وضوحا بمرور الوقت، لكن ببطء شديد.. وجدنا عمـــالا يعلقون لافتة مقهى، وتعجبنا: من سيأتى إلى هنا كـــى يجلـــس فـــى المقهى، ثم اكتشفنا أنها لسائقى الشاحنات الكبيرة التى تعبر الطريـــق الدائرى من الخلف. وشهدنا سيارات نقل ضخمة تجر مقطورات ينـــلم أصحابها فى بعض الشقق، التى عرفـــت للمـــرة الأولـــى الإيجـــار المفروش. لم تعجبنى تطورات المنطقة؛ كانت تسعى حثيثا كى تـــأخذ شكل كائن منبوذ لخليط غير متجانس. لم يكن الفقـــر وحـــده إحـــدى سماته، لكن الهرب أيضا من المجتمع.. ألم نكـــن أنـــا ونـــاهد أحـــد النماذج؟

خمسة

حقيـقة

أريدك كما أنت ، كل الحقيقة، وسأتحملها مهما كان الثمن - الحقيقة مؤلمة، وقد تتصورين أن المعرفة أهم من الألم، وأنت غير مؤهلة لذلك. =لا أقبل أن يشاركك الغرباء دوني شيئاً، لا أريد التعامل مع صورة في خيالي، بل مع الواقع الذي أعشقه بلا زيف - اسمعي إذن، في حياتي الآن امرأة أخرى، لا أحبها، لا تمثل لي أي شيء = منذ متى؟ - منذ ثلاثة أشهر، دعتني إلى سهرة في بيتها. كنت وحيداً ومرتبكاً وأنت بعيدة عني. أعترف أنني استمتعت بها وأمتعتها. لكنني فكرت في معنى لقائي بها، وعرفت أن علاقتنا في خطر، وأن هذا ما كان ليحدث لو لم تكن علاقتنا تمر بأزمة = أنت نصف العلاقة، فلماذا لم تحاول إنقاذها؟ - لم أشعر بالأزمة إلا بعد أن وجدتني معها، فأدركت ما لم أكن أراه = لماذا لم تخبرني في حينها؟ - خفت عليكِ، وظننت أنني أستطيع أن أعبرها، ثم أتحدث معك. ثم سافرت، وهناك قررت البقاء، وقبول العمل في جريدة لندنية. وقبل أن ينتهي وقت المؤتمر، حاصرني الركود والضجر، لم أستطع البقاء، وعدت إليك، لأنني أريدك.

لم تعرف كيف سار الحديث، ولا من أين جاءت تلك النيران الصغيرة التى تثقب جلدها فى هذه اللحظة. هشتها بهدوء لا يناسب الحدث، ورسمت ابتسامةً بهتت قليلاً قليلاً فوق وجهها، فاستدارت كلماته وتحولت إلى اتجاه آخر، رأته على وجهه قبل أن ينطق؛ إذ تلبسه فجأة شعور من وقع فى مصيدة، رغم أنها لم تنطق حرفاً واحداً.

سمعته يصف خوفه على حبهما، حتى تنبهت إلى أشياء بدت لها غريبة: خائف من نتيجة ما حدث على قصتنا، خائف أن تنهار علاقتنا بسبب لحظة عابرة، ما كانت لتحدث فى الأوقات العادية.. = لماذا تتصور أن علاقتنا بهذه الهشاشة؟ بالطبع ستصمد فى وجه كل ما تتعرض له من مخاطر. أنا صديقتك، فلمن تشكو همك إذن؟ - لا أستطيع الفصل بين صديقتى وحبيبتى. لا أرى هذه الشعرة. سرعان ما تتبادل المرأتان المواقع. فى لحظة ما لن تتحملى = إذا انهارت حبيبتك، ستضمك صديقتك. لا تخش شيئاً، سنتجاوز الأزمة.

أيام ثلاثة مرت، يلتقيان دون أن يذكرا الموضوع الحرام. يلتقيان وقتاً قصيراً سريعاً، يرعى كل منهما الآخر كأنها المرة الأخيرة التى يراه فيها. يحيطها بدفء وتحيطه بحنان، ثم يفترقان وكل منهما يتابع الآخر بعينين متوسلتين، تستجديان الأمل فى لقاء الغد. تلوك هى الدقائق، والوقت براح، لا نوم ولا أحداث. تستجمع ما حدث فى الشهور الثلاثة الأخيرة، تراه فى حضنها يسألها إن كانت قد تعبت من إقباله عليها، تتصور "سلمى عابد" بين ذراعيه، وتحترق. ترفض بقسوة البكاء، وهى تريد الصراخ. تركض فى بحر اللحظات التى كانت تجمعهما، وتستعيدها قطرة قطرة. "يمر بأزمة يشكو منها، ويبتعد حزيناً، فأصبر حتى تحل المشكلة. يصمت فأنتظر، أمنع عنه

كل ما يمر بى من مشاكل، لأقابله باسمةً هادئة، فيهرب إلى أخرى؟"

يغرق فى العمل، يهرب من أفكاره، غير آمن لرد فعلها؛ يريد لها الأمان بكل وسيلة، يتابعها تليفونياً فى كل مكان تذهب إليه، يحكى لها تفاصيل يومه، دون أن تسأله. يتلقى تليفونات سلمى عابد، يلاحظ فتور فضوله، ويكتشف حجم الثرثرة التى لم يكن يلاحظها من قبل. يقتله الوقت؛ ينعزل عن ماجى، يحدد المسافة بينهما، ويرتاح إلى الصمت الذى يمنعها من افتعال المعارك. يغرق أمام الكومبيوتر حتى الصباح، ويدخل السرير مع دقات الساعة التى يصحو بسببها شريف، ويسمع- وهو يدلف أخيراً إلى النوم- تعليمات ماجى إليه، قبل ذهابه إلى المدرسة.

جاء الانفجار فى اليوم الرابع، بعد أن سهرت الليل تسأل نفسها: "يقول لى أحبك، ويقول إن سلمى عابد لم تكن رغبةً طارئةً فى امرأة، لكنها نتاج انهيار علاقتنا. كيف؟"

سألته وهى ترتجف: هل تشعر بفتور نحوى؟

راوغ، نظر إليها مثل طفل يريد الهرب من أمه، فى هذه اللحظة، على أن يعود ليجدها قد نسيت فعلته. لكنها- فى هذه اللحظة- كانت حبيبته لا صديقته أو أمه. كانت مستعدةً لفهم شهوته، وضعفه ناحية امرأة جميلة وحيدة ترغبه. لكنها لم تكن مستعدةً لأن يلقى تبعة ما حدث على علاقتهما.

= فيكَ شر، شر أصلى. أغمض عينيَّ عنه كثيراً وأنساه، لكنه يفاجئنى رغماً عنى، بسطوته ونفوذه - أردتِنى كما أنا = ما أقساك: كيف طاوعك قلبك؟ كيف استطعت؟ ألم تتذكرني ساعتها؟ - لو

تذكرتك ما حدث ذلك. كانت لحظةً بين امرأة ورجل منفردين. ولــن يتكرر هذا؛ سنحافظ على حبنا وسنتجاوز ما حدث.

امتدت أصابعه تتخلل شعرها، وكفه تجذب رأسها إلى صـــدره. انهارت لحظة أن مست شفتاها كتفه؛ راحت تهذى، والأفكارُ تـــدور وتتطوح داخل عقلها، تلاعبها بصورته يضم سـلمى عــابد. تائهــة وصغيرة، والعالم أوسع من قدرتها على الوجود فيه.

= إن كان الحب يخفت..أخــبرنى الآن. ســأحتمل، لكنــى لــن أستطيع أن أعيش معك، وأنا أتابعه يموت. قل لى إن ما تحمله مـــن مشاعر لم تعد كما كانت، سأمضى دون عتاب. لكن لا تتركنى أرعى موته.

اعتصرها بيديه، امتزجت كلماتهما، تداخلت واشـــتبكت دون أن ينتظر أى منهما الآخر. كل منهما يحادث نفسه!

- لا تقولى هذا أبداً، مسئوليتنا أن نستعيد كل ما لدينـــا = هــى بداية النهاية - بل هو مفترق الطرق، إما أن نمضى معاً، أو نُضيــع الحب. تشبثي بى أرجوك، لا تتركينى، أحتاجك الآن أكـــثر مــن أى وقت مضى. =أحبكَ؛ لكنى أريد الفهم، الفهم فحسب. كيـــف تحبنـــى وتهرب منى؟ كيف استطعتَ أن تضمها إلى صدرك؟ - الجنس عنـــد الرجل ليس الجنس عند المرأة. قلت لك هذا، وناقشناه معاً كثـــيراً = واحد.. مازلتُ أقول إنه واحد، وأنها فروق فردية - عرفتُ نســـاءً، وتعاملت معهن دون أن أحبهن، للمتعة وحدها. لكنـــك لا تســتطيعين هذا إلا لرجل واحد. صدقينى، الأمر عابر، ولن يؤثر علينـــا، وقــد تجاوزته، وأعرف أنك ستتجاوزينه.

في طريق افتراقهما، وهي تعبر البرزخ إلى العالم الآخر، سألت نفسها: لماذا لا أكرهه؟ هل أنا مريضة بهذا الحب؟

لحظة

قالت : لم تكن اللحظة لنا.

نظر إليها تلك النظرة العميقة، المسيطرة على ردود أفعاله، حتى لا تفلت رغماً عنه. لكنها توجست مما تخفيه هذه النظرة المتسائلة عن المعنى. تأملته وتأملت هدوءها، وتعجبت من هذا الفعل الرائع المسمى الزمن، وكيف يخلق مناخاً محايداً، ويبرد ناراً كانت مستعرة.

قال: كيف؟

قالت: بالأمس، حين كنا معاً، رغم اندفاعنا وشوقنا الملتهب، حالت بيني وبينك، وقفت بين شفاهنا. انبثق السؤال إلى ذهني: هل كان يعطيها من نفسه ما يعطيني الآن؟ أبحثَ نفسكَ لها، ما الفرق إذن؟ انكمشتُ، وتقلصت أعضائي ألماً. ارتجفتُ، وظننتها أنت لهفةَ العطش. أمسكتَ بي، وعزفنا لحنين منفصلين، جاءا بالصدفة من الخارج على إيقاع واحد. هل قلتَ لها نفس الكلمات؟ سؤال ثم سؤال وتوالت الأسئلة. هل جئت بها، أنت أيضاً إلى سريري؟

- لو جاءت ما أكملنا فعلنا. حضور الأخرى يقطع توحدى بــك. كيف استطعتِ أن تكملى ما بدأنا، ونحن- كما تقولين- ثلاثة؟

= لم تجب على سؤالى. لا تراوغ الكلمات.

- لا أذكر ما قلتُه لها، كانت لحظةً عابرة.

- أعرفك.. أعرف قاموسك، وكيف تستفز أنثاك كى تعبر عـــن داخلها. بالأمس، ونحن معاً، تأملتُ للمرة الأولى ما نقوله فى لحظتنا. اكتشفت أننى أعبر عن أحاسيس مختلفة بكلمة واحدة؛ كم هو ضئيـــل ومحدود قاموسى. فقد تثيرنى لمسة، وتتدفع طاقة معربدة تفقد خلاياى صوابها، أقول لك "سأجن"، بعدها يأتى جنون مغاير لأحاسيس تخـــل بالتوازن والإدراك، وتلقى بى إلى منطقة سرمدية بلا ملامح، فـــأقول لك "سأجن"، دون أن يكون نفس الجنون؛ لكنه معنى آخر تراوغ اللغة فى الوصول إليه. فلابد أنك كلمتها كما تكلمنى.

- لم أكن مع أى امرأة مثلما أكون معك. تقولين لى "لم أعـــرف نفسى إلا معك"، ربما بسببٍ افتقاد التجربة، وعدم معرفتك بآخرٍ غـير مصطفى. لكنى عرفت نساءً متنوعات، ومررت بالعابر، وذقتُ الحب الذى لم تعيشيه من قبل مع آخر. ومع كل هذه التجارب، لم أعـــرف ما عرفته إلا معك. حتى فى اللقاء الطبيعى المباشر، هناك فارق بيـن لحظة دافعها الحب ولحظة دافعها الرغبة. بل قد أكون تعـــاملت مـــع محترفات، لا أقصد عاهرات، لكن خبيرات فى التعامل مع الجســـد، قادرات على إيصاله إلى قمة الانفعال والنشوة. لكنه مجـــرد فعــل، مجرد وهج ينتهى الإحساس به لحظة أن يتوقف. معك، نحن نحـــب فعلنا، وما نوصله لبعضنا، لأنه نابع من عمق لا يمكن تكراره. هـــذا ما أريدك أن تعرفيه. أغلقى هذه الصفحة إلى الأبد، اطويها بـــالإرادة،

حتى نعيش حبنا كما كان. اتركى العابر، وتمسكى بالحقيقى الباقى.

شعرَت بالمرارة التى يغلفها هدوء كلماته، استحلبتها فى فمها مثل العلقم، وتمنت أن يمد يده ليأخذها إلى حضنه، وينسيها كل ما مر بهما، لكنه لم يتحرك. "كل هذه الخبرة بالحياة والمعرفة بالأنثى، ومع هذا أكتشف –في لحظة الضعف– أنه لا يستعمل عصا الساحر، التى تمكنه من قتل يأسى: أن يضمنى. يا إلهى.. مازال بين الرجل وفهم امرأته عالم واسع، لا يريد ولوجه !!".

قالت: أشعر أننى سُرقت. فهى لم تشاركنى فيك حين ولجتها فحسب؛ إنها تشاركنى وجودى معك الآن، تشاركنى أدق خصوصياتنا.

قال: سأحكى لك شيئاً، ربما لم أحدثك عنه من قبل، حين بدأنا منذ سنوات طويلة، طرقت ذهنى أسئلة كثيرة حول تعاملك مع مصطفى: كيف تلمسينه، تتحدثين إليه، ردود أفعالك لتحرشات جسده بك.. لم أكن آتى بها إلى سريرنا، لكننى كنت أفكر بها وحيداً، حين تبتعدين عنىٍ، وأطلق لخيالى عنان معرفتك أكثر. وحين أسألك، تجيبين قطرة قطرة، بصعوبة وألم. لم أكن أفهم ساعتها الأسباب، وتساقطت مع الوقت بعض التفاصيل الشحيحة التى مكنتنى من تكوين صورة حياتك قبلى. صدقينى، لقد طردتها بالحسم والإرادة، لأنها لو تُركت لرعت بيننا ومزقتنا.

= منذ عرفتك، وأنا أقدر فيك فهمك الإنسانى. هو أحد أسباب حبى لك. لم أتوقف أو أخف من فهمك لمشاعرى السابقة، كنت على يقين من عبورها بهدوء. كما قدرت منهج تفكيرك وتقديرك للأشياء، وأنت تعلم أننى بذلت جهداً مماثلاً لمعرفة كل ما يخصك

قبل لقائنا. واستمعت إليك ليالى طويلة تحكى عما مـــر بــك، عــن نسائك، عن ماجى، عن حبك لها. ألح عليك بسؤال دائم، وأنا خائفــة: كيف ينتهى الحب إلى ما انتهيتما إليه؟ كنت أتصور - قبل أن ألتقـــى بك- أن العلاقة القائمة على العشرة هى التـــى تنــهار، وأن علاقــة الزواج بالحب لا تنفصم عراها أبداً. لم أنزعج، ولو للحظة واحــــدة، مما أعطيته لأخرى قبلى؛ لكن الفارق كبير بين التجربتين. لقد اتخذتَ خطوةً للخارج، إلى غيرى، وقلتَ إن علاقتنا هى السبب. فما الـــذى شعرت به نحوها؟ وما الذى أعادك لى؟ أريد أن أطمئن على المعنـــى النفسى، على نسيج الكلمات الحقيقى الذى تعبر به عن الحـــب الآن؛ لأن الحب ليس كائناً واحداً، والمشاعر ليست واحدة؛ فأين أهرب مـــن الكلمات التى كنت تقولها لي طوال الشهور الثلاثة التى عرفت فيـــها سلمى عابد، والتى كانت تحمل معنى الحب المطلق؟ وكيف يكون لــها نفس المعنى؟ وكيف يكون وقعها علىَّ الآن؟ كيف أخلــص معناهــا الحقيقى من القالب الذى تقال فيه.

- ناهد... لماذا جلد الذات؟ محاولاتك للفهم هذه قد تــؤدى إلـــى كارثة. كثير من الأسئلة لا إجابة لها، لا أعرف لها إجابة.

= قلت لى إنك كنت ضجراً، تشـــعر بـــالوحدة وأنــا مشــغولة بالدكتوراه. لكنك كنت تمارس علاقتك بى كأزهى ما تكون، لا تشــعر فيها بالغربة، على العكس بالاكتمال. فلماذا يكون الخروج- فى هـــذه الحالة- خروجاً إلى الجنس؟ ولماذا عدت؟

- أنا لم أخرج كى أعود. المشكلة أنك لا تعرفين معنى العـــابر فى حياة الرجل، لم تكن شهوراً ثلاثة، بل لحظةَ نزوة عابرة. زمـــن التجربة احتل فيه الفضول، وتبادل كلمات المعرفة، كل الوقت. حبـــى

لك لم يختل، ولم يتغير. تأملتُ ما حدث فرفضته، وقررت الابتعاد عنها، وعدم تكرار ما حدث.

= مشكلتى أننى أحتاج إلى الصورة الكاملة لكى أعقلها، لا يمكننى فهم شيء ينطوى على فراغات. ما معنى أنك تأملت ما حدث؟ وكيف كنت ترانى حتى تبتعد؟ وما الذى رأيته لكى تستأنف ما كان؟ كيف تكون مشاعرك الحقيقية؟

انطلق جرس الباب يصوصو بشدة، جاء البواب بالطلبات، فحملتها إلى المطبخ، وراحت تجهز الطعام. كان الوقت مناسباً لكى تطير الأسئلة إلى فضاءات بعيدة، وترحل عنها. جاء يمسك بخصرها ويقبلها فى رأسها، ثم صحبها إلى المائدة، ونسيا ما كانا فيه منذ دقائق.

ألـــم

جاءت مدججةً بحلى زائفة، وألوان فاقعة، وماكياج صارخ يخفي طعنات الزمن بيد ماهرة. تلوك علكةً بشبق واضـــح. لفتـــت أنظـــار الموجودين فى مقر الجمعية التاريخية للآثار، بما ارتدته من ملابـــس ذات طابع أسبانى فلاحى؛ جيب واسعة بكرانيش تتلوى تحت طبقـــات الأنسجة المتعددة، وبلوزة بيضاء بلا أكمام، وإيشارب ذو شراشـــيب طويلة عقصته فوق شعرها، وتركت خصلاته تتدلى. حركة الجســـد ربما هى الجرس الذى أثارٍ الاستنفار فى المكـــان. تقصعـــت بيـــن الموائد، ثم اتجهت مباشرةً إلى ناهد التى استقبلتها بالحفاوة المعتادة.

قالت سلمى عابد: كنتُ فى رحلة تفتيش شاقة، لكنها ضروريـــة جداً. أنت تعلمين كم تحتاج الآثار إلى الرقابـــة، وكـــم تعـــانى مـــن الإهمال.

تأملتها: "هل يعقل أن تخبرني أنها كانت فى رحلة مع حبيبـــى؟" تتبعت مسارات الألم التى حفرها الزمن فوق وجهـــها. رأت زحـــف السواد فوق بشرة رقبتها، "زيف ركام المساحيق يخدع، يغطى مـــرارة

الجروح والانكسارات، لكنه لا يغطي الكذب". تحاول أن تستشرف كل ما تريد فهمه، وتقمع رغبتها بهدوء لا تعرف مصدره.

= انتبهى قليلاً لصحتك يا سلمى.

دارت نصف دورة، وهى مازالت واقفةً بين المناضد، قائلةً بصوت عال غير موجة لناهد وحدها: ألا ترين التغيير؟ ألستُ أحسن حالاً!

ابتسمت وهى تهز رأسها، "تمنين النفس بقصة حب مع عمر، وأنت واثقة من علاقته بى. ما أعجب خداع النفس!". استدارات الكلمات إلى الحديث عن الرجال، بعد أن عقب أحد الحاضرين على ملابس سلمى، بأنها تريد أن تجهز على رجال مصر كلهم.

- الرجال مثل "الكلينكس"، لا يُستعملون إلا مرةً واحدة.

ضحك الجميع. وأكملت ناهد ابتسامةً اجتهدت كثيراً حتى لا تفصح عن مرارتها. تابعت بعينيها القفشات المتبادلة بين سلمى والموجودين حول المناضد المختلفة التى تضمها حديقة المكان. "كيف تجسرين على هذا القول؟ ولماذا اقتربت من عمر؟ هل هى شهوة سرقة رجل من امرأة يحبها وتحبه؟ أم هى محاولة إثبات ذات، بأنك قادرة على الحصول على هذا الرجل الذى يتناقلون قصة حبه لى".

تعالت الأصوات، دون أن تدرك ناهد الكلمات بالضبط. وتعلق بصرها بعينى سلمى اللتين تلمعان بمعانٍ كثيرة معاً. عينان قلقتان ذكّرت ناهد بوحشة الغابة، وخوف الخطر، واستهتار المذبوح بما هو مقبل عليه من موات، وبما مر به من حياة..

"هل نلعب معاً لعبة المعرفة؟ تعرفين عنى ما لا أتصوره، كما

أعرف ما لا تتصورين معرفتى به. هل حكى لــك قصتنــا؟ بمــاذا وصفنى؟ وكيف صور لك نهاية علاقتنا؟ فمــن غــير المعقــول أن يحاول ارتداء رداء جديد، دون أن يتخلص من ردائــه القديــم. هــل أخبرك أن الرداء تهرأ ولم يعد يناسبه؟ لكنكِ حتما لا تتصورين أننــى أعرف دقائق قصتك معه، كيف تهيأتِ له، ماذا قلتِ، وكيــف مســت أصابعكِ جسده. يا الله.. ماذا فعلنا بأنفسنا؟ هل جننت حتــى أطالبــه بالحقيقة كلها، كى أتعذب بها، أم أننى أستحق العقاب على حبى له؟".

وصل زميل مشترك لهما، انشغلت سلمى به، ثم سألته بصــوت عال واضح: هل تعرف من هو المسئول عن تسريب المعلومات عــن دخول أجهزة غير مرغوب فيها أمنياً، وسط الأجهزة التى اســتوردت من أجل تأمين مناطق الآثار؟ إن كنت تعرفه أريد الوصول إليه، بأى شكل.

أجاب مراوغاً، وهو يشد حرف الشال لينفلت من شعرها، وهــى تتقصع تحت حركة أصابعه: لماذا؟

تجهم وجهها، وهى تحاول أن تلملم شعرها الذى انــهمر فجــأة فوق كتفها، ضاربة كتفه بعنف:

- أريده.. والسلام. إن لم تقــدم لــى الخدمــة.. ألــف غــيرك سيقدمها؟!

- تريديها لمن؟

رفضت سلمى بإصرار أن تنطق باسم صاحب الطلب، ونقل هــو النظرات بينها وبين ناهد. كان يعرف صلتها القويــة بعمــر الــذى يختلف معه دائماً، وبدا السؤال الذكى على ملامحه. هل يكون عمــر

هو المتخفي وراء هذا الطلب؟ ولهذا دفعت ناهد سلمى لكى تحصل على المعلومات؟ طاردت ناهد العينين الغاضبتين، وهى مشغولة بطلب سلمى، الذى وقع عليها وقوع الصاعقة. فقد ذكر لها عمر رغبته فى الإمساك بخيط المعلومات التى توفرت لديه، لكى يقوم بضربة صحفية ضد شركة استغلت طلبات استيراد منتجاتها، لكى تغرق الأسواق بأجهزة يتعامل فيها الإرهابيون. وقضى الليل يفكر معها فى تتبع مسار المعلومات. "مازال إذن يتصل بها رغم أنه أقسم أنه قطع علاقته بها نهائياً. تعرف تفاصيل حياته إذن ساعة بساعة". تمزعت بين ما يحدث أمامها والرد على مجالسيها الذين ردوا على التغييرات التى تطرأ على حالتها بعلامة استفهام كبيرة، ارتسمت على وجوههم. والدماء تتصاعد إلى وجهها، حتى تحول إلى كرة من لهب، رغم كل محاولاتها للتماسك. اصطحبت سلمى الرجل إلى الخارج، وهى تتفق معه على وسيلة الاتصال للحصول على المعلومات. وهربت ناهد من المكان بعد دقيقتين، هما أقصى ما استطاعت الصمود فيه من وقت.

خرجت إلى شارع مزدحم بالناس والسيارات. قبضت على دموعها بإرادة حديدية، وفي صدرها كائن هائل الوجود يريد الصراخ، وهى لا رغبة لها إلا فتح فمها لينطلق الكائن دون صوت؛ ينطلق إلى الريح، إلى الله، إلى الكون إلى الناس.

تذكرت لحظتى ألم شاهدت إحداهما وسط الأصدقاء، والأخرى معه. كانت الأولى ضمن عرض لمسرحية "الفُرس" لفرقة يونانية، حضرته فى أسبانيا: بالبرينات يرقصن ويرفرفن من الألم، بصراخ صامت، ينعين هزيمة الفرس. انطبعت الصورة بذهنها لسنوات بإعجاب: كيف استطاع المخرج التعبير عن الروع بهذا الصمت،

وسط سواد المسرح والملابس، إلا من ضوء قليل يكشف عن وجوه الممثلات المفعم بالحزن. أما الثانية، التي سيطرت على خيالها، فقد رأتها منذ أيام قليلة معه، في فيلم "المريض الإنجليزى" والبطل يحمل حبيبته التى تركها جريحةً فى مغارة، حتى ماتت دون أن يصل إليها بالإسعافات. كان يصرخ فى الجبل دون صوت، والتردد المر يصلها، وعمر يجلس بجوارها صبيحة اليوم التالى الذى أخبرها فيه بمغامرة سلمى عابد: "ما الذى دفعنا لنجلس معاً أمام شاشة سينما، تعرض قصة حب رائعة، ونحن نعرف أننا تمتعنا بما يفيض كثيراً عنها؟ من منا الذى شعر بآلام الموت.. أنا أم البطلة؟!".

تجنب الناس حركة ناهد، وهى تقطع الطريق لاهيةً عنهم، لا تشعر بعبء وجودهم أو دفئه: "هل كان يدرك حجم ما سأعانيه من ألم؟ هل استمتاعه كان يكفى لما أدفعه الآن؟ حب، شهوة، لا يهم. اقتراب للفضول للمعرفة أعقبته لحظة ضعف وحيدة. لا يا سيدى، لا توهمنى بما لن يقنع عقلى بعد الآن. لقد كان بينكما اتفاق مسبق لتضليلى، وبوعى، وهو ما لن أغفره أبداً. منذ أيام تسألنى التشبث بالحب، وأنت مازلت تتصل بها. وحين أسأل كيف تنتهى العلاقة، تقول: لم نناقش مستقبل العلاقة، حتى يكون لها مستقبل. إنها مجرد لقاء عابر بين اثنين لا أكثر. سينتهى كما بدأ. أقول، وكيف تعرف أنها تنظر للأمر هكذا، تقول: لأنها لا تسألنى أبداً. أصفك بالسذاجة، وأكتشف الآن حجم سذاجتى".

أفسح المساء الصيفى المزدهر، بألوان النيون الفاقعة للمحلات وسط المدينة، المكان لنسمة مرت بلا موعد، ذكرتها بوقوفها أمام المرآة على غير العادة، تختار زياً أنيقاً بدقة، وهى مقبلة على النزول إلى مقر الجمعية التاريخية للآثار، لتقابل أصدقاء مختلفين، وتذوب

وسطهم، هرباً من آلامها. تتخفى وراء فخامة الملابس وبساطتها، على أمل الانتعاش بتوازن نفسى مرتقب.

تتبعها فى الشارع شاب يصغرها بسنوات خمس على الأقل، خُدع فى مظهرها المرح. لم تشعر به لمسافة طويلة، حتى وهى تقف أمام الواجهات لا ترى ما بها من بضائع، بل تحاول أن تفتعح فمها ليخرج الكائن النارى المعربد فى صدرها بحرية. لمحته، وهى تستدير لتعبر زقاقاً ضيقاً، وتحاول أن تمنع دموعها من الانهيار، خوفاً من انتباه المارة. ثم لاحظت انتظاره لها حتى تنتهى فرجتها على إحدى الواجهات. وحين وقفت أمام معرض غير مزدحم، اقترب: - "مُعجَب".

رفعت وجهها إليه، رأته جيداً. أول صورة تدركها منذ خرجت من قاعة الجمعية، ثم نحت نظراتها عنه، ومضت تشعر بخطواته خلفها. اقترب حتى كاد كتفه يلامس كتفها، وهى تبحلق فى نوافذ العرض دون كلل. أرادت أن تسأله عن اسمه، وتخيلت حواراً بينهما.

"ماذا لو قلت لك إننى مذبوحة، وأن آلامى الآن فوق تصور البشر؟ ماذا لو أخبرتك أننى الآن أمر بأصعب لحظات حياتى، على الإطلاق؟ وأننى- وأنا أعيش فوق قمة الحب، فى أعلى مشاعر أحاسيسى، وهو يقول لى: "ما أحببت هكذا أبداً، وما عرفت امرأة مثلك"- قتلنى بامرأة أخرى.

ماذا لو سألتك: هل يستطيع رجل يحب أن يقيم علاقةً بامرأة أخرى؟ وكيف تأتى النزوة فى ذروة الحب؟ وكيف يعود بعاطفته إلى امرأته، يلقاها، يلمسها؟ كيف تخرج من شفتيه آهات النشوة؟ هل يرانى مترهلةً الآن، وكبيرة السن؟ هل ملنى، وانتهت القصة بهذا

الشكل الهزيل؟

أريد أن أقول لك– أيها العابر ورائى فى الشارع– كم أنا متعبة وتعسة". اقترب سائلاً: هل أنت طالبة بجامعة عين شمس؟

التفتت إليه بضراعة، ما عهدتها فى نفسها من قبل!

– أرجوك، اتركنى لحالى.

قالتها، وهى تكاد أن تستحلفه أن يتحدث معها فى أى شئ، وأن تخبره بآلامها، رأى عينيها الفزعتين المتوسلتين فتراجع؛ عاد بساقيه إلى الوراء.

– آسف.. لم أقصد، لم أقصد..

استدار عائداً بخطى مسرعة، هارباً، حتى ضاع فى الزحام أمام بصرها وهى تردد: "ماذا رأى فى وجهى؟".

وصلت إلى بيتها بقوة الغريزة ومعرفة الطريق. لم تعرف كيف دخلت. ألقت نظرة على مكتبها بحكم العادة، فرأت ورقة صغيرة فوق مكتبها، تحمل رقم تليفون غريب، ورجاء الاتصال بعمر فى هذا الرقم. تأملت الورقة، وهى تعيد قراءتها مرات كى تستوعب ما حدث، "لا يترك عمر رسالة فى البيت إلا لأسباب طارئة جداً". لملمت شتات الإدراك، دون أن تستطيع إزاحة سلمى عابد، ورجال الكلينكس، والخيانة، واستهتار عمر بمشاعرها. أدارت الرقم بسخرية مرة، وجاءها صوته عبر الأسلاك، متعباً وحزيناً. وخزها، لكنها هشت الصحو الذى راح يتسرب إلى قلبها المتعب، وعقلها نصف الغائب.

= أين أنت؟ - فى كفر الزيات، أصيب أخى فى حادث = إن شاء الله خير، قابلت سلمى عابد اليوم فى الجمعية التاريخية للآثار - حالته خطرة.

تنبهت لجدية الصوت!

= فى المستشفى؟ - فى غرفة الإنعاش = هل تحتاج أن آتى إليك؟ هل معك نقود كافية؟ - فى الصباح، تتضح حالته. لكن الطبيب غير متفائل، فقد نزف كثيراً.

منعت نفسها بقوة من الركض إلى الشارع، كى تستقل أول عربة إليه.

أغلق الخط غير مصدق لما سمعه منها: أقول لها أصيب أخى فى حادث، تقول قابلت سلمى عابد؟! يا الله ...

خنقه الحزن، لا العبث الذى ظنه فى بادئ الأمر، حزناً عميقاً يشبه أحزان الثكالى فى الصعيد حيث ينتمى؛ لو قلت ما قلت لصديق أى صديق كانت مشاعره ستختلف. هل يعقل أن يكون أى إنسان أقرب لى منها .. هل يُعقل، فى هذه اللحظة.

كشف الصباح عن الفقد. حمل عمر أخيه فى سيارة إلى قريته أهناسيا، قرب بنى سويف. وعرفت ناهد الخبر من المستشفى فى الصباح الباكر، فاتجهت إلى القرية على الفور. لاحظت تجمع الأهالى على ضفتى الطريق، انتظاراً لوصول الجثمان، وتفحصهم لركاب السيارات الوافدة. قطعت الطريق ببطء، احتراماً للمشهد الحزين. اقشعر بدنها، وهى تشاهد زحف النساء الأسود، والرجال فى جلابيبهم الخشنة. ترجلت عند مدخل البيت، والتقت أهله، غير

مصدقة أنها هنا حيث ميلاد عمر ونشأته. قابلت أمه في اللحظة التي وصلت فيها رسالة من عمر تسألها أن يدفن أخاه دون أن يمر بالبيت. أمرت الأم حامل الرسالة أن ينزل الجثمان إلى بيته، قبل أن يعبر إلى مثواه الأخير في الضفة الأخرى.

– لن يخرج من البيت، ولا يعود إليه أبداً. هذا محال.

اجتهدت ناهد أن تفهم المغزى، وهي تراقب بإعجاب قوة الأم. عاد الرسول، ومعه عمر، والسيارة واقفة أمام الطريق. قبل يدها، واستسمحها أن يقف بالسيارة أمام الباب لتودعه داخلها، وأن يترك أخاه الذي تم تكفينه إلى سلام موته.

قبلت. ربت فوق كتفها، مقبلاً يدها، فقّبلت جبينه. أعطى إشارة للسائق للدخول حتى باب البيت، ونزلت هي مستندةً على ساعده لترى ابنها للمرة الأخيرة.. انهارت الزوجة، وهربت السيارة إلى حيث الرجال، وعلا الصراخ يشق الفضاء. لم تعرف ناهد حزناً كهذا. صمت أكبر من قوة الموت اتشح به عمر. واسته بعد عودته، وعادت إلى القاهرة تعد الدقائق على وصوله. وحين أخبرها شريف أنه خرج، ولن يعود قبل المساء، طار صوابها.

أغلق عمر باب غرفته، رافضاً أن يكلم أحداً. أعطى تعليمات لعائلته أن تخبر الأصدقاء أنه في الخارج ثلاثة أيام. كلما سمع باتصال ناهد به، حاصرته الشكوك في إمكانية التواصل معها. ضجر، يفكر في عبث الحياة، حزين يستجمع أيام المرح مع أخيه، صورته طفلاً وصبياً وشاباً محباً للحياة، صاخب الحركة، يحب ويعلن للكون أنه سيتزوج من حبيبته، يشعر برغبة عارمة في احتضانه، يقبض على فراغ، وينكفئ. يدخل إليه شريف قائلاً إن ناهد

ومجموعةً من الزملاء يودون زيارتنا. يشير له بـــالرفض ويتســـاءل هل أستطيع أن أكون خالصاً لحزنـــى، دون أى شـــئ آخـــر!! هـــل تستطيع ناهد أن تستوعب هذا ؟!

تمــرد

أرقها سؤال منطقى: ماذا ستفعلين؟

سألت عنه أياماً بعد أن أعيتها حيل انتظاره. وفى كل مرة يجيب شريف بأنه خرج فى الصباح الباكر، ولن يعود قبل المساء. حاصرتها الشكوك: "لماذا لم يرسل لى إشارة واحدة، أو يتصل بى من أى مكان؟ وأين عساه يكون؟ هل استدعته سلمى عابد، كى تخفف آلامه، ورآها مهرباً مما حدث، ومن أسئلتى التى عذبته؟ لماذا تخدعين نفسك؟ لو كانت آلامك تعذبه حقًا، ما فعل فعلته؛ هو أنانى، لا يشعر بما يقدمه الآخرون له. إذا سيطرت عليه فكرة نفذها على الفور، دون مراعاة النتائج. هذا أول ما لفت انتباهى له: الرعونة فى الاستقلال، أو النزق. فما جدوى الخط المستقيم الحاد الذى يعانى من الغربة عن الحياة، وينكسر إن عاجلاً أو آجلاً، أو يضطر للانحناء. كيف إذن تحبين هذا النزق فيه، ويطير صوابك إذا مارسه معك؟ هذا ليس تناقضاً، لأننى أراه معجوناً بالتمرد على الوجود الفعلى، لكننى لا أفهم التمرد على الحب الحقيقى. هى لحظة خطرة. معنى هذا أنكِ

داخلياً لا تقبلين التمرد على الثوابت، وهو عكس تكوينه الذى تدعين أنك تعشقينه..

راحت تحادثه ملتاعة، ثم أمسكت ورقة وقلماً، وكتبت إليه رسالةً لم ترسلها أبداً:

أعترف أننى كنت قد قررت أن أعيش معك ما لم أعشه، أن أكون حقيقتي، وليس كما اعتدت أن أقدم نفسي، مؤطرةً بأطر تفرض مسافةً فاصلةً عن الآخرين. التعرية.. هى ما كانت تخيفنى من الحب، هى ما منعنى من التورط فى قصة أُجرح فيها، لأننى أدركت بوعى شديد أننى لن أمتزج كليةً مع آخر، إلا عاريةً مكشوفة الأعصاب والداخل، مفتوحة الذاكرة، مستعدةً للتنازل عن ثوابتى القديمة، لينداح كلٌ منا فى الآخر. لم تكن الفكرة رومانسيةً تماماً، وإن كانت غير مجربة، ربما لطول ما تأملت ذاتى، وربما لجرح قديم خلته اندثر، ظهر لحظة أن اكتشفت خديعتك لى..

حين أتأمل الآخرين من حولى، المبدعين بصفة خاصة سواء من عرفتهم شخصياً، أو من عرفتهم من خلال إبداعهم، وأتلمس الاحتراق بين ما يريدون وما يستطيعون، أدرك أن لحظتهم مركبةٌ من لحظات، وأن تسلل الوهج- الذى يأتى من الآخر- لا ينفى الأصل. وربما توهمت أن احتياجاتنا أكبر كثيراً من حب واحد، يملأ الكيان؛ وأننا فى حاجة إلى روافد تنعشه. لكنى ما استطعت هذا أبداً، ليس رفضاً له، لكن معرفةً بعشقيٍ للتوحد المطلق. لهذا يمر بى الآخرون وأنا معك، ليثيروا سعادة سطحية، وربما مجرد ابتسامة لا تكفى لإضرام النار فى مشاعرى. سعيدة باستغراقى فى حبى لك. مشبعةٌ وممتلئةٌ بك، أراك تتدفق فى خلاياى، تدفعنى دفعاً لارتشاف

عرامة الحياة. فإذا أطل التأنيب من بين طوفان السعادة، ووخزني يأس من تغيرٍ وضعنا الغريب، أزيحه قائلة: لم تمنحني الحياة ما منحتني صدفةً ولا اعتباطاً، بل لابد من دفع الثمن. ومهما كان الثمن فادحاً، فهو ثمن وجودي ذاته، لأنني رأيت الوجود فيك. وبالمقابل، رأيت متعة الاقتراب من رجل آخر متعةً باهتة.

حتى قبل أن نلتقي، مر بي رجال امتلكوا خصوصيةً ما، لكنهم لم يخربشوا جدار القلب، رغم وحدتي؛ مجرد سعادة اكتشاف الآخر. لحظة حرة تنتهي ما إن يستدير كلٌ منا إلى طريقه. سألتني كثيراً: لماذا لم تتركي نفسك لتجربة تكتمل؛ ولم تعجبك إجابتي أبداً. ضننت بنفسي عن العابر المدهش، الذي لم يتملكني أبداً، وبقيت وحيدة. حتى هذه الدهشة، اختفت لحظة أن التقينا. هل تذكر؟ ما الذي دفعنا، كلا على حدة ليقين أن الآخر سيلعب دوراً رئيسياً في الحياة، منذ لحظة تعارفنا الأولى؟ لماذا وثقنا في أنه ليس لقاءً عابراً، وأنها ليست محض نزوة؟ بالنسبة لي، كان الانتظار الطويل، والوحدة، والأمل الذي جاء في موعده تماماً، وأنت ضجر، محبط، تتخبط بين رغباتك، وتهدر وقتك في صحبة من يستطيع أن يبقى معك حتى الفجر. الآن، تريد الفرار إلى قارة أخرى. عدنا إذن من حيث بدأنا.

قطار يزحف إلى الصعيد في ذروة الهجير، يبدأ رحلةً تضم مجموعة من الأثريين والصحفيين وشخصيات عامة. يُمني كل منا نفسه بالابتعاد عن جو القاهرة المكتوم باللوعات الصغيرة، المحاصر بالرغبات المجهضة. قليل من الصخب وسط المثقفين، وتعليقاتهم عن خبيئة "دوش" التي سيشاهدونها بعد ساعات، عن الصحراء المترامية التي تكشف كل يوم عن جديد مبهر. توزعت الثرثرة في سماء العربة، تلين عريكة الطريق، وعلت الأغاني سحابةً مفعمةً بالحياة.

وحين تقاربنا صدفةً، لم أُفلت الخيط الذى امتد يبحث عن صورك فى لقاءات عابرة بك من قبل، وأنت تغطى مؤتمرات الآثار. تذكرت عشقك للإسكندر، وكتاباً ممهوراً بإمضائك فى غير تخصصك. وسألت نفسى: هل هو نفس الرجل؟ لم أكن قد قرأت لك إلا قصصاً متنوعة فى المجلات؛ وحين تأكدت من سريان دبيب ما بيننا، قدمتُ نفسى إليك بما يسمح بحوار متواصل.

انتظرتُك، وأنا أعلم أنك متراوح بين رغبتك فى تغيير حياتك، وبين الدوران فى فلك التيه، الذى رماك إلى صخب الليل، والسهر بلا هدف حتى الفجر. لم أتردد كثيراً، وعلا فى داخلى اطمئنان هائل أنك لى..

الآن، وبعد كل هذه السنوات، نعود إلى حيث بدأنا: امرأة تومض بشعاع يخطف عينيك، وسواءٌ كان هذا الانجذاب حقيقياً، أو مجرد نزوة، فقد كسر أمانيَّ وبعثر اطمئنانى الذى خلت أننى امتلكته ذات يوم.

وجدها أمامه فى الجريدة ذات صباح. اكتشفا لحظة أن وقعت عينا كلٍ منهما على الآخر كم كانا فى حاجة إلى بعضهما. هربا إلى المعادى، نفضا ثيابهما دون كلام وتلاحما فى عنفوان، ثم تلاصقا ساكنين فى هدوء سال على الغرفة الحميمة، فى المكان المنعزل، فى دنياهما المنسية.. قال:

– بالأمس كنت أفكر فى الاتصال بك، وسألت نفسى إن كنت أستطيع لمسكِ، والغرق فيك، ووجدتنى أجيب مسرعاً: مستحيل؛ لأنني لو بدأت، فلن أستطيع الاستمرار. لكن، منذ اللحظة الأولى التى لمستنى فيها، انطلق من داخلى بركان يريدك، لا يذكرنى إلا برغبتى

فيك، وجنونى بك. لهذا، حدثت هذه النتيجة المذهلة. = قبـل ذهـابى إلى قريتك، وبعد لقائى معها، كنت أعرف أننى لـم أعـد أسـتطيع لمسك، قبل أن أسألك إن كنت تحبنى بالفعل. ونتيجة الإجابـة كـانت ستحدد قدرتي من عدمها. وحين رأيتكَ ورأيت الأهل، كنت مسـتعدةً لأن ألقى بنفسى عليك. فمستحيل أن تكون خلعتنى من نفسـك بـهذه السهولة؛ على الأقل، الباقى منى- فى نسيجك وحياتك- يكفينى كـى أعوضك فى لحظات حزنك هذه عن كل ما عادانـا، وأذوب فيـك، وأعيدك إلى الحياة، مهما كان طريقى إليك شاقاً. لم أتذكرهـا، أو أرَ جرحى؛ على العكس، رأيتك متعباً ووحيداً. رأيتك بعضـى، ولـم أرَ المسافة التى خلقتها الأحداث. رأيتك كما اعتدت أن أراك حباً خالصاً، بل جنوناً حقيقياً وصادقاً، ومعرفةً بالطاقة الداخلية التى تجمعنا، والتى أعرف- فى هذه اللحظة- أننا لم نستنفد منها إلا القليـل جـداً، وأن الباقى أكثر كثيراً من قدرتنا على إدراكه. وتذكرت- فى كـل مـرة وصلنا إلى ذروة جديدة فى الحب- كيف خرجنا مندهشـين كطفلين غريرين سعيدين، لا نصدق ما حدث، نسأل: هل فى داخلنا جديد آخر لا نعرفه؟ ما هذا الحب؟ وعرفنا أن لحبنا قمماً، كلما صعدنا إحداهـا، فتحت لنا الباب لاعتلاء غيرها. لهذا لم يدهشني أن أعـي أن لدينـا طاقةً ستتغلب على كل صعوبة.

- طاقة..؟

= نعم.

- هذا تفسير معقول.

قهـــر

ضجرة.. ولا أريدك. نتيجة لم أتخيل الوصول إليها يوماً. أشـعر أننى أهدرت شيئاً ثميناً، نزفت ذاتى، وأنا أحاول استعادتك. ترنحـت بين طعنتى التى تدفعنى إلى الانزواء فى محارة الحزن، وحبى لـك من ناحية، وبين غدرك، ومصابك فى أخيك من ناحية أخرى.

كأن الحياة لا تقبل أن تمنحنى حـق الحـزن، أو الوعـى بـه، وارتشافه على مهل، وحتى إبقاءه فى النسيج إلى الأبد. لم تترك لـى فرصة تأمل لحظة الغدر خالصة؛ استكثرتها علىَّ.. يا الله..! دفعنـى حادث أخيك لإزاحة موضوع سلمى عابد كي أخفف عنك الصدمـة. لم أكن أريد الصفح الآن، ولم يكن هذا ممكناً، فـى وقـت مـازالت الأسئلة تحفر فيه مجرى دامياً، ومازالت تناقضات الحكـى تزحـف لتزيح قدرتى على إعادة التماسك. ركضتُ إليك، أستحلفك أن ننسـى ما حدث، وأن تعرف كم أحبك وأريدك. وتحولت لحظتى من الغـرق فى إدراك ما حدث لنا إلى جنون تهدئتك، والحنو عليـك، وإعـادتك إلى الهدوء والراحة.

لم أدرك ساعتها أننى سأفقد ذاتى فى الطريق إليك، وأننى كلما توغلت فى اقتناص اللحظات الجميلة العميقة التى عشناها فى الماضى، كى نستعيدها معاً، ونعيش أحاسيسها من جديد، كلما افتقدتها. طاردتُ ما تبقى لى من قصة الحب هذه، أمسكتُ بها بمهارة صياد، واكتشفت أنها مجرد فراشات، شرط حياتها: الحرية؛ ماتت لحظة أن احتويتها بيدى. ليتنى تركتها لزمنها، ليتنى.

وكيف لى أن أعرف أننى- حين حاولت شحن اللحظة بحرارة الزمن القديم- كنت أستنفد طاقتها؟ حكيت وحكيت، حتى توهج الحب، ونسيت آلامك، ونسيت لحظات ما حدث لنا، وأنا أرقبك نصف واعية نصف مذبوحة. مسافة الوعى هذه- بينى وبينك- كانت هى السكين التى مزقتنى. معناها أننا لا نعيش اللحظة، بل نتقمصها، مثل ممثل ماهر لبس ثوب الشخصية، وفرغ منها لحظة أن انتهت آخر جملة فى الحوار، وعاد ملهوفاً إلى ذاته، أزاح عن كتفه حملاً ثقيلاً هرب منه بدش ماء بارد، ثم ضحكات مهووسة مع أول عابر سبيل، وترنح- فى الطريق وهو يقود سيارته- بين ذاته والشخصية، استمع إلى موسيقى، ووقف قليلاً أمام النيل يتأمل الأفق الممتد، حتى شعر بالانسلاخ عنها، فعاد إلى حبيبته.

لكننى لم أستطع الانسلاخ. وراحت أوقاتنا الحميمة القديمة تبكينى حين نستعيدها معاً، تشعرنى بحجم ما فقدت. وأسأل نفسى، وأنا أتأمل وجهك النائم المرتاح، بعد أن تخرج منى: هل استعدته حقاً؟ وأشعر للحظات أننى استعدتُك، فأبكى صامتة فرحتى ولوعتى معاً.. وأكتشف- بعد قليل- أنك لى هذه اللحظات فحسب، لأنك حين تفيق، ودون أن تدرى، تذكر شيئاً عابراً متناقضاً، يطلق المارد الذى أحاول جاهدةً إعادته إلى القمقم، فيتمرد فى صدرى ويعربد. وأسألك

حذرةً، وأنا أطلب من الله المساندة، ومنك الفهم:

= سؤال واحد، إجابته بنعم أو لا، قادر على إعادة التوازن لـي. لكن المشكلة.. هل أنت قادر على الإجابة فى هذه اللحظة ؟

تنظر إلىَّ بعينين مترقبتين حزينتين. تنتظر أن أفتح موضوع سلمى عابد. أرى هذا فأرتبك، لأننى غارقة بك، ولا أريد ثالثاً. وأنت ضجر من أن أدلف إلى الموضوع الحرام.

= هل تحبنى ؟

- نعم .

= هل أنت قادر على إدراك معنى إجابتك هذه؟ قد تكون صادقاً فى هذه اللحظة، لكنى أريد إجابةً أبدية- لا شىء أبدى، أعرف- أقصد إجابةً واعيةً وعميقة، لا شىء يغيرها، على الأقل فى المدى المقبل المنظور.

تنظر لى صامتاً حزيناً، تغرق فى ذاتك، وأنا أنتظر الإجابة التى أعرف مدى صعوبتها. تمتد يدك إلى سيجارك، تستنشق عبيره الخشن، تطول اللحظات وأنا ضائعة. عارياً ممدداً فوق البساط، تنقل ساقك لتعتلى الأخرى؛ وبلمحة خاطفة، أرى أصابع قدميك تتمطى فى عصبية وهدوء معاً، أقصد بعصبية بطيئة. لا أعرف. أكاد أن أصرخ فيك، وأنا أنتظرك. تقتلع أنفاس السيجار اقتلاعاً، وتقول ببرود:

- نعم.. أنا قادر الآن على تحديد ذلك. اسمعى، نحن نقيم علاقةً طويلةً عميقة، بنيناها معاً بالصبر وأشياء كثيرة تعرفينها، ودفعنا أثماناً باهظةً لها. ومثل كل علاقة طويلة، تمر بأزمات، هذه إحدى أزماتها. هل تذكرين حين قررت الذهاب إلى البرازيل، وقبول

الإعارة ..؟

= كنت تمر بأزمة فى العمل، وأزمة مع ماجى. وقد وافقتُ على سفرك، رغم خوفى من ابتعادك، حتى ترتاح.

- بل كنتُ، في الحق، غير مكترث بعلاقتى بـك. وقـد مـرت الأزمة، وعشنا بعدها سنوات من أجمل سنوات عمرنا. وأدركنا كـم نحب بعضنا.. هذه أزمة مثلها، أرجوك اجعليـها ماضيًـا، وأغلقـى الباب عليها بهدوء، ولا تذكرى سلمى عابد مرة أخرى.

= أريد أن أعرف اللحظة التى خرجت فيها منها، هل أنت لـى الآن فعلاً، أم ماذا ؟ أين أنت؟

- معكِ

= إذا امتلكت الطمأنينة، سأدافع عن هذا الحب بضراوة، حتـى تجاه نفسى التى لا تقبل ما حدث. سأرغمها من أجل الأصيل والبـاقى مهما كان الثمن.

- سيحدث أن أضجر، أن تتوه عنى الحقائق، أن أقـول لـك لا أريدك، فاحتملينى، لأننى- بعد قليل- سأعود إلى نفسى، وتكونين قـد صدقت كلمات الضجر ورحلت.

على عكس التوقع، أصابتنى كلماته بضربة من جبل الثلـج، إذ اكتشفت جسم الجبل المختفى تحت سطح الماء، وأدركت عمقه داخلـه ومعاناتى. يطلب منى صراحةً أن أتقبل ما يفعله، وأنتظره هادئـة؛ لا يكترث للعلاقة، فأربت عليه؛ يذهب إلى امرأة أخرى، فلا يحق لـى حتى الألم من خلف ظهره؛ وإذا نقضت هذا التصور يضجر ويشـيح عنى وجهه، ويتعجب من خطوات ابتعادى. "من أنتَ"؟

لم أنطق. وكل خلاياى تسأل: هل تعرفينه حقاً ؟

لاحت لي مسافة ما سرمدية، لا شكل لها ولا لون. قالت لي، وهي على وشك الطيران في سماء الغرفة، اعتليني.. سأنطلق بك من هنا وإلى الأبد. ودون أن أتحرك أو أجيب، رأيته يبتعد، واتسعت المسافة بيننا، وأنا أتجمد، ليس رعباً ولكن رغبة..

أقنعــة

كتب فى روايته "**متاهة**":

من فوق سرير الطبيبة النفسية، قالت لها: أعــانى مــن علاقــة مزدوجة. لا أستطيع الانفصال عن زوجى، أو الاستغناء عن الرجــل الذى أحببته وارتبطت به. أعانى من غيرة حمقاء على حبيبى الــذى يعشق النساء، ويعتبر كل نساء الأرض ملكاً له، إذا اســتطاع. كلمــا فكرت فى قرار يجعل قارب حياتى يرسو على شاطئه، أخاف علــى طفلىَّ وحياتى المستقرة الآن، رغم أنه استقرار بارد لايمنحنى شــيئاً، بل إنه دفعنى دفعاً للبحث عن غيره. أعرف أن المستقبل مع الآخــر ليس مضموناً تماماً، وسينتهى إن عاجلاً أو آجــلاً، تحــت عجــلات امرأة أخرى. فى أوقات أخرى، أقــول لنفســى: ومــا هــو الشــئ المضمون فى الحياة؟ فلا أجد إجابــة. ممزقــة بيــن العــالمين، ولا أستطيع الاختيار..

تخرج من عندها، بعد بكاء مر طويل، على اتفاق علــى جلســة أخرى قريبة. تشعر براحة لا تعرف سببها. وبعد عدة جلسات، تجلس

فى صالة الانتظار، قلقة:

"فى الطبيبة شئ ما شرير، يزداد يقينى به فى كل لقاء. تقـــابلنى مرات فى حالة متعاطفة، تتفهم كلماتى بسهولة. أشعر بحالتـــها هـــذه كلما كنت متعبة، وأريد أن أحكى عن الانقسام الـــذى أعيشـــه بيــن رجلين. تسألنى بود: لماذا لاتحـــاولين اســتعادة الــزوج، إذا كنــت تحافظين عليه بهذا الشكل، وبهذه الكيفية فى الرعاية؟

أبكى، وأقول لها: إننى أخاف على مشاعره، ولا أكرهه. لكنـه لا يحققنى بأية حال. وليس بالضرورة أن يكون الرجل سيئاً لكى يفشـــل الزواج. ألا يكفى عدم التحقق؟ ألقى إليها تفاصيل كثيرة، فتتعـــاطف وتحنو، لكنها حين تفيق من هذه الحالة- التى نكون فيها مثل طرفيــن لحبل مشدود- أرى عينيها تفتشان عن الحبيب الذى حدثتـــها عنـــه، وتنصب من نفسها حكماً أخلاقياً. وحين أبتعـــد عنـــها فـــترة، تكـــاد أعصابها تكشف حجم المعاناة التى تكابدها، من محاولة قمع ســـؤالها عنه، وهل لازلت أحبه بشدة؟"

لا أعرف لماذا نمت داخلى رغبة فى مد قرون استشعارى إلـــى حياتها الخاصة. أردت- ذات مرة- أن أطلـــب منـــها أن تعتـــبرنى صديقة، وأن تحدثنى عن نفسها، خاصة أننى عرفت بالصدفـــة أنـــها تعانى من مشاكل زوجية، وهو ما جعلنى أفهم ســـر انجذابـــها لـــى، ولماذا تأخذ مشاعرها أحياناً شكلاً متجاوباً وعاطفيـــاً، وفـــى مـــرات أخرى تندفع فى الرغبة فى محاسبتى على ما نجحت فى الحصــــول عليه، أعنى الحب، رغم حالة الازدواج، بكل مراراتها..

قلت لها: أعرف يا دكتورة أن أزمتى ليست هى البحـــث عـــن جذور المشكلة داخلى، بل هى معرفتى لحقيقة مشاعرى تجـــاه مـــن

حولى، ونحو ما أمارسه بالفعل، والطريق الذى قطعته فى اللعب بالأقنعة، وكيف بدأت شفافة تحجبنى قليلاً عن العالم، من أجل الحماية، ثم تماسكت مع الوقت بسب نفس الادعاء، حتى تصلبت وعتمت. أحيانا أصدقها أكثر مما أصدق نفسى التى تحولت إلى طبقات من الأطر، حتى ماعدت أتعرف على شكلى الأصلى، أو أمارس الحياة بلا أقنعة.

ثم فاجأتها ذات يوم بأسئلة راوغتنى فى الإجابة عليها:

– إلى أى حد يمكننا أن نرتدى الأقنعة، وأن نعيش الحياة كما نريدها؟ كيف يتم التواصل مع الذات، من خلف الأقنعة؟ هل الحقيقة أننى لا أشعر بالخوف، أم أننى فعلياً أموت رعباً، وأرتدى قناع الشجاعة؟ هل يقتلنى زوجى يوماً ما ؟

انحـــدار

فرض لقاء الأمس على عقلى تشوشاً هائلاً. تجمعت أسئلتى، ولم أحصل على إجابة كافية. خنقتنى شرنقة محكمـــة الإغـــلاق. تمـــدد بجوارى، ودخلنى وأنا أغرق فى الأسئلة. ولم تستطع طعناته انتشـــالى من جحيم الاستنفار العقلى. ورحنا نلعب لعبة الحب الطبيعية، وكـــل منا يدرك أن الآخر نصفه معه ونصفه ضده. لكـــن جســـدينا اللذيـــن اعتادا الانفجار معاً، المدربين على الوصول إلى خبايا الحس، راحـــا يعزفان نغماً بدا بعيداً، ثم اقترب وضاعت خشـــونته رويـــداً، حتـــى توحدت نغماته، وتعالى لحن أصيل، وخرجنا مبللين متبلين بالراحـــة الناقصة.

قال: كأننى ما مسستك منذ سنة وأكثر.

قلت: مازلت توحشنى.

كان كل منا يعرف أننا كاذبان. مخنوق هو بأســـئلتى، وأحـــترق بانتظارى للمعرفة، وأنا أرى ثقتى به واطمئنانى يـــهربان. أردت أن أقول له، وهو يقبلنى: "هل رأيت الآن ماذا فقدنا؟"، لكنى لم أســـتطع.

كانت حرارة ارتياحه وتداعيات نومه الذى يبدأ عابثاً ضاحكاً حتى يغرق بالفعل فيه، كافية لتنسينا كل آلام الدنيا. خارجان الآن من نفس اللحظة، محملان بما هو أقصى كثيراً من الوحشة! فى الطريق، حاولت الهروب من الكلمات التى تحاصر عقلى، دون جدوى.

لم أعد أشعر الحب كما كان. لم تعد لأسئلتى نفس المعنى، ونحن ملتصقان: أتحبنى؟ - أعبدك

لم يعد السؤال للدلال، بل للشك.

= سعيد؟ - فى السماء.

لم تعد السعادة هى السعادة، بل كائن آخر. أتأمل مشاعرك، وتختلط فى ذهنى كلماتك لى بكلماتك معها بعد ساعات. ضاع الاطمئنان إلى الأبد، صحوت على شعور آخر ليس الحب أو الكره، لا اليأس ولا الحياة. هاوية أقف على حافتها، يجذبنى القاع إلى السقوط. أنت من يدفعنى إلى الموت، وأنت من ينجينى. تقترب، تخبرنى بصدق حبك لى، أصدقك على الفور إلى أن تبتعد خطوة واحدة عن جسدى، تنام أو حتى تلتفت إلى الطريق، يفتت عقلى كل ما قلناه، وينثره أمامى مقهقهاً كشيطان. بالله.. ماذا فعلت بنا؟

- تتحدثين عن رغبتك فى معرفتى كما أنا، تفرحين بكاتب روى فى سيرته الذاتية ما مر به من نزوات؛ فإذا كشفت لك عما حدث معى بصدق، انفجر بركان غضبك.

تصمت، وتغرق فى الألم. "كأنك تنتظر مباركتى للخديعة.. تتسع المسافة بيننا، ليس لأنك أخبرتنى بالحقيقة كما كانت، بل لأننى لم أشعر صدق كلماتك. مازلت أنتظر ما تخفيه، أنت لا تعرف- كما

قلت لى فى لحظة ضعف- ماذا تريد، وأنك ستتخلص من حياتك إذا تركتك، وأنهيت علاقتنا. تقول هذا، فأندفع إلى الهاوية، أبكى وأنا أهذى ما كان، وما يكون. أحميك بسياج من حبى، وأقسم أن أستردك، وألا أتركك تضيع. وفى الصباح، أكتشف أنك مازلت تتصل بها.

يا الله، يا من خلقتنا على هذه الصورة، أمازالت هناك أثمان أخرى واجبة الدفع؟ ألم يكف ما دفعته من آلام طوال العمر؟ هل تعذيب البشر جزء من ناموس الكون، عنصر فى لعبة البنيان الذهبية، يوم أن ولدت الدنيا؟ من الذى يستمتع بها؟ ولماذا تركتنا نلعق الجراح التى تنفجر كل يوم بحياة جديدة؟!

أسـباب

تدفعنى رغبةٌ ما لإنهاء هذه العلاقة، واعتبار ما حدث آخر مـــا يربطنى به.. بعد الثورة جاءت السكينة. قلت له عنها فى التليفون إنها سكينة اليأس، أو هدوء إدراك الفشل.

لم أسأل نفسى عن اللحظة القادمة. شعرت بحرية غريبة: اليــوم طويل، والساعات كلها ملكى. للمرة الأولى منذ أن عرفته: الوقت لـى دون أن أفكر أين هو الآن، ماذا يفعل، وهل سيتصل بى ؟

خططت أن أستمتع بالوقت، كما يحلو لى. ذهبت إلــى عملــى، وجلست وقتاً أطول مما اعتدت عليه مع زميلات العمل. فى مثل هـذا اليوم من كل أسبوع، كنا نلتقى، أركــض وأنــا أنــهى الإجــراءات الروتينية لجدول الأسبوع، أرد على الطلبات، ثم أهرب قبل أن يلحـق بى أحد. جلست باستمتاع فوق طاولة، والبنات من حولى يضحكــن، ويطالبننى بتوفير وقت أطول لهن. فى الطريق إلى بيتى اكتشفت شيئاً غريباً: أننى لم أعرف البنات أبداً، أقصد النساء؛ لم أعش كما عاشــت كل الفتيات فى صحبة أقرانهن، لم أعرف الأســرار الصغــيرة، ولا

اقتربت من أى جسم. يتصور عمر أن تجربتى مع الرجـــال تجربــه بسيطة، لكنه لم يعرف أيضاً أن معرفتى بالنساء مشـــابهة. اكتشـــافى اليوم للخصوصية بينهن شجعنى على إدراك هذا الإحســـاس اللذيــذ بالبقاء معاً، بلا رجال، مرتاحات نتصرف بطلاقة، ووعـــى بـــأن لا عين كاشفة جارحة، ولا حسابات. كنت أنفر بشـــدة مـــن تجمعـــات النساء، لأنها تذكرنى بالفصل الجبرى، وهو ما كنت أرفضه بشـــدة. ابتسمت، وأنا أتذكر صديقة لى حاولت أن تدغدغ بطنى ذات مـــرة، وأنا أهرب ضاحكة، وكيف ارتمت البنات كلهن معاً، علـــى الأرض، عابثات ضاحكات، وأنا لا أستطيع أن أمد يدى، وأخجل مـــن مجـــرد لمسهن، لأننى سأخدش خصوصية ما لا أستطيع خدشها..

بعد أيام قليلة، كنت ممددة بين أحضانه، وقد نســـيت- بـــالفعل- سبب الخصام. أحكى له- بطلاقة- لماذا أحببته هـــو، دون غـــيره. اتفقنا أن يذكر كل منا عشرة أسباب لهذا الاختيار، بشرط ألا تكـــون أسباباً قد ذكرناها معاً من قبل. اكتشفنا، ونحن نحكـــى، أن أســـبابنا- التى كنا نستمتع بترديدها- ترجع إلى مرحلة ما قبل معرفتنا الحقيقيـــة لبعضنا، قبل اعترافنا بالحب، وقبل أن يصل كل منـــا إلـــى الآخـــر بعمق. أدخلنا هذا فى حالة مرح؛ إذ كان علينـــا أن نعـــرف أســـباب الاستمرار فى هذا الحب، ولماذا يثير كل منا رغبة الآخر فيه، إلـــى هذه الدرجة..

= أحببت فيكَ نظرتكَ المرنة إلى العالم، إمكاناتك فى الفهم؛ ذلـــك الشيء الرائع الذى تتخطى به الهنات البشرية، والتفاصيل الصغـــيرة، لتعبر إلى العميق والأصلى. أدركت هذا من الوهلة الأولى. لهذا لـــم أكن فى حاجة إلى أن تكمل لى شرح أى شـــىء. كـــانت إيمـــاءاتك تصلنى؛ ومع الوقت ازددتُ يقيناً بأن تقديرى كان صحيحاً. - قدرتـــكِ

على إدراك ما أريد، ومحاولاتكِ التكيف مع ما قدمته لك، وكان غريباً على حياتِك الماضية. لم تجعلى تجربتك السابقة عبئاً على حياتنا. التقطتِ كل ما أردته، وتجاوبتِ معه. صحيح أننى حلمت بامرأة أكثر جموحاً، لكى تطاول جنونى، لكنك-على الأقل- لم تعترضى هذا الجموح، وطاوعتيه = فى داخلى جموح لم تعرف مداه، ربما لم تحن الفرصة لانفجاره. نحن الآن على عتبته؛ فقد اضطررت لقمع الجموح فى الماضى حتى أتعايش فى مناخ كان سيدهسنى، إذا ما اكتشف داخلى الحقيقى. احتفظت لك به، لتفجره - الفرق كبير بين النظرية والسلوك؛ وهو ما أخشى أنك لم تستطيعى عبوره = أطر وضعتها للحماية. ولست فى حاجة إليها الآن - أشعر وأنا أتعامل مع جسدك بحريتى، حريتى المطلقة فى الفعل والحس والتعبير. أدرك- للمرة الأولى- معنى تحركات الأنثى، لأنها أنثاى، كما أدرك صوتها الذى يستفز رجولتى، رغم أننى سمعت تعبيرها فى تحارب مختلفة مع النساء، فلم أدرك له هذا المعنى. أحبك فى لحظة جنونك، فأنت- فى هذه اللحظة- مختلفة، وبلا حسابات = لم أخضع أبدا لحسابات - هل أجرؤ على أن أقول أننى صنعتك لى كما تصورت أن تكون امرأتى؟ شكلتك كما أهوى؟ = نعم، جئتك عذراء، وأنت فجرت داخلى كل ما رغبت فيه من قبل، دون أن أعرف كينونته. تجاوبى معك هو ذروة اندماجنا، بلا تسلط؛ على العكس، هو الاكتمال. أحببت اختلافك عن كل من عرفت- أنتِ لى، بالحب وحده. ارتباط الجسد بالحب لم تدركه إحداهن قط، ولم تكن لتتقبله، لأنه يقيدها. لكنك راغبة فيه بصدق = فيكَ رهافة ورقة لا يراها إلا من اقترب منك بعمق. تفاجئنى، رغم خشونة ملامحك ومواقفك أيضاً. هل تعيها؟ - أعرف أنك أدركتِها، لأنك اقتربت قرباً لم يفعله

غيرك. لهذا أحب فهمك لى، بأقل الكلمات، دون حاجة إلى شـــرح = أحب الوضوح الذى تتعامل به مع الحياة. أنت تعــرف مــاذا تريــد تماماً. وقد لا يعجبنى التصرف، وأختلف معك فـــى الــرأى، لكنـــى أحترم أنك لا تقدم على شيء إلا ما اقتنعت به. أعشــق مــا تكتــب، أتأمل كل كلمة، كل شخصية، النعومة أحياناً، الخشونة أحياناً، أبحــث عن السر فى روعة هذا الفن ممتزجاً بك، لا أفصله عنك. حبك هــو الذى جعلنى للمرة الأولى نفسى – أنــتِ التــى أردتِ أن تتصــالحى معها، أعطيتها الفرصة للتحقق = ما كنت أستطيع التحقــق دونــك. أعدتنى لفطرتى الأولى، لرغباتى الحقيقية – أحب نعومتك، لا خطوط حادة جارحة. مرات، هذا يثير جنونى، لكننى أعود لأقدره = وتوافقنا الجسدى أعاد لى الرغبة فى الحياة، فى الاستمتاع – أنت مفعمة بــها، حتى من دونى. وربما يكون هذا أحد أسباب انتبــاهى الأول لــكِ = يعجبنى إصرارك على الاستمرار معى، رغم أنك ملــول بطبعــك – صبركِ واحتمــالكِ وانتظــارى، واتســاعك لــى، آلاف التفــاصيل الصغيرة، أرتبها ولا تنتهى. انتظرى.. أحب عملك أيضاً.

ألغام

تجبرها ظروف العمل الذى يبدأ من السادسة والنصف صباحاً، على متابعة أعمال البعثة أثناء التنقيب لتذليل كل العقبات، والإشراف على العمل، ثم البقاء معهم فى الاستراحة فى المساء، حتى تتم مناقشة ما تم، والإعداد لأعمال الغد.. يكون هذا الوقت غالباً هو الوقت المناسب للقائنا، تنهى لقائهم بسرعة فى الأيام العادية، ثم تأتى لبيتنا فى المعادى. أما فى لحظات الاكتشاف، فتأخذها الإثارة والمتعة والرغبة فى متابعة كل حدث بدقة؛ فالمسئولية هنا تلقى على عاتق المفتش. أحب شغفها هذا بعملها، رغم أنه يبعدها عنى، لكن ناهد هى ناهد بانشغالاتها، ومومياواتها، وملوكها العظام وأسرار الأجداد كما تحكى باستمتاع.

مشغولٌ أنا عنها هذه الأيام بمتابعة أعمال بعثة الأمم المتحدة لمكافحة الألغام، التى جاءت إلى مصر لكى تجمع المعلومات، وتتعرف على الحقائق، وتلتقى بأهالى المناطق التى زُرعت فيها الألغام منذ الحرب العالمية الثانية، من أجل كتابة تقرير يساهم فى

وضع حلول لمشكلة الألغام المنتشرة فى مناطق كثيرة فى الصحارى المصرية، ومن بينها المنطقة الممتدة من السلوم غرباً وحتى برج العرب شرقاً، مروراً بسيدى برانى ومرسى مطروح والضبعة والعلمين، لمسافة تمتد لأكثر من ٥٠٠ كيلو متر.. ملايين الألغام خلفتها الحرب العالمية الثانية توقف الحياة فى المنطقة، وتزرع الدمار لأهلها. والأرقام مفزعة : ٢٢ مليون لغم أرضى فى الصحراء الغربية، وفى سيناء، وحول قناة السويس. وهو ما يعنى أن مصر تعانى من ويلات زراعة أكثر من ٢٠% من إجمالى الألغام فى العالم، إذا عرفنا أن فى العالم كله ١١٠ ملايين لغم، تنتشر فى ٨٧ دولة .. فى صحراء مطروح وحدها ٧٩٢٣ ضحية بين قتيل وجريح على مدى عشرين عاماً، وكلهم ضحايا الصدفة، بالإضافة إلى آلاف الأفدنة التى حرم أهالى المنطقة من الاستفادة منها، سواء فى الرعى، أو فى الزراعة (٩٨٥ ألف و٦٩٩ فداناً من الأراضى القابلة للزراعة، وتمثل ١٠% من الأراضى المصرية المزروعة حالياً) .

والمشكلة ليست مجرد وجود الألغام، بل عدم وجود خرائط واضحة ودقيقة لأماكن الألغام، التى تأثرت بالتغييرات الطبيعية، وتغيرت مواقعها باستمرار. بعض الأماكن ماتزال تحتفظ بالأسهم التحذيرية التى وضعتها القوات البريطانية، وبعضها اختفت من حولها الإرشادات المحذرة..

مؤتمرات كثيرة تعقد فى العالم الآن، تدعو إلى تعويض الدول التى أضرتها زراعة الألغام بواسطة دول أخرى فى أرضها، لكن دون جدوى. والأمر متوقف بالطبع على قدرة الدول المضارة على المطالبة بحقوقها. ويكفى أن نذكر ما حصلت عليه إسرائيل من تعويضات، بسبب الجرائم التى قالت إن النازى ارتكبها ضدها..

كنت قد حضرت مؤتمرين فى ولاية "أوتاوا" عامى ١٩٩٦ و١٩٩٧، تحت عنوان منع إنتاج واستخدام الألغام المضادة للأفراد. وقد وافق أعضاء المؤتمر الثانى على قرارات منع الإنتاج، والاستخدام، والتخزين، والنقل، وكانوا يمثلون ١٠٢ دولة..

لم يوقع الوفد المصرى على هذا القرار، وأيضاً لم توقع الدول المنتجة الكبرى عليه. وكان من نتائج عدم التوقيع تعثر المساعدات الدولية لفرق البحث والتنقيب التى أُرسلت لدول صغيرة، منها أفغانستان، كمبوديا، فيتنام، موزمبيق، السنغال، واليمن وغيرها. أما أسباب عدم توقيع مصر على الاتفاقية فكانت منطقية، وغايةً فى الأهمية. كان السبب الأول: أن إسرائيل غير مشتركة فى معاهدة الأسلحة النووية، وترفض التوقيع عليها، وترفض التفتيش. والسبب الثانى: أن مشكلة الشرق الأوسط هى المشكلة الساخنة على مستوى العالم، وأن الألغام هى أحد الحلول الرخيصة لحماية الحدود الكبيرة للدولة المصرية، فى ظل وجود إسرائيل التى تحارب كل الدول التى تجاورها..

أما امتناع الدول الكبرى- مثل أمريكا وروسيا- عن عدم التوقيع عليها، فقد جاء بسبب أنها منتجة للألغام، وتستخدمها فى أماكن متفرقة فى أنحاء العالم. ولا تستطيع أمريكا- على سبيل المثال- أن تزيل الألغام التى زرعتها بين الكوريتين، والتى تحمى قواتها وقواعدها العسكرية المنتشرة على مستوى العالم. ومازالت هنالك ٣٧ دولة لم تنضم إلى الاتفاقية حتى الآن..

سافرت إلى مطروح مع بعثة الأمم المتحدة بقيادة "مارى فاولر"، وتذكرت مسز فورستر الكندية التى كانت ترأس مؤتمر أوتاوا عام

١٩٩٦، وكانت متسلطةً، شديدة التعصب ضد مصر خلال زيارتها (زيارة من جانب واحد)، على عكس "مارى فاولر" التى قابلت الأهالى، ورأت معاناة البدو فى مطروح، والضبعة، وشاهدت آثار انفجارات الألغام على أجساد البشر. كما أخبرنا أحد المهتمين أن المصابين بلغوا نسبة ١٠% من الأهالى، وأنهم لم يحصلوا على أية تعويضات من الدول التى تسببت لهم فى عاهات مدى الحياة.. عشنا معهم حالة الرعب التى يعانون منها، وتمنينا أن نستطيع حل المشكلة. لكن كيف؟ ونحن نواجه هذا التعنت الدولى فى حل قضايانا التى تسببوا لنا بها؟

تذكرت حادثةً كنت قد تابعتها على وجه التقريب فى عام ١٩٩٠، فى مدينة الغردقة، التى روعت ذات صباح بانفجار لغم فى طفلين. قُتل أحدهما، وبترت أجزاء من جسد الآخر. وحين بدأ التحقيق اكتشف أن أحد المدرسين استطاع تعلم التعامل مع الألغام، والمفرقعات، ودرب الطفلين على الدخول إلى حقول الألغام للحصول على المتفجرات، لكى يستخرج منها مادة "T.N.T" لبيعها لصيادى السمك، ومقاولى المحاجر. وانتهى الطمع بمأساة انفجار اللغم فى الطفلين..

عدت فى حالة نفسية شديدة السوء. كتبت تقريرى للجريدة، وأرسلته بالفاكس، ثم طلبت ناهد فى التليفون، وقلت لها: إلغى مواعيدك كلها، وانتظرينى فى بيتنا. لا أريد أن أذهب إلى عملى أو إلى البيت قبل يومين على الأقل، وجدتها فى انتظارى. احتوتنى فى حضنها، لم تتكلم كثيراً، تركتنى أحكى، وأحكى.

ثم تذكرت فجأةً أننى توقفت قبل وصولى هنا عند الجريدة، لأسلم

أوراقاً لزميل لى، فوجدت سلمى عابد أمامى فجأة، تقطع درجات السلم بدلال. ضحكت ناهد قائلة: طبعاً بدلال.

- لقد أصبحت جلداً فوق العظم. ازدادت نحافة، واختفى منها ذلك الوهج الذى كانت تشعه منذ سنتين. طغى على وجهها حزن الداخل الذى تحاول إخفاءه، رغم المساحيق، والملابس غالية الثمن، والمرح المصنوع.

= عرفت أنها تعيش الآن مع صديقك حسام. أتمنى أن تكون قد وجدت معه حباً حقيقياً.. هل مازلت تذكرها؟ هل تركت فى نفسك بعضاً منها؟ أعتقد أنك تستطيع أن تجيبنى الآن برحابة صدر أكبر. بعد مرور كل هذه السنوات على انتهاء هذه القصة.

- تخلصت بالحكى لك من آثار هذه العلاقة. كنت أعرف أننى طالما لم أخبرك بها ستظل معلقةً داخلى، رغم أنني كنت قد وضعت نقطة الختام قبل ذلك بفترة. كان من السهل أن أحكى، لكننى رأيت تأثير الحكى عليك مع كل جملة، وكل تفصيلة. وهو ما مثّل عنصر ضغط على استرسالى. قاومت فى لحظتها الرغبة فى اختصار الكلام، والانتهاء من الموضوع برمته، أياً ما كانت النتائج؛ طالما خطوتُ الخطوة الأولى فيه. ولهذا، تم العبور على بعض التفاصيل، التى قدرتُ ساعتها أن حالتك لن تحتملها، لكنى حكيتها لك بعد ذلك. وهى تفاصيل الممارسة الجنسية نفسها. والسؤال هنا، لماذا وافقتُ على الحكى أساساً؟ أردتُ اختبارك، معرفة حدود امرأتى التى تطالب بالحقيقة كاملة. فهل ستتحملها بالفعل؟

أعرف الشيزوفرينيا لدى المثقفين، الانقسام ما بين المعلن الإرادى والسلوك الفعلى. فى العادة، هناك فجوة واضحة بينهما أو

تناقض واضح. أحببت أن أعرفك أكثر، وأرى كيف ستتصرفين حيال الموقف العصيب الذى سأخبرك به، هل ستصبح المعرفة والصراحة والوضوح هى القيمة العليا فعلاً، أم سيتم التصرف برد الفعل التقليدى؟

والنتيجة مزدوجة؛ تم فيها اتخاذ الموقفين معاً، رد الفعل العاطفى الذى يتصدره الألم الشخصي، يطغى أحياناً وتطغى المعرفة أحياناً أخرى، ليسا متعادلين تماما، لكنهما موجودان. أقول هذا لأن الفعل أصبح خلفنا، لكن- فى وقتها- كانت انطباعاتى مختلفة. وجعلنى رد فعلك المباشر أتساءل بينى وبين نفسي: ألم أخطئ فى إقدامى على الحكى؟ بالطبع، رد الفعل لم يأت مرة واحدة وينتهى، بل استغرق فترة من الوقت، تخللتها أحيانا عدم ثقة فى بعض التفاصيل المروية، أو دخول فى عملية تحقيق للمعلومات والأقوال، للتفاصيل التى حكيتها، والبحث عما إذا كان هناك تضارب أو إخفاء- لماذا تقول كذا، فى حين أنك قلت شيئا آخر فى مرة سابقة؟ ردود الفعل أخذت وقتا أطول مما توقعت = هذا معناه أنك لم تقتنع بأن تعبر معى الأزمة بنتائج الأزمة، ووقعها علىّ؛ بل فكرت فى عبورها وحدك، أو على الأصح في تسكين حالتى، وإلغاء آلامى تماماً. وما كنت أطالبك به هو أن نكون حقيقتنا الفعلية، على أن نتخطى معاً نتائج أخطائنا، ونتحملها معاً، حتى تمر بسلام. ألم تراجع موقفك أبداً، وتتصور الموقف لو أنك كنت مكانى؟ - لقد عبرناها بأقل الخسائر الممكنة، لأن الفعل كان قد انتهى، والكلام ينصرف إلى الماضى، لا إلى فعل مضارع مستمر، تعانين من نتائج حدوثه الراهنة = لكنك لم تخبرنى حين بدأت الحكى أنك أنهيت علاقتك بها - كنت أنهى ما أعتبره ديوناً أخلاقية، وهو شئ مختلف عن وجود العلاقة ذاتها. والديون

الأخلاقية لا تُسدد إلا مع نهاية العلاقة. معك، لا ديـــون، لا بمعنـــى مادى ولا بمعنى أخلاقى. لكن مع امرأة انتهت علاقتى بـــها، هنـــاك ديون لابد من تسديدها، لأنها أصبحت أخرى، غريبـــة. ومـــا دمـــت حكيت لك، القصة تكون العلاقة قد انتهت = تقصـــد علـــى المســـتوى النفسى، لا الفعلى؛ فقد كانت اتصالاتكما التليفونية مازالت مســـتمرة، وبقيت أشك فى إمكانيات لقاءك بها أيضاً، وهو ما لم أعرفه أبـــدا - أنا لم ألقها بعد عودتى من لندن نهائياً.

أما العامل الثانى لعبور الأزمة، فهو أنكِ- حتى لـــو كنـــت قـــد صرختِ وبكيتِ، أو قلت كلاماً جارحاً أثناء ردود أفعالك- إلا أنـــك قمت بهذا وأنتِ فى حضنى، لا خارجه. كان مصير العلاقة سـيختلف إذا كانت ردود أفعالك قد انفجرت وأنت بعيدة عنى، خارجى. والأهـم أنك لم تطيلى فى رد الفعل المستشيط، الذى يجعل الجو متوتراً لمـــدد طويلة، ويصبح بالتالى فوق الاحتمال. ولهذا، كان من السهل تجـــاوز الأزمة = طالبتك مراراً أن تحكى لى عن الدفء الذى يتم بينك وبين امرأة تقدرها وتهتم بها؛ هذا الدفء الـــذى أرى مـــن حقـــك تمامـــاً الاستمتاع به، لأن الحياة ليست خطاً واحداً محدداً، وإلا سنجف بعـــد قليل ونتصلب. فالحكى هنا سيجنبنا إمكانية انزلاق هذا الـــدفء إلـــى ناحية أخرى؛ سيضعه فى حجمه الحقيقى، لحظة سعادة فى التواصـــل مع الغير نكون فى حاجة إليها، حين تميل علينا الدنيـــا، وتعتصرنـــا بالألم. الاقتراب من آخر غريب ربما يكون علاجاً أكثر حكمة، حتـــى لا يجف النبع الأصيل مع حبيبتك، والحكى هنا يفرغه من أوهام لـــذة السرقة، ومتعة الذنب، فيسهل كشفه للنور، بدلاً من النزول بـــه إلـــى الظلام الخطر. سعادتى أن تدافع عن الحكى، عن الفكرة التى قاومتها طويلاً وبشدة. الحكى معناه أن أفكارنا لم تعد ملكاً لأحدنا، بـــل هـــى

بعضنا، هي امتزاجنا معاً.

انتصف الليل. تركت ناهد تمضي- دوني- وحيدةً إلـــى بيتـــها، على أمل أن تأتيني في الصباح؛ فلما ودعتها شعرت بيتـــم حقيقـــي. كنت في حاجة إلى دفئها. متى أستطيع أن أعيش حيـــاةً طبيعيـــة، لا تنتظر لغم الصدفة باستمرار ليدمرها حين يكتشف أمرنـــا، رغـــم أن ناهد لم تعد زوجةً منذ سنوات طويلة، لكنها على الأقل أمام المجتمـــع مازالت زوجته.

ستة

خديعـــة

لو كانت تخدعنى، فهل أستطيع الصفح عنها؟

تساءل مصطفى وهو فى قمة الغضب، ممزع المشـــاعر. يريـــد البقاء وحيداً فى المنزل، وابنته تقف على الباب متأهبةً للخروج معـــه فى أبهى زينتها. نظر إليها طويلاً.. هى ناهد الصغيرة التى عشـــقها ذات يوم، بمرحها وصخبها، ورغباتها المتأججة التى تطالب الغـــير بالتنفيذ الفورى. طالبها بانتظاره حتى ينتهى من الاســـتعداد، وتـــرك لعقله محاولة الإجابة على السؤال المضنى. "إننى عـــادة لا أســـتطيع الصفح عمن يتعمد الإضرار بى، أتجنبه، أنسى ما حدث منه، لكنى لا أغفر له.

تأكدتُ اليوم من وجود رجل فى حياتها. لم أحدد من هـــو بعـــد، لكنى أعرف أنها ترتب للطلاق، وأنها تنوى الزواج من آخر. الصدفة وحدها كشفت عن الخديعة.

لم تخبرنى بموعد عودتها من باريس. قالت: سأتصل بك حيـــن أؤكد حجز التذاكر، ثم وجدناها فى البيت فجأةً حين عدنا من أعمالنـــا.

انشغلنا بقصصها الكثيرة عن الرحلة وباريس التى تعشقها، وهداياها لنا. بعد أيام، أخذت منها جواز السفر كى أشترى مزيداً من طلباتها من السوق الحرة. قالت: اذهبا معاً، وسأحاول اللحاق بكما. فتحت الجواز، فوجدت ختم الدخول إلى مصر يشير إلى يومين سابقين عن موعد عودتها. حاولت جاهداً أن أعيد ترتيب الأحداث، لأصحح التاريخ فى ذاكرتى، دون جدوى. كان يوم رجوعها لا ينسى.. كان عيد زواجنا، وكنت أفكر ما إذا كانت ستحرص على الحضور والاحتفال به معى. وحين دلفت إلى البيت يائساً من عودتها، وجدتها فى انتظارى، وقد رتبت حفلاً صغيراً وكعكةً تجمعنا حولها.

دققت النظر مرات فى التاريخ، والنتيجة واحدة : يومان اختفت فيهما ناهد داخل مصر. أين كانت؟ ولماذا التكتم، إذا كانت تستطيع طوال حياتها الذهاب إلى أى مكان دون حاجة لاستئذان؟ رجل. هناك رجل فى حياتها.

لم أستطع أن أغالب رغبتى فى البكاء، ولم أذرف دمعةً واحدة. أريد الهرب من كل شيء، من مواجهتها، من مواجهة نفسى والأسئلة. أرفض رؤيتها، وأرفض الابتعاد عنها. أريد التحقيق معها، وأريدها أن تأتى بنفسها لتخبرنى بالحقيقة، وأن يكون لديها سبب معقول لهذا التصرف. لا أريد أن أصدق أنها تخدعنى، وأن لها حياة أخرى سرية. تعالَى يا ناهد، أخرجينا معاً من هذا الموقف. أعرف أنك لن تكذبى حين أسألك، لكن هل من حقى سؤالها؟ نعم.. بل لا أعرف.

لقد تحولنا بعد سنوات من الانفصال إلى سكان بنسيون،

يتشاركون الطعام والمبيت فى مكان واحد، ثم يتجه كل منهما إلى طريقه، دون التزامات ناحية الآخر. نحن مرضى بهذا الطلاق الصامت. كان الأجدى أن يختار كل منا طريقه، لكن لا، لم نتفق على ذلك؛ فمازالت زوجتى، وعليها أن تتصرف باعتبارها زوجتى، لا يحق لها أن تتلاعب باسمي. مسألة إسم إذن؟ نعم، فالفضيحة- إن حدثت- لن تكون من نصيبها وحدها، ستدمرنى مع الأولاد. فلماذا تضع نفسها فى مثل هذا الموقف؟ هل حان الوقت الذى يجب أن أختار فيه بين استمرار هذه العلاقة على حالها، واحتمال وجود رجل فى حياتها، وبين الطلاق، وهدم المنزل، وافتراقنا إلى الأبد؟ وماذا سأقول للأسرة التى تضرب بسعادتنا النموذجية الأمثال طول العمر؟ كيف سأواجه أسئلة البنت والولد؟ مها على وشك الزواج، وناهد رضخت لإصرارها على اختيار شريك حياتها، رغم أنها لم تتخرج بعد، وكل ما استطاعته هو اقناعها بتأجيل الزفاف حتى تحصل على البكالوريوس. يوسف التحق بجامعة الإسكندرية، وسيغادر البيت مع بداية الدراسة. لم يعد البيت يضم عائلة، نحن الآن فى مفترق طرق، كل منا على شفا الانشغال بعالم آخر. فأين أنا من كل هذا؟!

صمت

صمت، قبل أن تدفعنا أجسادنا للارتماء في أحضان بعضنا، ليتلقفنا بعدها صمت آخر. تأملته في انزوائه؛ لم يخفت لهيب الشوق، ولا قلّت رغبتي في اعتصاره إلى أبعد مدى، حتى يكتمل إحساسي بالامتزاج بكل أنسجته، ولا اهتز جوعي للقتال بضراوة كي أنفذ من كل الحواجز المادية، كي أحتل داخله كما أريد، وأسمع مباشرة تنهدات قلبه المحترق من الحب، وأكسر كل القيود التي يضعها أحياناً كسترة واقية، يحتمي بها من انفضاح عدم قدرته على احتمال بعادي، لكي أعبر أنا عن لهفتي إليه. لكنني مع هذا، طوقت جسدي بذراعي حتى لا أرتمي فوق صدره، منتظرة أن ينطق بكلمة لم ينطقها.

أخذنا ندور في فلك الوقت، دون أن يفصح أحدنا عن رغبته الحقيقية في الآخر، دونما سبب. أكاد أصرخ من الجنون الداخلي: لماذا لا تعترف بحاجتك لي؟ وأرفض أن أقولها له كما اعتدت؛ إذ لاحظت أنه اتخذ خطوة للوراء أثارتني، وتوثبت معها كل شكوك العالم من بين جوانحي: هل ملّني؟! وانتظرت إلى أن دفعتنا أجسادنا

دفعاً لالتحام جاء بقوة أطارت كل التوجسات، لنجد أنفسنا مرةً أخرى- لحظة أن هدأنا- أمام الصمت. ماذا حل بنا؟

- أعصابى المتعبة أعالجها بدواء يقيم جداراً شفافاً بينى وبين العالم، يلقى بى إلى حالة بلادة وعدم انفعال، هل وصلك المعنى؟ = أصرخ من العجز منذ أيام، وأردد أنى أحتاجك، فتصمت. لماذا دخلنا هذه المتاهة الغريبة ؟ - تراكم حالة الانقسام التى نعيشها، عقلى المشحوذ دائماً ليتذكر أى الأدوار يلعب الآن؟ معك أم معها؟ انتباهى الدائم لكل ما يصدر عنى؛ حتى أثناء النوم، أخشى أن أنطق باسمك، وأناديك فى لحظة عدم يقظة كاملة. لا أمر مثل غيرى بدرجات من الصحو للحواس، بل أنقذف إليها دفعةً واحدة . لم تعد أعصابى تحتمل، أخشى على نفسى، وأنا أرى الأصدقاء حولى يتساقطون مثل أوراق الخريف الجافة: لكنِ أوراق الخريف تسقط فى موعدها، بعد أن تيبس عصارتها تدريجياً، وتستنزف حياتها على مهل. نحن نضمر دون إنذار: مجدى حسنين، أروى صالح، سناء المصرى؛ بت أخشى ما تخفيه دواخلنا عنا. لا مظاهر تعبر عما يمور فى أكبادنا، وما ينخر فيها. احتجت إلى مهدئ بعد أن رأيت عضلات الجانب الأيسر من وجهى ترتجف، وحواف شفتيَّ تهتز قبل الكلام. وكان الطبيب قد نصحنى بها فى فترة سابقة، وسمح لى بتكرارها إذا احتجتها. =تعال نذهب إلى طبيب؛ فأنت مرهق، لا تأكل بانتظام، وتعمل بكد ليلاً ونهاراً؛ أنت في حاجة إلى راحة قبل أن تفكر فى مهدئات. كم مرة رتبنا رحلة معاً ولم تتم؟ - ناهد.. لقد استمرأت حالة الازدواج هذه. قلت لك مرات إن الاستثناء لا يمكن أن يصبح قاعدة. فمتى تتخذين قراراً؟ متى تنهين الحالة التى نعيشها على الحافة، بأعصاب مشدودة دائماً؟ كيف تطمئنين إلى الغد بهذه السهولة؟ = لم أعتد الطمأنينة

معها، أعرف أنى أحايلها وأتحايل عليها، أكسب منـــها مزيـــداً مـــن الوقت حتى ينتهى زفاف ابنتى. أعرف مدى تعقد الأمر بالنسبة لـــها، أريدها أن تخرج إلى الاستقلال من بيت يبدو لها على الأقل متماسكاً. لا يهمنى الآخرون كما تتصور. هى كل ما ضحيت من أجله، فلمـــاذا لا تكتمل تضحيتى الآن، وأنا على وشك أن أؤدى رسالتى نحوهــــا؟! خائفة، نعم أنا خائفة، لا أنكر. ربما لأنى أعرف حجم مـــا ســـيعانيه طفلاى - لم يعودا أطفالاً = ربما اكتفيت من الحياة بما وهبتـــه لنـــا، جائز. الأمر أكثر من رغبة أم فى إكمال رسالتها. أخاف ألا أكـــون عوناً لك لكى تكمل مشروعك. على الأقل الآن، أنـــا أســـاندك دون أعباء مباشرة: تلقانى حين تستطيع أن تتوقف عـــن العمـــل، تـــأتينى متفرغاً تماماً لى، رغبتك وحدها هى سبب وجودك معى، لا المصالح أو أى شكل اجتماعى أو حتى أطفال. لا أفهم كيف تلغى المشكلة التى سيواجهها شريف، أعرف قدرتك على الحسم، وأنك تستطيع الابتعـــاد عنهما ورعايتهما. لكنى أفكر بشكل آخر؛ أنت الآن، مثـــل كـــل أب مشغول، يعود فى نهاية اليوم إلى ابنه. الذى يجد له العذر فى ضيـــق الوقت، تلفه طمأنينة فى فترة النضج، حتى لو كانت زائفة. أنا أخشـــى عليه كما أخشى على طفلىَّ.. إذا كان المجتمع يبيح الطلاق- بالنســـبة لى- حتى يكون الأمر رسمياً، ولا يعترف بالانفصال وحـــده كحـــق لمعرفة آخر، فالأمر ليس معقداً تماماً بالنسبة لك. على الأقل، يتيـــح لك الزواج من أخرى - أنت تعلمين أن من المستحيل أن تقبل مـــاجى أن أرتبط بك علناً؟ وأحتفظ بها كزوجة، حتى لو كـــان هـــذا حقـــى الشرعى, وتعلمين أكثر أنها سترفض مجرد طرح الأمـــر للنقـــاش. الطلاق مفترض أن يتم قبل أن تعلم بارتباطى بك، لأن هذا جارح. = ما قصدت إلا فتح إمكانية أخرى لك، أقول لك إننى أقبلها.. أو علـــى

الأصح أنا أفكر كثيراً فى زواج غير معلن يُبقى على حالة التوقد التى نعيشها الآن. لا أعرف إن كانت العلنية هى السبب، لكنى- على الأقل- أعرف أن الاعتياد سيختفى فنستطيع الاحتفاظ بكل مميزات هذه المرحلة، ونتخلص من مشاكلها. وإن كنت أشعر دائماً أن الألفة اليومية تولد نوعاً آخر من الحب. أفكر ليل نهار فى استمرار الحب على الشاكلة التى أريد -أفكر الآن أنك تهربين من مواجهة الموقف بأساليب أشعر- أحياناً- أنها جهنمية، حتى لو لم تقصدى هذا. استهلكنا العمر، سنوات وراء سنوات حتى نصل إلى حل دون جدوى.

شـقة

كان الصفاء يخيم على السيارة التى تقل العائلة العائدة من الإسكندرية. تعالت الضحكات وهم يتسابقون مع سيارات القافلة، التى ضمت العائلات التى اعتادت قضاء أجازتها السنوية معًا. تسابقوا فى الغناء بأصوات أكثر صخباً وبهجةً مما كانت وهم ذاهبون إلى المصيف. انحشروا فى الشاليهات، وانقسمت الغرف إلى مكان للبنات وآخر للأولاد. سهروا الليالى حتى الصباح، وحمصوا أجسادهم تحت الشمس، وعبوا من عرامة الحياة. شعر مصطفى براحة وحميمية، حتى كاد أن يصدق أنه وناهد صديقان حميمان، لا زوجين. تصالح مع حالتهما، رغم أنه يتوق للإفراج عما يكبل جسده.

فتحوا باب الفيلا، وأنزلوا الحقائب، وهم لا يتصورون أنهم سيعودون إلى سيرتهم الأولى فى الغد. اتفقوا على أن تستمر روح المصيف ومرحه، وأن يتجمعوا معاً قدر المستطاع. دق جرس الهاتف، فأمسك مصطفى بالسماعة، وجاءه صوت يقول:

– هنا مكتب سمسار "الهَنا". أريد أن أبلغكم أن طلب السيدة ناهد

جاهز، وأن ملاك العمارة قد وافقوا على شروطها فى التعاقد.

= هى مشغولة الآن. هل أبلغها بتفاصيل أخرى.

- الشقة يا سعادة البك "لُقطة" لن تجد مثلها بسهولة، واسعة وسعرها معقول، وتطل على حديقة كبيرة. وقد عاينتها السيدة ناهد بنفسها، وكل التغييرات التى طلبتها لن نختلف عليها. والملاك أولاد أكابر، وارتاحوا للتعامل معها، ومستعدون لأية خدمة.

- إن شاء الله ستتصل بك على الفور. مع السلامة.

لمن الشقة؟ هل هى لأحد الأصدقاء؟ لكنه قال إنها جاءت وعاينتها بنفسها، وطلبت تغيرات قبل شرائها! هل تفكر فى زواج يوسف؟ لكن الوقت مايزال مبكرًا؛ فهو فى السابعة عشرة الآن. من أين أتت بالمال؟ لماذا لم تخبرنى؟ من أنت.. يا ناهد؟ من المرأة التى تعيش معى؟ هل كان السلام الذى نعمنا به طوال العطلة سلاماً كاذباً؟ وكل ما عشناه كان وهماً؟

كنت مُحقاً حين تحدثت مع السمسار، ولم أستدعها. هل أخبرها بما عرفت؟ أم أقول لها أن تتصل به دون تعليق، وأنتظر ردها؟ أم أتركها تستمر فى خطواتها، دون أن تعرف أننى قد علمت؟

الخيوط تتجمع الآن. سفر بلا مواعيد عودة، مبيت مع البعثة الفرنسية بشكل دائم، سعى لشراء شقة. تدبرين للرحيل إذن. لن يكون هذا أبداً. لن تخرجى من هنا بهذه البساطة. لقد خدعتنى بإحكام طوال الوقت، وتركتنى أرعى الحب المهزوم، لكى تربى طفليك بأمان كما شئت لهما. والآن تخططين للإفلات ببراءة، وتتركيننى للشك فى وجود رجل فى حياتك، دون أن أستطيع الإمساك بأى خيط.. شيطان.. لقد تركت شيطانا يعبث بى، وهذا ما لن يكون.

مطـــاردة

يطاردنى صحفيون من جرائد لها وزنها، وآخرون من جرائـــــد صفراء تعيشِ على الفضائح. يعلمون أننى أعمل ليلاً، يتصلون فـــى الثالثة صباحا:

– أستاذ عمر.. ما رأيك فى مقال جريدة الشعب "*مـــن يبـــايعنى على الموت؟*" والتحريض على قتل الكتاب؟ – هل نتحول إلى جزائـر أخرى تقتل مثقفيها وكتابها، وكل من له رأى معارض؟ – كيف تكتب وسط هذا المناخ، وهل سيشتد موقف الرقيب الداخلى الآن بعد أحداث "الوليمة"؟ – ما رأيك فى تدخل الأزهر كرقيب علي الأعمال الأدبيـة؟ وما رأيك فى مقالات شيخ الأزهر عن الإبـــداع، التـــى تنشـــر فـــى الأهرام؟ – قال رئيس جامعة الأزهر للطلاب إن الروايــــة كـــافرة، وطالبهم بالهدوء، ثم اختفى؛ فهل ساهم د. أحمد عمر هاشم فى إشعال المظاهرات ؟ – هل تعتقد أن الدولة متورطة فِي موضـــوع جريـــدة "الشعب"، أم أن قضية "حيدر حيدر" كانت ظرفاً مناسباً استغله جميـــع الأطراف: حزب العمل لإعلاء صوته قبل الانتخابات، واســـتعراض

قواه فى الشارع المصرى، والحكومة بضرب الحزب الذى تجاسر على اللعب فى المناطق الخطرة؟ - هناك رأى يقول إن الحكومة ستضرب الطرفين: حزب العمل بإغلاق جريدته، والمثقفين بإحكام الرقابة - هل تعلم أن المجلس الأعلى للثقافة قد غير البرنامج المعلن لنادى السينما الذى يتبعه، وألغى عرض بعض الأفلام التى تتمتع بحرية كبيرة فى تناول الموضوعات بعد ضجة "الوليمة" ؟ - ما رأيك فى الخبر الذى يقول إن هيئة الكتاب كونت لجنة عليا للقراءة من خارج الهيئة، يبدأ عملها بعد انتهاء لجان القراءة من إجازة الكتب، وإن وزارة الثقافة تعيد قراءة بعض الأعمال الإبداعية الصادرة عنها لكتاب "محددين"!! - ما رأيك فى إيقاف جريدة "الشعب" عن الصدور؟ - لماذا لم تتخذ نقابة الصحفيين موقفاً متشدداً إزاء تجاوزات جريدة "الشعب"، التى دعت بصريح العبارة لإهدار دم الكتاب، وبعضهم صحفيون وأعضاء بالنقابة؟ هل السبب سيطرة تيارات معينة على مجلس النقابة، بعد الانتخابات الأخيرة؟ ولماذا تراجعت عن استضافة مؤتمر المثقفين لمناقشة القضية؟ - هل تعرف المقصود بـ "ثوابت الأمة"، ومن الذى يحددها ؟ - الشلل تسيطر على الحياة الأدبية والثقافية فى مصر الآن. ما رأيك؟ - هل ما يحدث الآن هو نتيجة فساد الحياة الثقافية؟

مبادرة لإعادة طبع الرواية، وحيدر حيدر يرفض. نداء الدم أثمر فى جامعة الأزهر. الشعب ضد الشعب. موسم المكاسب بدأ مبكراً بعد أن حولوا الدين لأناشيد ثورية. المحرضون سياسيون مهزومون وطلاب شهرة، وأحزاب بلا أفكار. تقرير اللجنة العلمية لوزارة الثقافة: "وليمة لأعشاب البحر" عمل مقاومة ينتصر للدين. الكاتب المثير للفتنة هو الذى أهان القرآن وليس الرواية. المغرضون تعمدوا

إغفال ردود الشخصيات الأخرى على شخص واحد اعتبروه مجنوناً. ماكتبه حيدر حيدر لا علاقة له بحرية الإبداع. بعد إذنكم أنا مختلف معكم.

– ما رأيك فى عناوين جريدة "الشعب": "المؤامرة تتحول إلى فضيحة"، "الله أكبر، الأزهر يدين الرواية الكافرة، ومن أصدروها"، "شيخ الأزهر: الرواية تحتقر الأديان، وتتطاول على ذات الله والرسول والقرآن الكريم والأداب"، "المؤامرة لضربنا تتكشف، الشرطة تساند البلطجية، هل تضربون الأزهر بعد حزب العمل؟ هل ستضربون الأمة كلها؟". "شكرى: سأعلن الصيام إذا نفذوا تهديداتهم ضد الحزب والجريدة، وعليهم أن يتحملوا النتائج"، "سيف الاسلام: معركة حزب العمل معركة مشرفة ضد الفساد، والصهاينة، وضد سب الدين"، "أمن الدولة تمنع المؤتمر القومى للمبدعين والمثقفين الذى دعا إليه حزب العمل". حملة لجمع مليون توقيع:

أيها المواطنون، عَبروا عن غضبكم بما هو أكثر من الضيق.

السيد رئيس الجمهورية

نطالبكم بمحاسبة المسئولين عن إصدار كتب تسىء إلى إسلامنا ومقدساتنا، نشكركم وبارك الله فيكم

الاسم *المهنة* *التليفون*
اختيارى

– سألناه: هل نسير فى جنازة الثقافة المصرية، فقال لنا الإمام الأكبر: القضاء يفصل بين الأزهر والأدباء، والمحرضون لابد أن

يعاقبوا- بلطجية ومتاجرون بالأديان يشعلون الإنتخابات القادمة- المهزلة مستمرة تكفير الشعراء واتهامهم بالزندقة- هل هى مصادفة أن تندد الجماعة الإسلامية الإرهابية- التى تكفر الأحزاب والحزبيين- بتجميد حزب العمل - وليمة لانتخابات مجلس الشعب.

تحاصرني الأسئلة و"مانشيتات" الصحف، وأنا أكاد أُنهى روايتى، معتقداً أننى قتلت الرقيب الدخلى، وكتبتها كما أريد بالضبط. يحاصرنى مجتمع قاهر لا أستطيع فيه أن أكون ما أريد. لا أستطيع الزواج من حبيبتى، لا أستطيع ترك ابنى لزوجة قد تأخذه وترحل إلى بلادها فلا يعود مصرياً أبداً. مشاكل فى الجريدة تحاصر الموهبين. أتأمل أوضاع المؤسسات، وأتعجب من كل هذا الفساد: هل وصل الأكفاء فى أى مؤسسة إلى مناصب الإدارة بها؟ أبتسم، وأنا أقرأ فاتورة قسط الكومبيوتر، وأمامى عناوين نواب القروض. أعود إلى الدائرة الجهنمية لفساد الحياة الثقافية، والمعارك على السفر للخارج، وتضييق الخناق على الكاتب، وأسأل نفسى: كيف يمكن أن أنشر مثل هذه الرواية وسط هذا المناخ؟ هل أعيد قراءتها وحذف كل ما يمكن أن يثير "الشبهات"؟ أرفض التغيير، وأرفض الكتابة، وأهيم على وجهى، لا أقدر حتى على مواصلة القراءة أو لقاء الأصدقاء. ويكون الضجر هو بطل يومى. أُصاب بأمراض وهمية. وتمر الأحداث مثل أمواج تتعاقب، وأتذكر أن مصر كانت تهضم كل المتعصبين فى حضارتها، وتعيد تطويعهم وتحويلهم إلى مواطنين مصريين بلا تعصب. أراهن على حضارة السبعة آلاف عام، وأقرر أن أنشر روايتى كما هى. تخزنى الشكوك: هل ستقبل دار النشر الآن

ما أكتب؟ أجيب بروح مرحة تتفاءل بالمستقبل، حتى لو لم أجد فـــى مصر سأجد فى بيروت، فى المغرب، ستقبع فـــى الأدراج إلـــى أن يحين نشرها، ولن أغير من منهجى وأخضع للظلام.

الصـــدق

أشعر بانتعاش خاص: هذا يوم يستحق الاحتفال. تتلقانى نـــاهد بذراعين متشوقتين للضم, تقول لى: آن الأوان يا عمر, أحتــاج إلـــى الراحة، تعبت من الازدواج. أخفى عليك الكثير من الآلام التي تمــر بى مع مصطفى، أتمزق تحت ضغوط التوازن, أجدنى غريبة وســط الأهل والأبناء، وحيث الأصدقاء الذين عاشرتهم طـــوال العمــر. لا أتكلم معهم، لأننى لن أقول الحقيقة. وقد اعتدت أن أحكى كـــل شــئ ببساطة. تعلمت الصمت بينهم, إذا التقينا بالصدفة. فأنت تعلـم كيــف أصبح الوقت موزعاً بين احتياجات الحياتين اللتيـــن أعيشـــهما الآن. تعال نتفق كيف سأطلب الطلاق, ونضع تصورات عما سنواجهه مــن مشاكل إلى أن يتحقق. هل تعتقد أن مصطفى سيرفض طلبى هذا؟

أحتار فى الرد. أقول لها: أنت تعرفينه أكثر منى. إذا تمســـكتِ بطلبك ستنالينه. لم أشعر برغبتها بهذا القدر من الإرادة، كما رأيتــــها اليوم. كانت هادئة, ليست سعيدة, لكنها ليست متألمة, كما كانت فــــى كل مرة ذكرنا فيها الموضوع. كنت أعرف أنها تفكـــر فـــى ابنتـــها

وابنها، باعتبارهما طفلين فى حاجة إلى رعاية. لم نتحدث عن إتمام زفاف ابنتها، أو استقرار ابنها فى كلية؛ قالت بروح متفائلة: آن الآوان كى أفكر فى راحة ناهد!! أن أصدُق معها، فهى تستحق هذا.

لم أكن صاخباً، رغم بهجة الداخل. حذر اعتدته طوال حياتى. لا أحب أن أنتظر من الدنيا الكثير، فأتعب من عدم تحققه. أترك نسبةً واضحةً لغدر الأيام. ضممتها إلى صدرى براحة، واحتفظت بجسمها طويلاً ملتصقاً بى، دون كلام. كنا فى حاجة إلى الصمت، إلى هذا الفهم العميق لرحلتنا التى استغرقت كل هذه السنوات. ارتشفناها على مهل، دون أن يقوم أى منا بحركة واحدة تعوق حياة الآخر، أو تدفعه دفعاً لتصرف متعجل. ربما نكون قد استهلكنا جزءاً لا يستهان به من أعمارنا، وقد أكون ضد الفكرة كلها، لكننى ما كنت أستطيع انتزاعها من عالمها بهذه السهولة. لقد أحببت أماً، وكان علىَّ أن أدفع ثمن لقائنا المتأخر. لم تعرف أننى اعتبرت كلماتها لى مجرد رغبة، حلماً أو أمنية، وتركت أمر تحقيقها للقدر. فنشوتى التى جئتها بها كانت أقرب للبشرى.

كنت قد قررت أن أنهى روايتى لصالح الصدق مع النفس، وكتبت مسودةً بالفكرة، ثم خرجت من البيت متفائلاً، رغم أننى داخلياً لم أعد أنتظر تغييراً كبيراً فى حياتى. فقد اعتدتُ صعوبتها، وتدربت على مواجهة ما يستجد من مفاجآت. غيرت ناهد قدرتى على احتمال ماجى، بامتصاصها لغضبى. أعود من لقائها غاسلاً مشاعر النفور.

فتحتُ الباب: ضوءٌ خافت ينبعث من غرفة مكتبى، وسط السكون. دخلت لأضع أوراقى، وأبدأ رحلتى التى أحبها وحيداً، فى عتمة الليل مع نفسى، أستعيد فيها يومى. لم أخرج بعد من ناهد،

شذاها فوق أصابعى، وجسدى ينشع بالسعادة. اصطدمت عيناى بماجى مكومةً فى ركن الكنبة الاستوديو، تحت المصباح الصغير، وأمامها لفافة سوداء لم أتبين ملامحها.

هاجمتنى رائحة دخان، وأنا ألقى التحية. تدخن ماجى كثيراً هذه الأيام. لم ترفع رأسها المضمومة بين ركبتيها. اقتربت، ومسحت شعرها، رفعت لى عينين جاحظتين بلون الدم، وبشرة عجوز فيها تعرجات آلام مبرحة. ضغطت فوق زر النور، قبل أن أسألها عن الحدث المروع الذى ينطق به وجهها. صدمتنى دفاتر الرواية محترقةً، متفحمةً حتى النهاية، لم يبق منها غير أطراف الكرتون المعوج فى السلك!!

رقم الايداع : ٧٥٤٢ / ٢٠٠١
I.S.B.N
977 - 07 - 0775 - 9

أحدث إصدارات روايات الهلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦١٧	خزانة الكلام	جميل عطية ابراهيم	مايو ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦١٨	بوح الأسرار	محمد جبريل	يونيه ٢٠٠٠	٥,٠٠
٦١٩	صالح هيصه	خيرى شلبى	يوليه ٢٠٠٠	٧,٠٠
٦٢٠	غريبان فى قطار	باتريشيا هايسميث	أغسطس ٢٠٠٠	٨,٠٠
٦٢١	حكمة العائلة المجنونة	فؤاد قنديل	سبتمبر ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦٢٢	الطوف الحجرى	خوسيه ساراماجو	أكتوبر ٢٠٠٠	٨,٠٠
٦٢٣	زنوبة	قوت القلوب الدمرداشية	نوفمبر ٢٠٠٠	٦,٠٠
٦٢٤	أشجار قليلة عند المنحنى	نعمات البحيرى	ديسمبر ٢٠٠٠	٥,٠٠
٦٢٥	نقطة النور	بهاء طاهر	يناير ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٢٦	البعيدون	بهاء الطود	فبراير ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٢٧	فيرونيكا تقرر أن تموت	باولو كويلهو	مارس ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٢٨	جبال الكحل	يحيى مختار	ابريل ٢٠٠١	٥,٠٠

روايات الهلال تقدم

شرف كاتارينابلوم الضائع

تأليف

هاينريش بل

(نوبل ١٩٧١)

ترجمة

د . شحاته ياسين

تصدر : ١٥ يونيه سنة ٢٠٠١



هالة البدرى

مواليد القاهرة ١٩٥٤ .
بكالوريوس تجارة ودبلوم صحافة
عملت مراسلة لروز اليوسف فى بغداد من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٠
تعمل الآن نائب رئيس تحرير مجلة الاذاعة والتليفزيون، صدر لها فى الأدب «السباحة فى قمقم» رواية ١٩٨٨ «رقصة الشمس والغيم» قصص ١٩٨٩، «أجنحة الحصان» قصص ١٩٩٢ و«منتهى» رواية ١٩٩٥، «ليس الآن» رواية ١٩٩٨.
واصدارات أخرى: «حكايات من الخالصة» ١٩٧٦، «المرأة» ١٩٨٠ «فلاح مصر فى أرض العراق» ١٩٨٠.

ترجم لها العديد من القصص إلى الانجليزية والفرنسية واليونانية ولها تحت الطبع .

- تقاسيم على قصة حب.
- سؤال فى الابداع العربى .
- دراما الإذاعة .

هذه الرواية

هى الرواية الرابعة والعمل الإبداعى السادس للروائية المتميزة هالة البدرى، صاحبة «منتهى» و«ليس الآن».. تخط بها مسارا روائيا جديدا قد يفاجئ القراء والنقاد.

«امرأة.. ما» هى رواية الأسئلة الصعبة الشائكة، التى يتواطأ الجميع على تجاهلها، رواية الشهوة العارمة للحياة، والإصرار على التحقق الإنسانى، رغم أنف جميع الظروف.

تطرح الأسئلة، فتنكشف ازدواجية الإنسان بين العلنى الاجتماعى والسرى الذاتى، والعجز عن التوحيد بينهما، ليصبح الانقسام على الذات هو قانون الوجود الذى يفرضه المجتمع على أفراده فى سعيهم الدائب لجعل الحياة ذات معنى، بشرط وحيد: الإبقاء على سرية السرى، والمحافظة الشكلية على العلنى الاجتماعى.

وعلى نحو غير مسبوق، ربما، تتجلى الأعماق الخفية الدفينة لبطلى الرواية ، فتتعرى الدوافع النفسية وآليات التفكير وأسرار البناء الذهنى للإنسان المصرى والعربى الآن، وهو يتخبط فى الفخ الذى وقع فيه، بحثا عن مخرج إنسانى يليق به فى واقع يحاصره من جميع الجهات.

رواية تخترق السطح الظاهرى لتكتشف ما يكمن خلفه، وتصل إلى الاكتشاف الأقصى الذى لا يعود ممكنا معه الصمت أو التجاهل أو التواطؤ المريب.

روايات مصرية للجيب

النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه



روايات مصرية للجيب

لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢